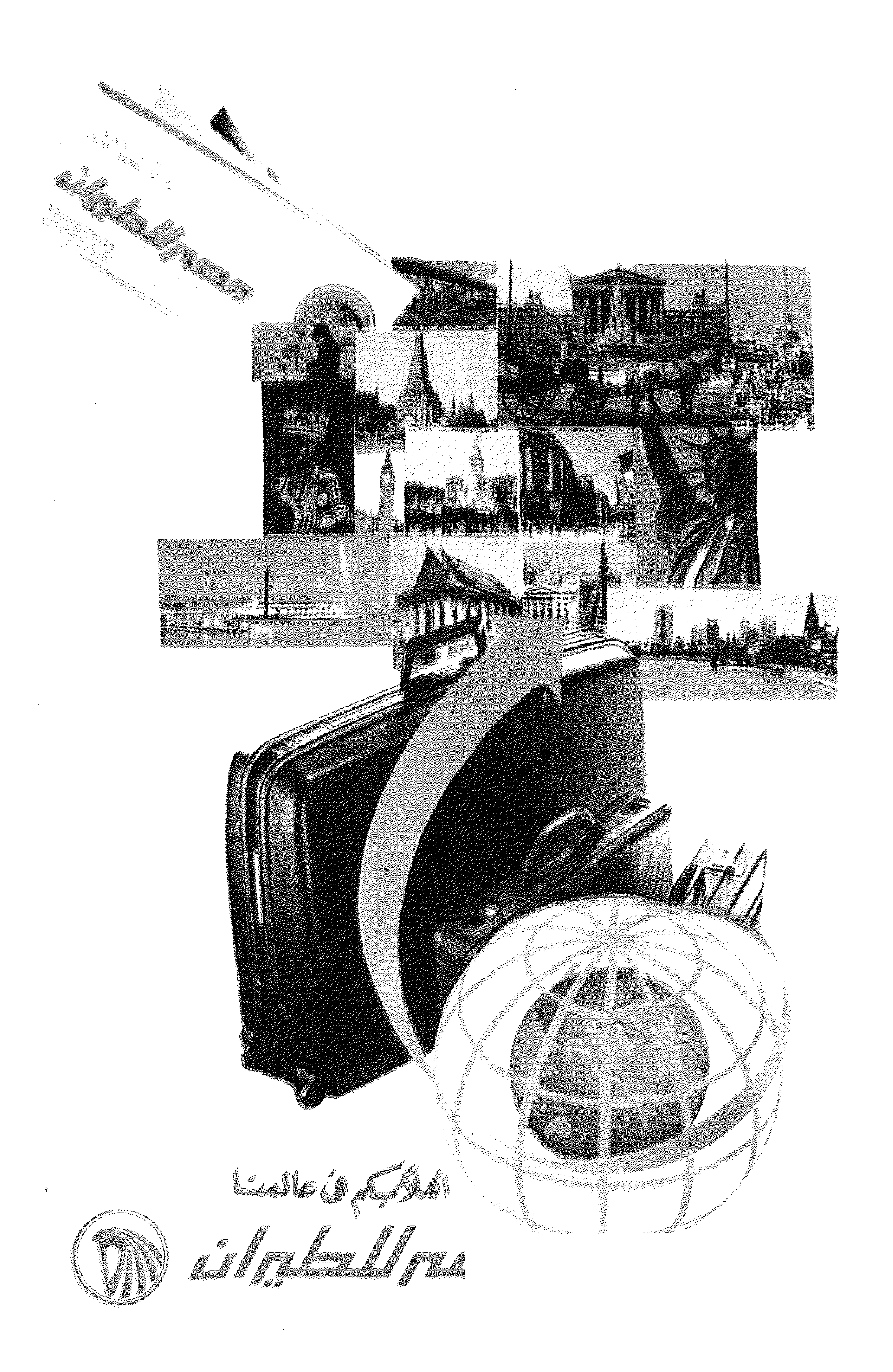


بلاد تشيل وبلاد تحط
محمود السعدنى
دار الهلال



أهلاً بكم فى عالمنا

بلاد تشيل
وبلاد تحط

محمود السعدنى

دار الهلال

الغـــــلاف للفنـــان :

الطـــــــــــــــراوى

الرســـــوم الداخـــــلية

للفنــــان : طـــــــوغان

المدافع .. و صلاة الزين

العبد لله سفرى وهوايتى القفز من مكان إلى مكان ، وأعشق الصياعة ولا أجد فرقا بين الصياعة والسياحة . وأرى لذة العيش فى التنقل ، حتى ولو كان التنقل بدون فلوس ولا شيكات ، وحتى لو كان النوم على الرصيف ، والأكل فى المطاعم الشعبية .

وزمان .. والعبد لله صبى صغير تركزت أحلامى فى رحلة على الأقدام ، أقطع فيها الطريق من مصر إلى فلسطين إلى سوريا إلى تركيا إلى بلغاريا إلى ماشاء الله من بلاد الله . ولكن لأن الأحلام كبيرة والعزم قليل ، فقد اكتفيت برحلة إلى الاسكندرية ، واصطحبت معى اثنين من زملاء الدراسة ، حسن كامل ومحمود القبانى ، ذهبنا بالقطار وعدنا كعابى ، ودخنا دوخة الأرملة ، وأكلنا لفتا على فجل ، وتشعبطنا فى سيارة نقل ، وركبنا القطار خلسة من كفر الزيات إلى طنطا، وتمشينا أفرنكى من طنطا إلى بنها ، ووصلنا القاهرة بعد سبعة أيام ، وبعد أن أصبحت قدماى فى حجم قدمى تمثال رمسيس . وعندما سنحت الفرصة عبرت أوروبا ، مرة بالقطار ومرة بالسيارة ، وأكثر من عشرين مرة بالطائرة . والعبد لله غاوى أوروبا ، لأننى غاوى نكد ، فما ذهبت مرة إلى أوروبا إلا وتنكدت نكدا عظيما . فالصورة التى نقلها أسلافنا عن أوروبا مشوهة للغاية ، صورة مزيفة مهزوزة ، صورة تجعل القارىء يحس بعقدة النقص . فهو وسخ وأوروبا نظيفة ، وهو جبان وأوروبا شجاعة ، وهو جاهل وأوروبا عالمة ، وهو نائم وحالم وأوروبا يقظة ونشيطة .

صورة أيها الإخوان ويا أيها الخلان كذب فى كذب، دلالتها الوحيدة أن الذين نقلوها يعرفون أوروبا جيدا ولكنهم لايعرفون مصر !.

هكذا صور أوروبا لنا أخونا الكبير أحمد الصاوى محمد ، وأخونا الأكبر محمد التابعى ، وأخونا بس المرحوم فرج جبران ، ووقع فى نفس الغلطة فنان مصر العظيم أبونا وعمنا وتاج راسنا بيرم التونسى. وقع فى نفس الغلطة لا أدرى كيف ؟ وبيرم

التونسى أيها الناس فنان عظيم ولا كل الفنانين. بيرم التونسى يستحق تمثالا فى كل ميدان. ولوحة تذكارية فى كل شارع . ونصبا تذكاريا فى كل حارة وفى كل زقاق ! ومع ذلك طب بيـرم التونـسى فى نفس الغلطة وكتـب قصـيدته المشهـورة «عاتجن ياريت يا إخواننا مارحتش لندن والا باريز !».

أوروبا نظيفة نعم، ولكن لأن جبالها ليست كالمقطم ، وسماءها ليست صلعاء كسمائنا . السماء هناك ترخ على الدوام ، ماء فى بعض الأحيان ، وثلجا فى أغلب الأحيان ! والألمانى مثلا نشيط أى نعم لأن عنده عملا ، إمكانيات بلاده تتيح له أن يعمل وينتج . ولو كان لدينا نصف إمكانيات الشعب الألمانى لصنعنا معجزة. لو عندنا ربع الجمال الطبيعى الإلهى الذى فى سويسرا لأصبحنا ألطف من أهل سويسرا وأرق من أهل سويسرا . ولو وفد على بلادنا خمس عدد السياح الذين يذهبون إلى سويسرا، لأصبحنا أنظج وأعيق وأعجب شعب فى العالم ! ولكن هذا هو البير وهذا هو غطاه كما تقول أمى ، ورغم قلة الإمكانيات ووفرة العدد ، فشعبنا أذكى شعوب الأرض . شعبنا أطيب شعوب الأرض . شعبنا مزاجاتلى وفنان . حتى بائع الجميز والعجور والفجل الذى هو من الجزائر ياورور ، يغنى على بضاعته وكأنه يبيع الأناناس .

ومستوى الذكاء فى أوروبا منحط . حتى الصعيدى الغلبان التعبان الذى يعيش فى القاهرة مذعورا ساحبا هراديبه خلف ظهره أذكى ألف مرة من ألمانى مثقف ، وأذكى مليون مرة من سويسرى متخرج فى جامعة ، وأذكى بليون مرة من وزير فى بلاد البلجيك .

ولكن .. كيف هزمنا هؤلاء الناس ؟ كيف حكمونا ؟ كيف أذلونا وسحقونا ؟ السبب بسيط . كان مع هؤلاء مدفع ولم يكن معنا شىء .

عصور النوم التى مرت علينا جعلتنا نتواكل ونستسلم ، فلما جاء هؤلاء الشقر من وراء البحار ، كان معهم مدافع وكان معنا صلاة الزين ، فغلبونا وهزمونا . ليس لأنهم أذكى منا ولكن لأنهم أقوى سلاحا وأقوى بارودا وأقوى بترولا وفحما وصلبا . والله على ما أقول شهيد !.



ورجل مجنون ومعتوه ومعه مطوة يستطيع هزيمة أينشتين نفسه ، لأن المطوة أقوى من عقل أينشتين الذى أدت نظريته إلى اكتشاف سر الذرة !.

هكذا بالمطوة هزمتنا أوروبا وحكمتنا . فلما انحسر ظل أوروبا عن آسيا وعن أفريقيا ، وعادت إلى حدودها لم تتنازل عن المطوة وظلت بين أصابعها . كل أوروبى الآن معه مطوة يشهرها فى وجه زميله . العلاقات الإنسانية هناك علاقات مطاوى . والمطاوى ليست ظاهرة فى اليد ، المطاوى مختفية داخل النفوس ، داخل المشاعر ، فى القلب ، فى النظرات . فى اللمسات . فى الهمسات كما يقول كامل الشناوى !.

تصوروا أيها الناس .. العريس يعزم عروسته على العشاء ويدفع حسابه وتدفع حسابها . رب العائلة يدعو العائلة إلى الشراب فيدفع حسابه والزوجة تدفع حسابها والإبن يدفع حسابه والبنت تدفع حسابها . وقد تكون البنت صغيرة ولا تعمل شيئا ولا تكسب شيئا . والرجل الكبير لا يهتم بمصدر أموال ابنته . المهم عنده أن تدفع حسابها !.

التقيت بامرأة فى ميونيخ فى الثلاثين من عمرها تعمل جرسونة فى مطعم كبير . وسألتها ، هل تقيمين مع عائلتك ؟ فأجابت بالنفى .

وقلت : ليه ؟

قالت : أبى مات فى الحرب وأمى تسكن وحدها ولم أرها منذ عشرة أعوام .

وسألتها : هل تسكن خارج ألمانيا ؟

وقالت الست الجرسونة : لا .. إنها تسكن هنا فى ميونيخ ولكن مشاغل الحياة تمنعنى عنها ! تصوروا .. مشاغل الحياة تمنع البنت عن أمها وهى تسكن على بعد فركة كعب منها !.

وفى ألمانيا . فى بون عاصمة ألمانيا شاهدت رجلا فخيم المظهر مهيب المنظر يقف فى حديقة عامة يتسول فى زهو شديد . وقال لى «سلامة» مندوب أخبار اليوم هناك : هذا الرجل المتسول له ستة أبناء بعضهم يركب المرسيدس وبعضهم يملك أرصدة فى البنوك من عدة أصفار .. ولكن الرجل العجوز يتسول لأن المبدأ العام هناك لا أحد يهتم



بالآخر ، ولو كان الآخر أباه أو أخاه أو حماه .. وهذا الأخير أذكره فقط لينبسط مدرس العربي وطلبة الأزهر !.

والمصرى الأصيل هنا يقضى رحلة حياته ساحبا عائلته فى رقبته ، وليست عائلته أبناءه أو بناته ، ولكن خالاته أيضا وعماته . وأولاد عمة ابن عمه وبنات خالة ابن خاله . قد تكون المسألة قاسية أحيانا ومعطلة أحيانا ، ولكنها الإنسانية العميقة والعلاقات البشرية .. كما ينبغى أن تكون . ولذلك يخرج الأصيل من مصر فيختنق .. فيموت .. المصرى الأصيل كالسمك إذا خرج من بحره ، تطلع روحه على الفور . والواد الألمانى يرفع يده بالتحية لأبيه .. باى، ثم يمضى على أمريكا . ويقيم هناك ويموت هناك دون أن يرسل خطابا إلى الناس الذين كانوا أهله فى يوم من الأيام !.

ليس فى هذا الكلام مبالغة أيها الناس ، فالعبد لله سافر كثيرا وأطول مدة قضيتها فى الخارج امتدت حوالى ١٠ أعوام ، وفى خلال هذه الفترة عانيت شعورا بالمرارة لاحد له . وشعرت باليتم وأحسست بالوحدة ، ولو امتدت بى الإقامة أكثر لأحسست بالاختناق .. وربما مت !.

ذات مرة أيها الناس أيام العدوان الثلاثى وكنت فى بيروت وإذاعات الأعداء تذيع كل ساعة وصحف الأعداء تنشر كل يوم أن مصر انتهت . مصر استسلمت . مصر ضاعت . وأن علينا نحن الذين فى الخارج أن نمضى العمر كله فى التجول .. وفى السياحة .. أو فى الصياعة بمعنى أدق . فنحن ممنوعون من دخول مصر . والمشانق فى انتظارنا على باب المطار ، ورغم إيمانى الشديد بأن هذا كلام كذب ، هذا الكلام فشر ، إلا أن إيمانى اهتز فى لحظات ضعف . وفى تلك اللحظات أحسست بضياع لا حد له . وأحسست أننى مشنوق من وسطى فلا أنا ميت ولا أنا حى .

ذكريات ما ألعنها وما أقساها . ولكن ما الذى جرجرنى إلى الحديث عن هذا الموضوع الذى أتحاشى ذكره على الدوام ؟.

آه .. إنها المقارنة بين أوروبا ومصر . فى أوروبا الطيارة تقوم من لندن فتصل باريس بعد نصف ساعة . والتروماى فى القاهرة يقطع المسافة من شبرا إلى السيدة

فى ساعتين . ولكن هذا ليس عيبا أيها الناس ، إنها روح بلدنا . الناس هنا تتشعبط على الترومای وتجرى خلفه و .. والنبی یاکمساری خد بإیدی لما أطلع ، وحاسب هنا عشان خاطر سیدی رزق . والناس ماشية فى الشارع على قضيب الترومای تتفسح. فالدنيا هنا حر ولا داعى للعجلة . ولا أحد هنا ينام من غير عشا . الله يرزق الجميع . وبعد عشرين سنة أيها الناس ستصبح بلادنا مثل ألمانيا . ستصبح بلادنا بلد ساعات. كل شيء فيها يدور كالساعة . الترومای لايقف ولا يتمهل. والناس لا تجرى خلفه ولا تتشعبط ، ولاتتوسل ولا ترجو ، وسيدفع كل منا حسابه ، ولا يدفع حساب الآخرين . ولكن صدقونى ستصبح الحياة كئيبة وستصبح باردة ، وسيكون محسوبكم فى الثمانين من عمره المديد إن شاء الله ! سأكون شيخا على المعاش ولى دستة من الأبناء ، بعضهم يركب المرسيدس وبعضهم يمتلك رصيدا فى بنك بورسعيد من عدة أصفار ! ولكنى أخشى أن أضطر عندئذ إلى الوقوف فى حديقة الأورمان أتسول فى عظمة وفى زهو شديد .. كعجوز ألمانيا ! .

البلبطة والتشليح

فكرت أن أكتب كتابا عن الصيف ، فأنا أعرف من مباهج الصيف أكثر مما يعرف أغاخان .. السبب أن أغاخان يعرف وجها واحدا من وجوه الصيف .. وأنا أعرف وجه الصيف وأعرف أيضا قفاه ! ذلك أن الحياة أتاحت للعبد لله فرصة لم تتحها لأحد من قبل ولا أعتقد أنها ستتاح لأحد من بعد ، فرصة اختبار الصيف والتصييف من أول التشليح والجرى وراء الرشاشة إلى الخلع زلط ملط والبلبطة فى مياه الأطلنطى !.

والله يرحم أيام زمان ، يوم كانت أداة التصييف الوحيدة هى الرشاشة ، وكانت تحضر إلى شارعنا مرة واحدة كل عصرية ، فإذا جاءت هجمنا عليها هجمة رجل واحد ودرنا معها حيث دارت ، فإذا انتهت مهمتها ذهبت وأصبحنا بفضل الله مبلولين مبسوطين إخوانا . وعندما أدركنا الثالثة عشرة وأصبح التشليح عيبا ، وأصبح رجل الرشاشة أكثر عصبية وأكثر بلطجة ، فلا يظهر إلا مرة واحدة كل أسبوع ، وإذا ظهر فليس معه ماء يكفى للرش والاستحمام . اتجهنا إلى نهر النيل ، نخلع ملابسنا . ونكومها ويجلس أحدنا عندها حارسا يترقب، فنستحم ثم ننام على الشاطىء نستجم ، ثم نعود آخر النهار حاجة ألسطة ولا جريتا جاربو عند عودتها من شاطىء الكوت دازور !.

ولكن الحظ النحس خطف أحدنا إلى الأعماق ولم يخرج إلا جثة، وزعق الولد المسكين يستنجد ولا مغيث . وكان عند الشاطىء مراكبى حشاش ، استغثنا به فلم يتحرك ، فلما صرخنا نطلب النجدة من غيره ، قذفنا بالطوب ثم جلس يتفرج شديد النشوة على الصبى الذى يجرفه الموج أمام عينيه ويموت . ومن يومها لم نقترب من النهر أبدا ، واخترنا بركة فى شارع الهرم فيها من الطين أكثر مما فيها من الماء ، ولكنها كانت أكثر أمانا وأكثر هدوءا، فلم يكن يتردد عليها لداعى الاستحمام إلا حضراتنا وعدد لا بأس به من الكلاب !.

ولكن حدث ذات مرة ما جعلنا نهرب منها فلا نعود . كان أحدنا يغطس فى الطين ، حيث عثر على جسم طرى ، فصاح كالمجنون .. سمكة . وانطلقنا كالقذائف نحو السمكة ، وتعاونا على جذبها إلى الشاطىء. وعندما أصبحت السمكة على البر اكتشفنا أنها جثة شديدة التعفن كالحة السواد . وخرجنا من البركة صارخين عريانين ، وقطعنا شارع الهرم فى هذا الموكب العجيب فميدان الجيزاة فشوارع الجيزة حتى منازلنا . وكانت هذه الجثة هى المفتاح الذى أدى إلى اكتشاف سر بحيرة الطين ، فعندما جاء البوليس وجاء بنا أيضا اكتشف أن الجثة لعسكرى أفريقى مات مطعونا بألف طعنة قبل أن يستقر فى الطين !.

ورجح البوليس أن يكون فى البحيرة جثة أخرى فأمر بتجفيف البحيرة. وبعد ساعة تمت عملية التجفيف ، واكتشف البوليس أن فى البحيرة ٧٢ جثة كلها لعساكر إنجليز وأفريكان ، وطريقة القتل واحدة مما يثبت أن الجانى واحد فى الحالات ! ولست أعرف ما الذى جرى بعد ذلك ، كل ما هناك أننا تقوقعنا فى الحارة نسهر ليالى الصيف على عتبة أحد المصانع . ولكن منظر الجثث المدهونة بالطين لم يفارق خيالى أبدا .

ومضت سنوات طويلة والعبد لله لايستطيع المرور فى شارع الهرم فى الليل خوفا من العسكرى الأفريقى القتيل الذى سحبته بأصابعى حتى الشاطىء !.

وتطورنا بعد ذلك فعدنا إلى النيل ، ولكن فى مراكب . مراكب شراعية جبارة تطوف بنا الجزيرة فى ليالى الصيف .. وأشهد بالله العظيم – وأنا الذى قضيت الصيف فى سان سباستيان وعلى شاطىء بحيرة ليمان وفى الريفييرا وعلى المحيط الأطلنطى – أننى لم أعثر حتى هذه اللحظة على منظر أحسن وأجمل وأجدع من منظر الجزيرة فى الليل ، وأنت على مركب ، وفى المركب أشياء لاداعى لذكرها الآن !.

الست روزانا

ولكن .. لماذا كل هذه المقدمة الطويلة البايخة عن تاريخ حضرتى فى الصيف ؟ لأثبت لكم أننى دكتور فى الصيف . ولا تبتسم لهذا اللقب الذى أطلقه على نفسى. فكم من دكتور عندنا فى الصيف وفى الشتاء وفى الحلويات وفى العادات فى مجتمع يأجوج وأشياء كثيرة من هذا النوع ، مضحكة ومبكية ، على رأى (أخونا) الشاعر العربى الذى مات منذ ألف عام أبو الطيب المتنبى !.

الغرض أيها الإخوان أننى ذهبت إلى الريفييرا وكنت أتخيلها لفرط جهلى حدائق غناء و «نسوان عرايا» سبحان الخلاق ورجالا وجهاء الله عليهم وقصص حب تدور بينهم على أنغام الموسيقى وتحت الأضواء، تماما كما رأيتها من قبل على شاشة السينما ، وهذا هو تأثير هوليوود على عقول الناس ! .

ولكن عندما هبطت الريفييرا فجعت .. النسوان فى حجم سيد قطة ، والرجال عبروا الخمسين بزمان . حكمة الله أن الأغنياء فقط فى الريفييرا ، وحكمة الله أن الأغنياء عواجيز ووحشين ويقرفوا الكلب الجربان ! . أين الشباب إذن ؟ أين البنات اللاتى كالورد ؟ والرجال الذين كالحراب ؟ حكمة الله أن اللاتى واللذين غارقون فى الشغل. فهذا زمن الشغل وكل همهم هو التحويش والتدبيق ليصبحوا أغنياء . وعندما يبلغون مراميهم فى الثراء يهرعون إلى الريفييرا، ولكن بعد فوات الأوان . يكون الشاب قد أصبح شيخا فى الستين . والمرأة أصبحت مثل السيد قشطة. حكمة الله كما قلت . ولن تجد لحكمة الله تبديلا ! .

ولكن كذاب أنا إذا قلت لكم إن الجميع كانوا عواجيز . كان هناك بعضهن ، مايوه الواحدة منهن فى حجم مشط الكبريت . وكل شىء ظاهر وواضح وعلى عينك يا تاجر ، وبحلقت عيونى كالمعتوه أتفرج . سبحان الله ، أجسام النساء فن ولا فن الموسيقى ، والست الحلوة تعرف أنهـا حـلوة ، تمشى تتلولو كاليويو ، ليس فى السيقان خدشة

ولا لطشة ولا هبشة ، على بعضها آثار قرصة زرقاء خفيفة كزرقة السماء . وعلى بعض الأجسام آثار عضة الأسنان ليست مغروزة ، والقطعة المعضوضة ليست منهوشة ، ولكنها مختومة فقط كأنها لحمة بتلو خارجة من عند دكتور سلخانة ، كل ما هناك : آثار أسنان بشكل دايرة. كأنك ضغطت على اللحم المشدود بغطاء كازوزة ، وأنا الأفريقى الغلبان أشعر بالنار تسرى فى جسمى ، فأنظر كالأبله نحو الست من دول وأمسح بكفى على شعرى .. حركة سلام للست إياها ، ولكن الست تمضى ولا اهتمام!.

التقل صنعة مع الستات فى الريفييرا والنحس دكر مع العبد لله ، حتى فى أوروبا ، وها أنذا أشير بالسلام والست لاتجيب ، منظرى لايعجبها بنت الهرمة ، مع أن أفلام هوليوود تقول إن السمار على شاطىء الريفييرا له سوق ولا سوق العبيد . وقلت لولد هولندى كان يتمرغ إلى جوارى على رمل الشاطىء : لماذا هن باردات ؟ هكذا هؤلاء النساء . وحكيت له قصة السلام ، والإعراض السافر . فضحك الواد حتى استلقى على قفاه ، وقال الولد الهولندى ابن أوروبا المدرب : هنا لايوجد سلام من هذا النوع ، إذا أبصرتك امرأة تفعل هذا الشيء ، فستظن أن بك صداعا حادا ، أو أن فى رأسك قملة، ولذلك فأنت دائم الهرشان ، إذا أردت أت تعاكس واحدة منهن فتكلم معها على الفور ، فالكلام هنا هو وسيلة التعارف واللقاء ، أما طريقتك أيها الأفريقى المسكين فهى تصلح وسيلة للحب فى مستعمرة للخرس والبكم وعباد الله المساكين !.

ولكن .. افرض تكلمت مع المرأة فهزأتنى فضربتنى فلكشتنى فركلتنى ، ماذا أقول ؟ ماذا أصنع ؟. ماذا يحدث أيها الهولندى الصغير ؟

لن يضربك أحد ، لن يلكشك أحد ، وواحدة من اثنين ، إما تقبل وإما تعتذر، وينتهى الأدب فى الحالتين . وتشجعت على الذى لا يخاف، ومرت من أمامى غزالة جلدها كالأستك ، وقلت فى وجهها : هالو . ونظرت نحوى وضحكت وقالت : هالو . ثم ذهبت وكان الله يحب المحسنين !.

وقال الولد الهولندى : لا تقف عند حد هالو ، قل للست الحلوة تعالى هنا ، اجلسى بجانبى ، وإذا جلست تحسس جلدها بيدك واسألها أن تسهر معك ، أن ترقص معك ، أن تأكل معك !.

وقلت : لا ، كل شيء إلا هذا ، أنا مازلت أذكر في شبابي امرأة حلوة في شوارع القاهرة كانت تمشي وحدها ، واقتربت منها وقلت لها : يامساء الجمال ، ونظرت نحوى ولم ترد. وقلت : يامساء الخير . ومددت يدى نحوها أصافحهامصافحة الجنتلمان . وإذا بالمرأة المجنونة تهبدنى بالشنطة على وجهى. وكانت هبدة قوية ، اغتظت منها فهبدتها بكفى على وجهها . فصرخت واستغاثت وقالت : حرامي يادهوتي . فجريت وجرى الناس خلفى ، ولو أمسكوا بالعبد لله لكانت مصيبة . ولكن الولد الهولندى شجعني وقال : لاتخف سأكون إلى جوارك ولن يحدث لك شيء من هذا . وجاءت بنت حلوة كالقمر الدين وقلت : هالو. قالت هالو . قلت : اتفضلى ياختى . واتفضلت أختى وجلست ، قلت : أنت حلوة ، قالت متشكرة ، قلت: هل تجلسين معى ؟ قالت : نعم. قلت : هل ترقصين معى ؟. قالت هنا ؟ قلت : لأ فى الليل . قالت : آسفة ، فأنا هنا مع خطيبي نلهو على الشاطىء فى النهار . ونرقص فى علب الليل بالليل . قلت : وخطيبك هنا الآن ؟ قالت : نعم ،وتزحزحت من مكانى قليلا وقلت لها : أهلا وسهلا قالت : أهلا وسهلا . قلت : سلامات . قالت : سلامات، وقلت : ياميت مراحب ، قالت : يا ألف مرحب !.

وشخط ثور من خلفى : روزانا . وقالت البنت التى تجلس معى : نعم. أين أنت ياروزانا ؟ أنا هنا . وجاء الثور يتبختر ، وسلم علينا وجلس وقالت : خطيبي . وقلت : يا ألطاف الله نجنا مما نخاف . وبعد السلامات والتحيات قال حضرة خطيبها : أنا ذاهب ياروزانا ، وقالت روزانا : مع السلامة، سأجلس مع هذا السيد ساعة ثم أحضر . وجلست مع حضرتى ساعة بالكمال والتمام ولم يخرج حديثى عن دائرة : أهلا وسهلا .. إزيك .. سلامات .. ياميت مرحب .. يا ألف تلتميت مرحب !.

وعندما ذهبت حمدت الله الذى جعل العواقب سليمة . لو كنا فى شبرا مثلا وجلست معنا الست روزانا وجاء خطيبها ووجدها معى ، لفتح بطنى ، وربما نمت بقية حياتى على السرير فى مستشفى قصر العينى، ونام حضرته على بلاط زنزانة فى ليمان أبو زعبل !.

وثلاثة أيام بعد ذلك قضيتها فى الريفييرا لم أجرؤ على الحديث مع واحدة من الستات ، لأن الولد الهولندى اللعين تركنى وحدى وطار . ولكن آخر يوم حدث



المستحيل. كنت ممدا على الشاطيء بمايوه أزرق سماوى، ليس تحته إلا عصاعيص ولا عصاعيص أم سحلول . وفجأة اكتشفت أن أصابع طويلة تلعب فى شعرى وتعبث فى جلدة شعرى. وظننت أن أحدا من الناس الطيبين قد توسم فى شعرى قملا فراح يفلينى ، وانبسطت لهذا الخاطر ، ومددت يدى أبحث بجوارى عن بلاطة تصلح لاغتيال القمل عليها . ولكن صاحب الأصابع صرخ عندما أمسكت بالبلاطة فى يدى . فنهضت مذعورا واكتشفت أن الذى يعبث بشعرى إمرأة وليس رجلا. وأنها لم تكن تجمع القمل من رأسى ، ولكنها كانت متيمة بالعبد لله ، تتحسس شعرى الأكرت، لأنه مدهش ومثير وجميل على حد تعبير السيدة الفرنسية . وقالت الست لحضرتنا وهى تتأوه : لماذا أمسكت بالبلاطة ؟ هل كنت تنوى قتلى ؟ وأقسمت لها بالله العظيم أننى لم أكن أضمر لها شرا ، وأن البلاطة كانت لقتل القمل وليس لإحداث أى نوع من أنواع الأذى لحضرتها ، واطمأنت المرأة وفتحت نفسها وقلبها وقالت : أيها الأسمر الجميل هل ترقص معى ؟ قلت : نعم . قالت : هل تتعشى معى ؟ قلت : الله يخليكى أيتها الست الطيبة ، مادام عندك عشاء فلا داعى للرقص، خصوصا وأن الرقص متعب ولايفيد ولا يملأ المعدة . وقالت المرأة : عال . اتفقنا ، ستسهر عندى الليلة ونتعشى معا ، ونقيم حتى الصباح نرنو إلى الأمواج والسحاب من خلال نافذتى !.

وذهبت مع السيدة فى الليل إلى فيللا أنيقة على الريفييرا . وكانت ترتدى «مايوه» داخل شقتها . «مايوه» من نصف قطعة ، وكانت تغنى أغنية لطيفة .. قالولى لاتتذكريه.. ولكن مستحيل .. فهـذا ليس جرحهم .. إنه جرحى .. ورحبت بنا المرأة المجروحة. وقدمت لنا العشاء . فراخ بالصلصة البيضة . وعيش أسود. والعيش الأسود هناك أغلى من العيش الأبيض . وسلاطة نيس . سلطة فيها بيض وفيها جرجير وفيها طماطم وفيهـا زبدة وفيهـا ويسكى . وجاء رجل عجوز يحجل قدمته لى .. السنيور مش عارف إيه .. جوزها . وأهلا جوزها ، سلامات ياجوزها ، والله وحشتنا ياجوزها . والرجل يرد على تحياتى فى أدب بالغ . أهلا صديقها إزيك . صديقها .. سلامات صديقها .. مراحب صديقها . وكانت المرأة التى هو جوزها والذى أنا صديقها تهم على أثناء الأكل وتقبلنى وتزغزغنى . والسيد جوزها مبسوط من السيد صديقها . فما دامت الست

مبسوطة فهو مبسوط . وكانت كلما ضحكت وكلما تشقلبت ضحك السيد جوزها وقال لها وهو شديد الانبساط : كل يوم من ده يا حبيبتى . ومن ده يقصد منى أنا .

ولما كنت قليل الحيلة قليل المروة ، قليل الجهد. فقد غاص قلبى بين ركبتى وسألت الله أن يستر على هذه الليلة حتى الصباح فأجرى جرى غرائب الإبل !.

وجاء منتصف الليل أيها الناس واستأذن السيد جوزها .. إنه لطيف كما ترى .. كان ضابطا فى جيش فرنسا ، كان قائدا فى فيتنام ، وعندما نشبت الحرب هناك كان أعظم القادة وأعجب القواد . ولكن جيش الفيتنام حاصره فى مزارع الأرز وضربه على قفاه وكسره كما يكسر الرجل الفتى عود قصب على قصبة الساق . وخسر القائد رجله وخسر نصفه الأسفل كله. وعاد إلى الوطن وليس فيه من الرجال إلا الشارب الذى أصر على الاحتفاظ به بعد هذا الحادث الملعون ! .

الغرض أيها الناس ، شربنا ليلتها حتى ارتوينا ، وأكرمنا الله فأكرمناها ، واستيقظت فى الصباح على شفتين تقبلان قدمى ، وكانت هى المرأة المجروحة تقبل قدمى بالفعل وفى يدها صينية عليها كل خيرات الله ، لحم بالبيض . لبن ساخن ، شاى بالحليب ، كل أنواع الجبن والزيتون والعيش الفينو الطازج ، وعلبة سجاير عشرين كرافن ، وأكلت وولعت ودخنت وانبسطت . وبعد ذلك جاءت وأمسكت يدى وقبلتها وقالت : أنا أدعوك أيها الرجل لقضاء أسبوع هنا . قلت : مستحيل أيتها الست الكريمة فأنا الشر بره وبعيد مسافر فى مهمة ، ولابد أن أكون فى ألمانيا غدا صباحا إن شاء المولى . وقالت : أى شىء من ألمانيا تريده سأحضره لك هنا ، إذا كنت تريد أن أحضر لك مدينة من ألمانيا فثق أنها ستكون عندك بعد ساعات ، إننى أملك كل شىء .. النقود والنفوذ ، وعليك أن تطلب وعلى أن أجيب .

واستنجدت المرأة بالسيد جوزها فجاء هو الآخر وربت على كتفى فى حنان وقال : ياسنيور سعدنى أنت مشكور على الجهد الذى بذلته فى الليلة الماضية أنا أرجوك، أتوسل إليك ، أستحلفك بالمولى العزيز الجبار أن تبقى مدة أسبوع ، فالست مبسوطة، وكلما كانت مبسوطة كانت أعصابها حسنة ، وكلما كانت أعصابها حسنة ، فأنا هادىء ومبسوط !.

وحكيت للرجل حكايتى مرة أخرى ، وزعمت أننى لابد أن أكون فى ألمانيا غدا صباحا . فأنا رجل مهم ، ومهمتى أن أكون فى ألمانيا . وأشهد الله أن الرجل الفرنساوى لو كان سألنى أية مهمة لك فى ألمانيا ، لتلعثمت وتوأوأت ولضربت معى لخمة ولا لخمة خالتى عندما تسير وحدها فى شارع فؤاد .

المهم أنهم عتقونى لوجه الله وتركونى أذهب بشرط أن أعود إليهم بعد ذلك . وذهبت إلى ألمانيا ولا مهمة لى هناك، أنا هربت فقط من السيدة المجروحة وجوزها المبسوط حتى لا أنكشف . فقد ستر الله معى وليس معقولا أن يستر معى على طول . وفى الأمثال أن البطل هو الذى يعرف متى يختفى من فوق المسرح ، وأنا بطل ولاشك ، فلو أنى قضيت الليلة الثانية عندها لأصبحت «كومبارس» بعون الله ، ولظلت تضرب حضرتنا بالمقشة . ومن يدرى ؟ فلربما توفانا الله . الحمد لله إذن أننا هربنا ، والحمد لله أننا ذهبنا إلى ألمانيا . ففى آخر يوم فى ألمانيا قال لى «سلامة» مندوب أخبار اليوم : ما رأيك فى فسحة فى مكان بعيد عن العاصمة ، مكان اسمه أولتن آر.. وآر هو اسم نهر ، وأولتن يعنى قديم . والمكان اسمه بالعربى آر القديم . وقلت له : هيا بنا . وركبنا عربة فولكس فاجن جديدة لنبدأ رحلتنا فى الليل إلى حدود ألمانيا .. إلى الأولتن آر .

قرية صغيرة وجميلة ولذيذة وعلى سفح جبل عظيم ، والقرية كلها تزرع عنبا ، ومن العنب تصنع نبيذا ، لا أقول فاخرا، فليس فى ألمانيا كلها نبيذ فاخر على الإطلاق . وهى فرصة لنا لو استخدمناها لربحنا كثيرا أيها الناس . فعندنا نبيذ أحسن من نبيذ ألمانيا . ونستطيع أن نصدر لألمانيا نبيذا وبالعملة الصعبة ، المهم أن قرية أولتن آر الألمانية تصنع النبيذ الطازج ، ويدخل الزباين الكرام أمثالى فى كهوف فى بطن الجبل يشربون حتى يسقطون من شدة الإعياء ويدفعون عدة ماركات ألمانى لا أذكر الآن عددها ! ودخلنا أول كهف صادفنا على الطريق . ومن أول نظرة داخل الكهف ، اكتشفت أن كل من بالكهف ستات . أعوذ بالله على هذا الصنف من الستات . واكتشفت شيئا آخر . كلهن من هولندا ، والقرية على حدود هولندا وبينها وبين الحدود عشرة كيلومترات، وتصدرنا مائدة وجلسنا . ونظرت نحوى واحدة منهن ، وفشخت فمها عن ابتسامة ، وأحسست أنى أكاد أطير من على الكرسى زهوا وفخرا وسرورا ..

إلى آخر هذا الطراز من الكلام . فها أنذا معبود النساء فى كل مكان أهبط فيه ، وهذه المرأة التى فشخت فمها لى وضحكت لابأس بها . فهى فى الخمسين فقط ، وهى أصغر الحاضرات ، وهى أنحفهن أيضا فلايزيد وزنها على ثلاثة أطنان . ولم تقف المسألة عند حد الابتسام . فقد نهضت المرأة من مكانها ودعتنى إلى الرقص على أنغام موسيقى صامتة عربيدة لاتصلح للرقص ولكنها تصلح للهراش والفراش !. وكانت المرأة عفية وسليمة وجسمها ناصح كما تقول أمى عن هذا الصنف السليم من النساء . وعكمتنى عكمة الكلب وهات يارقص من جميع الأصناف . فالسات ترقص، سامبات ترقص ، رومبات ترقص ، كاريوكات ترقص ، فى الاستراحة ترقص ، وأنا كنت أرقص معها فى بداية الأمر ، ولكن عندما طال الأمر وانقطع قلبى وتناوبتنى الكحة، اكتفيت بالشعبطة فيها كما يتشعبط الولد العيان بأمه . وعندما خارت قواى تماما وأصبحت غير صالح للشعبطة تعلقت بها كالعلقة فحملتنى وهات يارقص . وظلت ترقص وأنا على كتفها دايخ حتى انتصف الليل ، فرزعتنى على الأرض رزعة مهببة قصمت ظهرى وحطمت ضلوعى ولم تتركنى وشأنى بل سحبتنى من يدى وقالت : هيا نسهر معا فى اللوكاندة . ونظرت للمرأة أبكى وأتوسل أن تتركنى وشأنى ، فأنا غلبان ومسكين وصاحب عيال . وقالت المرأة بصوت كأنه الرعد : لماذا إذن رقصت معى ؟ لماذا فتحت شهيتى على الرجال ؟ وقلت لها : ليس هذا ذنبى أيتها الست العفية . فأنا أولا لم أبتسم لك ، أنا لم أدعك إلى الرقص ، أنا لم أعدك بشىء على الإطلاق !.

وقالت وهى تكشر عن أنيابها : يابن سبعين كلب إما أن تحضر معى إلى اللوكاندة ، وإما أنام فوقك هنا حتى تزهق أنفاسك وتموت من شدة الكتمان ! وسحبتنى بالعافية إلى اللوكاندة ، ولم أخرج منها إلا محمولا على الأعناق . فقد ضربتنى حتى سوتنى وحتى جعلتنى فطيرة تحت الأقدام . وعلمت أنها من هولندا ، وأنها تحضر مرة كل أسبوع إلى أولتن آر لترقص وتغنى وتسحب معها رجلا آخر الليل ، ولكن حظها المهبب أوقعها فى العبد لله . وركبت الطائرة هاربا من أولتن آر، هاربا من ألمانيا كلها إلى بلاد تركب الأفيال ! .

حول العالم فى ٨٠ قرشا ..

العبد لله من بلاد لاتحسب المسافات بالزمن ، ولكن تحسبها بالفلوس . فمن بلدنا إلى البندر ستين فضة ، ومن البندر لبنها ستين تعريفة ، ومن بنها للعاصمة ريال . المسافات لا وزن لها . والزمن ليست له قيمة ، ولكن السيمة والقيمة للجنيه والشلن والقرش !.

وبحساب بلدنا المسافة من مصر إلى اليابان ٥ آلاف جنيه .

ومقابل ذلك أنت تجلس فى طيارة فخمة وضخمة وعال العال . وفيها عيال طيارين كالشياطين . رمضان وسالم عبد المجيد ومحمد كامل ومصطفى النحاس وطلعت وطلبة وآخرون وفيها بنات مضيفات متفتحات كالورد . مثلولوات كاليويو، حاضرات دايما كجن سيدنا سليمان .. ماجدة ونجوى وتريز ورجاء .. والأكل فى الطيارة أحلى من الأكل عند الشيوى ، والمشروب منقوع الويسكى . ولكن جارى فى الطيارة عمنا أمين حماد - بتاع التليفزيون - لايقرب الويسكى لأنه رجس من عمل الشيطان وأنا أشرب هذا المدعوق ... الويسكى ليس لداعى السكر ولكن لسبب آخر لايخطر لكم على بال .. فأنا بينى وبين اسكتلندا عمار ، لأن الاسكتلندى أبو برنيطة لها كعلوشة ، أبوجلابية صوف مخططة ، مزهر بنفسه آخر مزهو ، معتد ببلده آخر اعتداد وهو بيضرب لك ميت سلام إذا مديت له كفك وقلت له ازيك يا اسكتلندى! وهو يفتح مطوة ويفتح كرشك إذا وصفته بالإنجليزى ، لأن انجلترا عند بتوع اسكتلندا حقيرة والانجليزى عار! لذلك أنا أحب اسكتلندا ، وأحسن شىء فى اسكتلندا الويسكى ، ولذلك أنا أحب الويسكى من هذا الباب لاغير ..

ولكن حكمة الله أننى أحب الويسكى ولكن الويسكى لا يحبنى . فأنا مصارينى ملتهبة، ومعدتى وارمة ، وفشتى عايمة .. ولا حول ولا قوة إلا بالله ..



ولقد قامت بنا الطيارة والفجر يتطلع على الأبواب . وعندما وصلنا مطار الكويت كان أذان الصبح يملأ الآفاق . ومن الكويت إلى بومباى نام العبد لله نوما عميقا حتى ظنت المضيفة أننى اختصرت الرحلة وانتقلت إلى رحمة الله ! وتحفزت لزيارة بومباى فأنا من زمان عاشق للهند محب للهنود وأعتقد أنها أرض السلام والمحبة وخيل إلى أننى سأرى فى المطار عشرات من تلاميذ غاندى كلهم عرايا زلط ملط إلا من خرقة تستر العورة وتقتل الغرور والزهو فى نفس الانسان . وتصورت أننى سأرى مع كل منهم معزة وحزمة برسيم ، وأننى سأجد الناس بين راكع يعبد بوذا ، ونائم على ظهره يتأمل الشمس . وتصورت أيضا أننى سأرى رجالا ذوى لحى . عيونهم دامية من أثر السهر الطويل ، طوال كما نخل الحوامدية ، كما فرع الغاب . وتصورت أننى سأسمع من خلف أسوار المطار تراتيل تتصاعد للسماء . وسألمح على البعد «نسوان» كما شجرة جوز الهند والسارى يغطى نصفهن الأسفل ، ويغطى نصفهن الأعلى ، وبين الأعلى والأسفل منطقة - مثل روما - مفتوحة ، ومثل - زنزانة السجن - عريانة . وعيون سوداء - ياقوة الطشطوشى - على نظراتها ، كالسيوف قول ، كالرصاص قول، ورموش كأنها ستائر مسرح فخيم تسدل وترفع حسب التساهيل والأحوال . وعندما انفتح باب الطائرة هممت أن أخلع حذائى .. فى أرض غاندى ونهرو ينبغى على الانسان أن يمشى حافى القدمين حاسر الرأس ، ولكن باب الطيارة انفتح فجأة وانفتحت معه طاقة من جهنم ، حر أعوذ بالله ، ورطوبة غسلت جسمى وغسلت ملابسى وكتمت نفسى الله لا يجعلكم تجربوها ياحضرات السامعين ! وسقطت مغمى على ، وحملنى ولد هندى جدع إلى المطار ، وفى المطار تكييف جعلنى أسترد الوعى وأفيق من الإغماء ، ودخلت محلا فى المطار يبيع كل شيء مصنوع من خشب الصندل ومن خشب الورد ، وأعجبنى فيل ودخلنا فى حسبة برما مع البياع . بياع شاطر يبدو أنه لم يسمع باسم غاندى من قبل ولم يسمع بنهرو قط ، وأقسمت له بالشجرة وبالبقرة أن العبد لله ليست معه نقود .. وتركت الهند والناس حرانة وعرقانة وحالها حال .. وقلت وداعا أيتها الهند. فى الشتاء نحضر إليك ، وفى الصيف نبتعد عن شواطئك ونبتعد عن سمائك ، فقد تقدمت بنا السن إلى الدرجة التى يؤثر فينا الحر ، ويؤثر فينا البرد ! وطارت الطائرة إلى بانجوك .. وإلى هونج كونج ، وإلى طوكيو .

برنس أوف توكيو

وطوكيو أيها القراء هى سيدة بلاد الشرق . وكان علمها يرفرف فى سماء المنطقة كلها ، وكانت حدود اليابان حيث يضع الجندى اليابانى قدمه . وجاء وقت ليس ببعيد كان الجندى اليابانى يضع قدمه ويضع أنفه أيضا فى كل شىء وفى أى شىء . وجاء وقت أيضا كانت اليابان المفعوصة تحكم وتتحكم فى امبراطورية الصين الواسعة، ولو تغيرت نتيجة الحرب العالمية الأخيرة ، فلربما أصبحت اليابان سيدة كل العالم ، وربما كان علمها الآن يرفرف على مركز الكون ، ولكن القنبلة الذرية حسمت الموقف ، ووضعت حدا للتوسع اليابانى ، وجعلت من هيروشيما ونجازاكى ملحمة مثل ملحمة مسعود ووجيدة !.

ونزلنا طوكيو فى الصباح ، والسحاب يلفها كأنها قطعة ماس ملفوفة فى حرير . الجو مثل لندن ، آخر طراوة وآخر رطوبة ، والمطر نازل على ودنه . الشوارع نظيفة كأن فى كل شارع مجلس مدينة . والبلدية لها تليفونات فى الشوارع . ولو معك رغيف ممكن تغمس من التليفون وتاكل . وعمود النور يشرح القلب ، يصلح لانتظار العاشق وترنح السكران وتأمل الكاتب السارح فى الليل . والمحلات ضخمة وفخمة ومليانة حاجات من ليبيا ! والترمايات يتمنى الانسان أن يموت تحت عجلاتها . والأتوبيسات فاضية تشكو أزمة ركاب حادة ! والشوارع أنواع وأصناف .. شوارع على الأرض وشوارع تحت الأرض وشوارع فوق الأرض .. والأرض نفسها حلوة ، لولا المطر الغزير لفعلت مثل عمر بن الخطاب وفرشت حصيرة يابانى ونمت نوم قرير العين هانيها على رأى عمنا حافظ إبراهيم عليه رحمة الله . واللوكاندة برنس أوف توكيو ولا شبرد الله يرحم زمانه. والواد اليابانى مؤدب ، ولكن طالما أنت مؤدب ، فإذا لعبت بديلك فنهار أبوك أزرق وليلتك أسود من شعر بنات اليابان ، وكل يابانى هيروهيتو فى نفسه . الواد الترجمان

تبعنا - بيتر - يرفع أعلامه ويتمشى أمامنا . فى داخله زهو المرشال زوكوف ليلة إعلان الهدنة ، وتواضع عمر بن عبد العزيز وأدبه ! وهو من جيل مابعد الحرب والضرب والقنابل الذرية . وسحبنا بيتر فى الليل إلى جولة حول طوكيو . وطوكيو مثل أى عاصمة كبرى لها وجه فى النهار ووجه فى آخر الليل . الناس كالنحل فى النهار تسعى على رزقها . والناس كالنمل فى الليل تسعى على مزاجها ! والمزاج غالى الثمن لأن كل شىء فى اليابان غال .. وأى محل تقعد فيه المشروب بخمسة جنيه وواحدة ست حلوة لزوم القعدة بثلاثين جنيه حتة واحدة ، ولكن العين بصيرة ويد العبد لله قصيرة . والليل فى حى الجنزا ولا الليل فى حى سوهو فى لندن .. أى شىء تتمناه اطلبه ، وأى شىء تطلبه تجده ، وأى شىء تجده تدفع فيه دم قلبك ! وعيال الليل فى اليابان تخنفسوا . الشعور كما أمنا الغولة ، والبنطلونات محزقة وملزقة . والجزمة كعب عالى ، والجاكيت قطيفة ولها زراير نحاس .. شغل أخونا الشقى صلاح السعدنى .. والبنت اليابانية نوعان ، حلوة قوى أو وحشه قوى .. تفرست فى شكل بنت يابانية ثم قهقهت ضاحكا ، شكلها الخالق الناطق مثل شكل الفقمة . السمكة السمينة التى يعلقها الفسخانى فى دوبارة ويرفعها على باب الدكان . والحلوات فى اليابان ولا أميرات مصر أيام زمان .. البشرة ناعمة ، والشعر سايح .. والخدود نايحة كما البلح الحيانى والعيون سبحان الله الذى خلقها والذى فلقها .. وليس فى طوكيو كلها واحدة ماشية وصدرها يفسح لها الطريق .. الصدور كلها ضئيلة وكلها ضامرة .. والناس كلها تجرى ولا تمشى ، والنسوان لسن خدامات للرجال إلا فى أماكن السياحة وفى أماكن الحظ الأبدى . ولكن فى الحياة ، المرأة هى الست وهى كل شىء فى اليابان .. والبنت عاملة فى المصنع ، وخدامة فى اللوكاندة ، وموظفة فى البنك ، وبياعة فى الدكان .. وترجمان مع السواح .. مفيش واحدة عاطلة ولا واحدة قاعدة .. ولاست متفرغة لتخريط الملوخية وتنظيف الفراخ.. ولا واحدة ماسكة عصايا لترويض سبع قرود نازلين تنطيط على ودنه ! ويبدو أن النور فى اليابان ببلاش .. فالشوارع مضاءة كأننا فى جنة ، ولمبة النور كأنها تحفة، والنور أزرق وأحمر وأصفر كأننا فى مهرجان .. وإعلانات المحلات تنافس أنوار الحكومة إعلانات سبحان الذى تفنن والذى أعلن .. أنوار من فوق وأنوار من تحت

وأنوار من بين شجر الشوارع . وكل سلعة هامة ولها إعلان فى الشوارع وكل مصنع كبير له لوحة على عمارة .. واليابان تنتج كل شىء من أول اللؤلؤ إلى أكل الكلاب والقطط!. والإعلانات شكلها حلو ويفتح النفس ويغرى بالشراء .. وتذكرت إعلانا هرشوا به مخى . خلال عام كامل عن مستحضرات تجميل أظن من إنتاج مصانع أبو زعبل .. والشركة المنتجة مصرة على حكاية أبو زعبل .. شىء يسد النفس ويورث الشؤم ويجعل الانسان يسب ميت سلعة وميت زعبل . وأعجب شىء أن اليابان ليس فيها أى شىء ومع ذلك تصنع كل شىء .. فليس فى اليابان فحم ولا جاز ولا حديد ولا حاجة على الإطلاق .. ومع ذلك تصنع اليابان ساعات ضربت بها سويسرا وصنعت عربيات ضربت بها أمريكا وألمانيا ، وصنعت ملابس ولا انجلترا .. وصنعت لعب وليس لها فى هذا الميدان منافس .. ولو كانت اليابان فى كامل حريتها لوصلت القمر وربما وصلت زحل والزهرة .. فاليابانى يصنع أى شىء يراه . ولكن صنعة اليابانى أحسن .. والقطر اليابانى أحسن من القطر المجرى وأفضل من القطر الإنجليزى وأكثر نوقا ورقة من القطر الأمريكى ، والفيلم اليابانى أفضل من الفيلم الأمريكى ، والايطالى والفرنساوى .. ولكن عقبة اللغة تقف ضد انتشاره . واليابانى معجب بلغته ولعل ذلك هو نقطة الضعف فيه وهو يتوهم أن كل مخلوق على ظهر الأرض يعرف اللغة اليابانى ، ولذلك فهو يكتب كل شىء باليابانى ، يفط المحلات وأرقام الترمايات وفاتورة اللوكاندة وحساب الحمام التركى . وعظمة اليابانى أنه يصنع كل شىء للتصدير ويكتفى هو بالحياة فى حدود تسمح له بإنتاج أكثر وتصدير أكثر وعملة صعبة أكثر . ذهبت إلى بيت صحفى يابانى صديق كنت أعرفه فى القاهرة ، وصدمنى بيت الصحفى اليابانى . صحيح فيه نوق . ولكن النوق هو كل مافيه ، واكتشفت أن الصحفى اليابانى يعمل أكثر من أى صحفى فى العالم ويتقاضى أقل من أى صحفى حتى فى تايلاند .. واكتشفت أيضا أن كل يابانى يعمل أكثر ويتقاضى أقل .. والعامل اليابانى أكثر إنتاجا من العامل الألمانى ولكنه يتقاضى أقل ، وأدركت عندئذ أن الشعوب مثل الفواكه . شعب موز وشعب تفاح وشعب جميز وشعب فقوس وشعب شوك لاينفع ولكن يضر! وعلى هذا القياس يكون شعب اليابان شعب تفاح جولدن، شعب بطيخ شليان ، شعب برقوق

مستكاوى ليس لحلاوته نظير! إنه شعب دوداوى مثل دودة القز ، يأكل ورق التوت وينتج حرير كانيبو ٥٥٠٠. وهو شعب نحلاوى مثل النحل ، يقطف رزقه من الزهور وينتج عسلا فيه شفاء للناس . وبعض الشعوب تأكل العسل وتنتج قوالح . وتأكل الحرير وتنتج الأسفلت . حكمة الله . أن الناس جميعا أبناء آدم وحواء ومع ذلك فبعض أبناء آدم استحلوا القعدة والمغنى والسبهللة .. وبعض أبناء آدم يصنعون من الفسيخ شربات، ومن الدقشوم مربة وتورتة وعسل النحل! ولولا الفلس، لقطعت اليابان طولا وعرضا ولتمشيت أفرنجى فى شنباشى ، وفى الجنزا ، وركعت بالأسابيع فى معبد بوذا أتكلم وأبغبغ .. ولنمت فى الحمام التركى أتحمم وأتدلك .. ولكن منه لله الذى لا يسمح للعبد لله بالعودة مرة أخرى إلى اليابان قبل أن تصعد الروح إلى خالقها ..



يابانى فى غير ملكك

حكمة الله أن النية كانت تقصد الكتابة عن اليابان ، ولكن القلم يتجه رغم النية إلى الكتابة عن القمر .، وأعتقد أن القلم عنده حق فليس فى العالم شىء مثل نزول إنسان على القمر يثير خيال الناس . وليس فى العالم شىء أروع من أن يسافر مخلوق حى من كوكب الأرض ، قاطعا ألوف الأميال . فى فضاء ليس له نهاية وفى فراغ ليس له وزن ، وفى طريق ليست به معالم ، وفى خراب يخيف الجن والوحش ليهبط فى النهاية على رصيف محطة القمر وليجد أن كل شىء هناك – كما فى البدء – ظلام فى ظلام ، وخراب فى خراب ، فلا واحد بتاع ترمس على باب المحطة ، ولا شيال فى انتظار الزبون ، ولا بوفيه لزوم الشاى والقهوة ، وأنا أكتب هذه الكلمات فى صباح يوم الأحد الماضى ، ورواد الفضاء يتسكعون فى السفينة أبوللو حول القمر ، ويستعدون للنزول على أرضه ! ولا أدرى ما الذى سوف يحدث ، هل سينجح الإنسان فى تحقيق حلمه أم سيفشل ؟ ولو فشل – لاقدر الله – فليس معنى هذا أن حلم البشرية قد تحطم ، فالأكيد أن الانسان سيحاول من جديد ، وسيهبط يوما ليس على القمر ، ولكن على القمر وعلى المريخ وعلى الزهرة ، إنها سلسلة طويلة من التجارب بدأت بعباس بن فرناس ، ولن تنتهى أبدا ، ويوما ما فى قرن ما سيترك الانسان الأرض ليس إلى القمر ولكن إلى أرض أخرى فى مجموعة شمسية أخرى ! ويومئذ سيكون سلعبد الله مشنجر آخر شنجرة فى ترب الغفير ، وسيكون عبد الرحمن الخميسى مجرد عظام مبعثرة فى تربة من ترب الإمام ، وسيكون الهيكل العظمى لحسن فؤاد فى مستشفى قصر العينى موضع دراسة شاقة لطلبة الطب عن إنسان ماقبل القمر ! ولعل فرحتى الكبرى أن أحدا من الناس الذين أعرفهم الآن لن يكون على قيد الحياة فى القرن القادم .

ولعل لذة الحياة تكمن هنا . فلو كان الموت فيه استثناء ، ولو أن الموت اختارنى أنا وترك الخميسى ، لحزنت حزن غرائب الإبل. فليس من المعقول أن أموت أنا ، والخميسى

يسرح على باب الله ! المهم أننى لا أستطيع أن أتكهن بالذى سوف يحدث لحظة نزول الانسان على القمر . ربما امتدت يد هائلة من بين الصخور فخطفتهم جميعا ، ربما زحفت فجأة عقربة فى حجم الطوربين ولدعت رائد الفضاء وقفزت فى المركبة وطارت بها إلى الأرض ، ونزلت لدع فى سكان فلوريدا وسكان نيويورك حتى شطبت على بتوع أمريكا ثم زحفت من هناك على أوروبا . وتصبح كارثة كبرى من هنا لشبرا ، لو اكتشف البشر أن العقربة الملعونة لا تؤثر فيها المدافع ولا القنابل الذرية ، وأنه لا مناص من هلاك البشر على ذنب العقرب القمرى ! وقد يحدث هذا وقد لا يحدث. فإذا لم يحدث فهى قصة هايفة تستحق أن يخرجها فتحى عبد الستار أو رفعت قلدس ! ولكن أروع من هذا كله أن يتمكن الانسان فعلا من الهبوط على القمر ، وأن يتمشى فى التراوة القمرية ، وأن يكتشف أيضا أن كل حسابات العلماء كانت خاطئة وأن على القمر نباتا وحيوانا وحياة . لحظة غريبة فعلا أن ينزل إنسان على القمر ، وأغرب منها أن يكتشف أنه وحيد فى هذا الفراغ الكئيب الموحش . إنه رجل شجاع حقا هذا الذى تطوع للقيام بهذه الرحلة ، رغم أننى أعرف ناسا فى زماننا هذا إذا سافر واحد إلى دشنا خرجت الأسرة كلها خلفه تودعه ، فإذا تحرك القطار تصاعد الصويت والصريخ واللطيم فى الجو ، وتقوم مناحة لاتقعد إلا إذا عاد المحروس من دشنا ! أنا نفسى أشفق على نفسى من لحظة الوداع . لذلك أسافر إلى أقاصى الأرض دون وداع ! وأكره المودعين لأن منظرهم يشبه المشيعين ، ولكن أحب المستقبلين لأنهم رمز الفرحة باللقاء والسعادة لسلامة الوصول . ولكنى خالفت القاعدة فى رحلة اليابان ، ولذلك تشاءمت . فقد أصر محمد نافع ومحمد صلاح وسرور أبو هاشم على توديعى . وجاء معى الولد الشقى أخونا صلاح السعدنى والأخ عزت مروان وتوفيق أبو تركى فلاح البدرشين الذى آثر الفرار إلى المدينة ، وعم أحمد المنجد الاسماعيلاوى الذى هاجر إلى المنصورة تاركا ثلاثة من أبنائه يدكون مواقع اليهود عند خط النار ! وجاء معهم محمود عفيفى وعبد الغفار صيام وأمين الغفارى وطوغان وحسن فؤاد . شلة محترمة ولو نعش وكام تربى لأصبحنا جنازة حارة تستحق شادر وصييت وميكروفون لازعاج الجيران ونعى فى الأهرام أن الميت قريب وحبيب ونسيب فلان وفلان . لذلك نمت فى مقعدى

بالطائرة وأنا متوجس شرا ونزلت اليابان وأنا متشائم ، وقضيت فيها ثلاثة أيام لم أشعر فيها بالسعادة ولم أشعر فيها بالأسف . ولكن رابع يوم رزقنا المولى الكريم ببنت يابانية شكلها على رأى ابراهيم الموجى كما البريصة الاصفهانى ! شعرها أطول من جسمها، نحيفة مثل حضرتنا. مهذبة مثل حضرتكم . بقها دايما مفشوخ عن ابتسامة عريضة وكأنها جرسون نشيط فى قهوة بوديجا ! وتفاهمنا بسرعة ، وتكلمنا مرة باليابانى ومرة بالانجليزى ومرة باليابالیزی .. خليط من اليابانى والانجليزى وهى لغة جديدة أعتقد أن الدكتور لويس عوض يستطيع أن يحدثنا عن أسرارها وآدابها ويستطيع أن يكتب بحثا فى الأدب المقارن عن الأساطير اليابالیزی وأثرها فى شعر الشاعر أبو كحكوح الأموى !! ولكن عمنا محمود شكوكو يستطيع لأنه أبسط أن يغنى أغنية جديدة مطلعها اليابالیز اليابالیز دا أنت حبك والله يغيظ !.

وأعتقد أنه من محاسن السفر على وزن محاسن الصدف . أننى اكتشفت فوائد السفر ، وهى ليست سبعة كما قال الشاعر ولكنها أكثر وأعتقد أن من بين هذه الفوائد زيادة الدخل القومى ، ورفع مستوى الفنون والآداب . وهاهو العبد لله فى رحلة قصيرة مثل رحلة اليابان ، عدت وفى جعبتى عدة اقتراحات .. فيلم وبحث وأغنية ، هذا عدا الاقتراحات التى سنطرحها عليكم فى قادم السطور والمقالات !.

المهم البنت اليابانية سرحت معى فى شوارع طوكيو ، والبنت موظفة ومتعلمة وشغوفة بالحب ولها ولد صديق يابانى ولكنه لعبى . والواد اليابانى إذا كانت عنيه زايغة .. وجد لنفسه نصيبا أكبر من نصيب المستقيم الغلبان .. لأن الجواز مشكلة .. وأيضا لأن اللهو مباح والحب ممكن وأيضا لأن السياح على قفا من يشيل .. وأغلب السياح نسوان وأغلب السياح النسوان وحيدات ، وأغلب السياح النسوان الوحيدات فى حاجة إلى ونيس .. من أجل هذا كله أصبحت المسائل سلطة . البنت جعانة للحب ، والولد هربان منه . والعبد لله رغم أننى لست يابانى الجنسية إلا أننى يابانى الطبع . وسألتنى البنت المثقفة .. لماذا كل الرجال هربانين من الخدمة ؟ هل هى صفة من صفات عصر الفضاء والقنابل الذرية . وأنكرت أنا أن يكون جميع الرجال هربانة من الخدمة ! وقلت

أنا شخصيا لا أعرف من الرجال الهربانين إلا ثلاثة .. الخميسى والحجاوى والفتى الأمرض سعيد أبو بكر .. والأمرض . وليس الأمرد ! .

ويعلم الله أننى كنت دجالا وكاذبا . ولكن يبدو أن البنت صدقتنى ، فقالت ربما .. فأنا شخصيا – البنت – لم أعرف إلا عشرة رجال فكيف لى أن أحكم على غيرهم ! والحمد لله لأنها لم تدخل فى تجربة مع الرجل الحادى عشر ، وإلا لاكتشفت أننى دجال وأنها كانت على حق ! ولكن أغرب شيء أننى اكتشفت من خلال الحوار مع البنت اليابانية شيئا لم يكن يخطر لى على بال .

أثناء جلوسنا فى ملهى الكريزى هورس .. دخلت خمس فتيات أمريكيات آخر دلع وآخر هوسة . القوام ممشوق والوسط يكاد يصرخ من الخنقة .. والشعر مستعار ونازل على الركبة وبنت تلبس فوق الركبة ، وبنت تلبس فوق الرقبة . وواحدة فيهم سكرانة وعدمانة .. ولذلك اكتفت بلبس الجونلة فقط والحمد لله لأنها لم تنس الملابس الداخلية ! وقلت للبنت اليابانية عظيم .. إن حركة السياحة فى اليابان شغالة على ودنه .. وانقمصت البنت وامتعضت ، وقالت ملعون أبو السياحة وملعون أبو السياح .. كل السياح اليوم بنات وكلهم ستات .. وهدف السياحة البحث عن رجال .. ولذلك أصبح الولد اليابانى يتبع وزارة السياحة ! وأصبحت ستات اليابان ضد السياحة والسواح !.

وضحكت لهذا الاكتشاف .. فصحيح أن شكل السياح تغير .. وتغيرت أيضا نوعيات السياح .. زمان كان السائح مريضا أو فنانا أو واحدا من ملوك الاقطاع والأموال .. واليوم صارت السياحة للطلاب والصياع والنسوان .. وصحيح أن حركة السياحة زادت مليون فى المية بعد الحرب العالمية ، فهجمت نسوان ايطاليا على اليونان وطفشت نسوان اليونان على قبرص ، وهربت نسوان قبرص على أسبانيا .. وزحفت نسوان أسبانيا على المغرب .. وهكذا أصبحت السياحة تبادل خبرات وتبادل ستات ! ولذلك أيضا فشخت بنت سمراء وملفوفة بقها للعبد لله فى مطعم فندق برنس أوف طوكيو .. وبعد السلام والكلام اكتشفت أنها مكسيكية .. وأنها فى رحلة حول العالم .. وأنها هاوية طوابع بريد وهاوية التعرف إلى أكبر عدد من الشبان ! وأدركت أن البنت

المكسيكية عميت ، لأن الصلعة أصبحت منورة ، والعين ذابلة والبشرة أصبحت مكرمشة ولا حول ولا قوة إلا بالله ! .

ولعل برنامج غزو الفضاء الأمريكى تم تحت ضغط نسوانى ليس له مثيل .. لعل النسوان اكتشفن أن الكوكب الأرضى قد عقم الآن من الرجال .. وهن على حق .. بسبب مشاكل مابعد الحرب ، وخطر الحرب الذرية والانهيار الخلقى الذى اجتاح بلاد الخواجات .. ولعل السبب فى غزو الفضاء هو البحث عن مخلوقات جديدة ورجال جدد وعوالم أخرى تجعل الانسان غاية ونهاية فى الفرفشة والمزاج ! ولذلك أصبحت السياحة شيئا ضد التقاليد والسلوك والأخلاق !.

الستات سهل أمرهن .. والرجال ينبغى أن يقام لهم سوق للرقيق وينبغى أن تهدر من أجلهم كل القيم وكل الأخلاق ، ولقد سارت طوكيو فى نفس الطريق الذى صارت فيه روما ولندن وباريس ، وفى شوارع طوكيو العظيمة يقف ألف شاب بالليل ومعهم كل شىء .. صور وعناوين ، ومستعدون لكل شىء فقط عليك أن تدفع وستجد طلباتك كلها مجابة .. وكل شىء على مايرام !.

وحزنت أنا من أجل طوكيو الجميلة الجريئة التى ضربت الغرب على قفاه . هزمته فى المصنع وفى السوق وفى ميدان القتال . وأنا شرقى ، واليابان أم الشرق ، والشرقى للشرقى كالبنيان المرصوص ! ولذلك حزنت لأن اليابان كانت ولا تزال مفخرة لكل شرقى .. ولكن هاهو الغرب اللعين يهجم عليهم . ليس بجيوش هذه المرة ولكن بسواح آخر آلاجة وآخر دولارات . وهكذا الغرب إذا لم يستطع أن يدخل من الباب دخل من الشباك . وهو يريد أن يقضى على الأمة اليابانية العريقة ذات التاريخ والتقاليد . وهو يعمل فى هذا الميدان بهمة ، وهويوشك أن يحقق انتصارا لم يستطع أن يحققه فى ميدان القتال ، وتذكرت مصر .. ولا أدرى لماذا ربطت بين ماحدث هنا وما يحدث فى طوكيو . الغرب لم يستطع أن يهزمنا حتى الآن ! حتى عندما استطاع أن يهزمنا فى ميدان القتال فى ٥ يونيو لم يستطع أن يحقق ما كان يرمى إليه .. فلم نستسلم ولم نلق السلاح . وهو لم يستطع أن يخترق حصوننا عن طريق السياحة فدخل من باب آخر .. باب التهريب ! وظاهرة غريبة أن نجد فى مصر كل شىء مهرب هذه الأيام ، الساعات



وأقلام الحبر والأقمشة وحتى الفوطة والبشكير ! والغريب أنها بأسعار خرافية وأنا أقسم أنها ليست حركة عشوائية ، ولكنها مدبرة ومخططة .. هدفها فى النهاية تحطيم اقتصاد مصر، ووضع أنفها فى الرغام ! وبهذه الرؤية الجديدة أستطيع أن أقول إن هؤلاء المهربين ليسوا مهربين ولكنهم خونة وعملاء ! والموظف الذى يغمض عينيه جريمته أكبر ومصيبته سودة بإذن الواحد القهار . وينبغى أن نأخذهم جميعا بالشدة .. فلا تهاون مع الخونة ولا شفقة مع المخربين والعملاء .. وإذا كان الجاسوس يعطى أخبارا للعدو فالمهرب يعطى ماهو أخطر . وإذا كان الغرب استطاع أن يدخل اليابان عن طريق السياحة ، فقد دخل مصر عن طريق الفيديو والقماش .. وأنا فى اليابان حصل لحضرتنا من هذا الأمر غم . ونظرت إلى المصانع والشوارع وقلت سبحان الله .

والست والدتنا زمان كانت دائما تردد يابانى فى غير ملك. ، ولا ينطبق هذا الكلام على أحد الآن قدر انطباقه على اليابانى الجدع الذى هو أجدع من سباع الغاب . ورغم أن الرحلة كانت قصيرة وفقيرة .. إلا أنه لايزال على طرف اللسان كلام ياحضرات السادة وياحضرات الستات .

كلاب أوروبا المدللة

الله يرحم بيرم التونسى فقد داخ دوخة الأرملة وهو هارب فى أوروبا من منجم إلى قهوة ومن قهوة إلى رصيف . الله يرحمه ويحسن إليه فقد كان هاربا من بلاده مطاردا كالكلب الجربان ، ورغم أنه كان فنانا ولا كل الفنانين ، أديبا ولا كل الأدباء ، ومشهورا ولا كل المشاهير فقد عاش فى أوروبا عيشة جرسون ، وكان من الممكن أن يموت ميتة شحات ولكنه سرعان ما عاد إلى مصر ، متسللا تحت جنح الظلام ، قاصفا سن قلمه الحاد الجرئ ، طاويا ضميره داخل نفسه وعاش فترة فى بلاده يأكل عيشه مغموساً فى الذل والخوف حتى أدركته الثورة !

هكذا أيها الناس عاش بيرم التونسى عندما هرب من بلاده رافعا لواء الثورة على الحكم الفاسد والنظام الذى نخر فيه السوس ، وهكذا عاش كل الأحرار الذين هربوا من مصر خلال عصور الجهالة والظلم والإرهاب ، عاشوا فى أوروبا بلا صديق ولا رفيق ولا معين وكان بعضهم يشارك الكلاب فضلات الطعام !

ولكن كم تغيرت الصورة الآن ؟ كم انقلبت وتشقلبت هذه الأيام ؟ أى صعلوك هارب من بلادنا يستطيع أن يعيش فى أوروبا عيشه السلاطين ، والسبب هى الخلافات العربية ، وحرب النظم العربية . أى نكرة يعلن انضمامه للنظام الليبى . يا هناه .

وأى سورى يعلن تأييده لحزب الأشاوش .. تنفتح له ليلة القدر ؟ وأى جربان يستطيع الآن أن ينزل فى أفخم فنادق جنيف ، ويتمدد على رمال شواطئ فرنسا، ويراقص أجمل الجميلات فى ملاهى فرانكفورت ، بشرط واحد وبشرط وحيد ، هو أن يشتم النظام الذى يعاديه كل يوم فى جريدة أو ينبح ضده كل مساء على موجات الأثير ! ..

لماذا أيها الناس داخ بيرم التونسى دوخة الأرملة ؟ ولماذا أيها الناس يعيش الجرابيع اليوم عيشة مهراجات الهنود !

السبب بسيط أيها الناس ، فلقد كان السلام والوئام يربط العرب جميعا ، لأنهم كانوا مجرد شعوب بلا حكومات ، مصر يحكمها الإنجليز ، والشام يحكمه فرنسا ، والمغرب مع فرنسا ، وليبيا مع ايطاليا ، واليمن تحت حكم الإمام ، والسعودية تعيش خلف الصحراء . فلما استقلت الدول العربية نشأت بينها الخلافات ، وبعدها ظهرت وظيفة (المناضل) العربى !!

ولكن غير الهاربين من الخوف والضياع هناك فئة أخرى ضائعة ، ناس سافروا إلى أوروبا أول الأمر ليتعلموا فصدمتهم أوروبا وحركت فى داخلهم كل عقد النقص ، أوروبا نظيفة وبلادنا وسخة ، أوروبا حلوة وبلادنا قبيحة ، أوروبا متعلمة وبلادنا جاهلة ، وهو متعلم ومعه شهادة والأجر فى مصر سبعون جنيها وفى بلاد الخواجات ألف جنيه ، وملعون أبو الذى يعود إلى بلاده ، فهنا نسوان ولا القشطة الصابحة ، وانحلال ولا مدنية بومبى ، وعاش أكثرهم فى أوروبا متوهما أنه عالم علمه خسارة فى بلاده ، الجاهلة ، المظلمة ، التى لا تقدر العباقرة الأفذاذ أمثاله !

ونوع آخر لا ينفع طبله ولا طار ، وجوده عار ، وانتسابه لنا فضيحة ، وكلهم طلبة إلى الأبد ، منذ عشرة أعوام كان طالبا ولا يزال وسيموت طالبا وسيحشر يوم القيامة فى زمرة الطلاب ! ويجلس الواحد إليك يتحدث والبايب ترتعش بين أسنانه ، ودخانها يتلولو فى الجو كحلقات السلسلة الذهبية التى تتدلى من عنقه ، ويجلس بالساعات يتحدث معك عن كفاحه فى أوروبا ، وعلمه الغزير الذى استفاده من وجوده فى أوروبا وكيف أنه يستطيع أن يميز بين بائعة الهوى وغيرها من أول نظرة ، وكيف يستطيع سيادته أن يصرع المرأة الأوروبية بحلاوة شنبه !

وفى أوروبا أيها الناس (٣٥) ألف طالب عربى من مختلف الجنسيات ومختلف المشارب والمزاجات ، فى ميونيخ مثلا خرج العبد لله فى وفد من الطلبة إلى مقهى

على الرصيف واحتدم النقاش بيننا حتى الصباح ، ولقد اقتنع البعض منهم بمنطقنا ومنطق الطلبة الذين يؤمنون معنا ، وأصر البعض على منطقه السقيم ، وقام كل منهم يتحسس جيبه المنفوخ بمحافظ جلد التعبان !

ولكن أبناء بلدنا الأصلاء لم يتأثروا أبدا بمظهر الحياة فى أوروبا ، الواحد منهم لا يزال فلاح ابن فلاح ، عتره ومفتوح العين ، واحد منهم فى مناقشة نهض ثائرا وأشار بأصبعه نحو ثلاثة من جماعة أنصار مضغ اللبان وقال على الطلاق الناس دى خونة وبيشتغلوا مع اليهود ! وسكت السادة الثلاثة وانصرفوا فى هدوء .. مريب !

ولم يكن كل شئ سيئا أيها الناس . بعض الأشياء سيئة فعلا ، ولكن أكثرها كان شيئا جميلا يرد الروح ويفتح النفس . طالب من عائلة معروفة فى الشرقية له فى ألمانيا ثلاث سنوات لم يراسل أهله خلالها ولا مرة ، وعندما جلس معنا اغرورقت عيناه بالدموع .. هذا المسكين تذكر أهله فجأة وهو يتحدث معنا عن مصر ، ولقد نسى المسكين خلال السنوات الثلاث أنه مصرى ، بهرته أوروبا وصدمته ففك عقدة الدوبارة التى كانت تربطه بذويه فلما استيقظ فجأة عادت الدوبارة تشده من عنقه إلى مسقط رأسه فبكى ولا طفل رضيع !

وفى ڤيينا التقيت بطبيب مصرى كان أول الخريجين على جميع طلبة العالم فى كلية الطب بڤيينا ، والذى قال له رئيس جمهورية النمسا وهو يسلمه شهادة البكالوريوس : «إننى فخور بك أيها العالم المصرى فأنت وإن كنت من بلاد غريبة إلا أنك مفخرة للنمسا كما أنك مفخرة لبلادك» .

وفى ڤيينا أيضا التقيت بوفد من شعب العراق العظيم ، وكانت مظاهرة عربية وطنية حين وقف الجميع فى نهاية السهرة يهتفون للعروبة !

وفى بون التقيت بطالب عربى من سوريا قطع مئات الكيلو مترات من هامبورج إلى بون ليحضر ندوة العبد لله ، قال الطالب السورى وهو يشرح لى أزمة الطلبة العرب فى أوروبا : « إننا هنا كثيرون .. تصور ٣٥ ألف طالب فى أنحاء أوروبا

لا يربط بينهم رابط إلا أنهم عرب وأنهم سمر وأنهم حيارى وسط هذا العالم المضطرب الغريب عنهم ، إننى أحيانا ألتقى بطالب عربى فى الطريق فألقى عليه السلام بصوت مبحوح ، ويرد السلام بصوت مسلوخ ، ثم ينصرف كل منا إلى حال سبيله ، وعلى أية حال هذه الندوة كانت فرصة للاجتماع ، وفرصة للقاء ، وأرجو أن تتكرر هذه الفرص فى المستقبل ، فما أحوجنا نحن العرب فى الخارج إلى من يذكرنا ببلادنا وبالمنبع الذى تفجرنا من داخله ذات يوم إلى هذا المصب الغريب !

وكلام هذا الطالب السورى صحيح وسليم ولا غبار عليه ، فرغم هذا العدد الهائل من الطلبة العرب والعمال العرب فى الخارج فما أبشع الصورة التى يعرفها الغرب عنا ، لا يزال العربى فى ذهن الألمان مثلا هو الرجل الملتحى الشاهر سيفه القابع داخل خيمته الذى يخشى الخروج ليلا حتى لا يأكله وحش الفلاة ، ويخشى الخروج نهارا حتى لا تأكله التماسيح التى ترتع فى الشوارع ! والأغنية العربية الوحيدة المشهورة فى العالم هى أغنية يا مصطفى والتى ذاعت وشاعت فى أنحاء العالم واشتهر صاحبها بوب عزام وأثرى ثراء جنونيا والتى تقول أنا باحبك أكثر من صلصة الطماطم يا مصطفى ! وهات الجوزة والجدعان وتعال نروح عند الشيخ ريحان يا مصطفى ! هذه المصطفى يا مصطفى هى كل ما يعرفه العالم من موسيقانا ، ولقد حدث فى أحد ملاهى فرانكفورت وأنا جالس على ترابيزة كأنى كهرمان الزمان أن نزل قائد الفرقة الموسيقية من فوق المسرح واختار زبونا يجلس إلى جوارى . سمين كأنه خنزير ، وجهه أحمر كالبطيخة الشيليان ، ووضع المايسترو قبضته فوق رأس الرجل السمين ، ووضع عصا القيادة بين أصابعه ، وصعد الرجل إلى المسرح وقاد الفرقة الموسيقية ، وعشان عيونه ، ولأنه أمريكانى ، فقد عزفت الفرقة قطعة موسيقية أمريكية شهيرة .. وصفق الناس فى الملهى الفرانكفورتاوى للرجل الأمريكاوى وموسيقاه !

ثم جاء دورى فى النهاية وصعدت مع المايسترو إلى خشبة المسرح والبرنيطة فوق رأسى ، والعصايا بين أصابعى ولا أحمد فؤاد حسن فى زمانه ! وعندما



عرف المايسترو أننى مصرى سألنى عن المقطوعة المصرية التى أود لو تعزفها الفرقة لى ! وقلت له والله زمان يا سلاحى ، ولم يفهم الرجل شيئا . طيب يا زهرة فى خيالى . ولم يفهم شيئا . طيب النهر الخالد . ولم يفهم شيئا . طيب أيوب المصرى ، وضحك الرجل فقد ظننى مصرى قديم أتحدث بالهيروغلوفية وأننى أطلب منه أن يعزف موسيقى لا يعرف خبرها إلا علماء الآثار ! وأخيرا عزف الرجل يا مصطفى وصفق الناس فى الملهى فقد فهموا أن العبد لله مصرى من بلد سى مصطفى !

ولكن أيها الناس رغم كل رأيت وشاهدت وتفرجت هزنى من الأعماق شاب مصرى اسمه زكريا يعمل جرسونا فى فندق جود سبرج فى ألمانيا ، هذا الجرسون زكريا كان يتصرف كأنه سفير . سألته عن السبب قال لى كل حركة محسوبة علينا هنا وهى لا تحسب على أشخاصنا ولكنها محسوبة على وطننا إنهم هنا لن يقولوا إن «زكريا» سيئ ، ولكنهم سيقولون مصر سيئة ..

زكريا فى ألمانيا منذ ثلاثة شهور . ذهب إليها يجيد ثلاث لغات ، الانجليزية والعربية الفصحى ، والعربية العامية ومن ثلاثة شهور أصبح يجيد الألمانية وهو الآن يتعلم الفرنسية وبعد عام فى ألمانيا سيحاول دخول إحدى الجامعات ليصبح مهندسا للكبارى !

وأنا والله العظيم ، وبحق هذا اليوم المفترج ، وهو مفترج باعتباره يوم الأجازة للسادة الحلاقين ، كنت أسير على ضفاف بحيرة ليمان فى جنيف ومعى صديق مصرى ، وفجأة وقفت ، وأمرت صديقى بالوقوف ، وقرأت الفاتحة ، وظن أننى انخبلت فى عقلى فقال : إيه الحكاية ؟ وغمزته أن يسكت فسكت ، ثم غمزته أن يقرأ معى الفاتحة ، فقرأ ، وعندما انتهينا سألنى .. ليه ؟ وقلت قرأتها على روح بيرم التونسى ، وقال .. والمناسبة ؟ المناسبة أننى شاهدت حرامى مصرى هربان فى سيارة مرسيدس ٢٢٠ .

وهى سيارة لا يركبها إلا السفراء والحكماء ، يعنى الحكام ، والبنكاء يعنى

أصحاب البنوك ، وهذه المرسيدس التى يركبها صاحبنا هى من عصير دم الشعب المصرى ، وهى كفتة من جثث شهدائه !

هذا الولد الحرامى كان وكيل فنانين قشرة فى الستينات ، وعندما أقول فنانين فلا يذهب خيالك إلى بعيد ، فنوع الفنانين الذين كان صاحبنا وكيلهم كانوا وكن من نوع سيد الأكتع وسنية العمشة ، وفجأة .. وفى زمن الانفتاح والانفشاخ صار (دلدول) عند شيخ الانفتاحيين ، وصبى للمعلم الكبير ، وعينك ما تشوف إلا النور ، أصبح تاجرا ولا عبد الرحمن كتخدا ، وصار بنكيرا ولا طلعت حرب ، وبات رئيسا لاتحاد رياضى ولا عبد الحميد الجندى بتا ع كمال الأجسام !

وليس هذا النصاب وحده هو الذى هبر فلوس الشعب المصرى وهرب ، هناك آخرون سرقوا المصريين من خلال شركات توظيف الأموال . وبعضهم خطفوا المال العام على طريقة امبراطور فوه .. ويا فكيك على بلاد الخواجات ! وأشهر هؤلاء وأخطرهم هو زعيم حزب الكهرباء ، وهو فى الحقيقة والتاريخ لم يهبر مليما من فلوس المصريين ، ولكنه هبر فلوس الأشاوس باسم المصريين . وأسس حزبا للكفاح ثم تبين أنه لم يكافح إلا على أكل عيشه ، ولم يناضل إلا فى سبيل الدينار ، وهو يعيش الآن فى حى (بلجرين) أرقى أحياء لندن ، وله مكتب فى حى (هولاند بارك) وله سيارة تستطيع أن تدخل من بابها الخلفى فى الجيزة وتخرج من بابها الأمامى فى الدقى . والست حرم رئيس حزب الكهرباء تتاجر فى كل شئ ، من أول الملابس القديمة إلى الملابس المسروقة .

ولكن .. هل الحياة فلوس وقصور وسيارات بس ؟ العبد لله يقول .. ملعون أبوها حياة . فهم موضع احتقار الجميع وموضع سخط الجميع ، وهم أشبه بالكلاب المدللة التى ترك لها أصحابها عدة ملايين من الدولارات ! صحيح أن حضراتهم يعيشون فى نعيم .. ولكنهم فى النهاية مجرد كلاب !

وداعـــا توكيـــو

فى ريف بلادنا ، تنطلق دائما إشاعات مؤداها . أن مركزا ما ، أو قرية ما ، أو مدينة ما ، باختصار فى هذا «الما» كل النساء حلوين . وكلهن صبايا ، وكلهن راغبات للعشق ، راغبات فيه !!.

سمعت هذه الاشاعة مرة عن قرية فى المنوفية وسمعتها وأنا طفل ، وفى القرى يسمع الأطفال الحكايات فلا ينسونها وينسج منها الليل والهدوء والظلام وخرير الماء أساطير وخرافات إذا أطبقت على عقل الطفل وأنشبت أظافرها فيه فلا يمكن أن تطلع الا – كما الوطواط – بالطبل البلدى ! لذلك عندما كبرت وأصبحت شابا ، وأصبحت من عيال البندر ، لم أستطع الفكاك من سحر هذه الاشاعة ، ولم أستطع أن أتخلى عن نية زيارة هذه القرية ، ورؤية نسائها وصباياها ، فلما أتيحت لى الفرصة، لم تقع عينى خلال ساعات طويلة إلا على نسوان كما الفسيخ الميت والحلوة منهن كما الغراب النوحى ! .

ومرة ثانية وأنا فى المعهد العلمى الثانوى ، مدرسة شارع محكمة السيدة زينب ، حيث كل التلاميذ «معلمين أولاد معلمين . جزارين وحانوتية وجدعان» ، راس الواحد فيهم تفلق الحجر ومشط رجله يجعل أجدع شنب يتشقلب على ظهره ويتشقلب على بطنه ولا شقلباظ السيرك ! .

من هؤلاء التلاميذ تعلمت شيئا تحول بعد فترة إلى قانون الجاذبية ، وإلى نظرية فيثاغورث ، وإلى قاعدة مثل قواعد أمريكا فى الخارج . هذا الشىء هو أن بنات المنصورة حلوين ونساءها آخر جمال .. وأن المسافرللمنصورة . محظوظ مبسوط .. آخر آلاجه وآخر انسجام .. حتى جاءت فرصة ذات يوم وذهبت إلى المنصورة .. وتصورت أنه عندما يقف القطار فى المحطة ستهجم علينا ألف بنت من بنات المدارس

الثانوية ، ومائة ألف ست ، عاملات وربات بيوت . وكنت وقتئذ فى العشرين من العمر - سن الشباب والغرور والزهو - وقضيت الطريق من القاهرة إلى المنصورة أفكر فيما ينبغى أن أفعله عندما أهبط على المحطة ؟ هل أستسلم للستات ؟ أم أقاوم ؟ أم أستسلم وأحتج وقررت أن أختار .. السمينة مثلا لا داعى لها ، والتى فوق العشرين ليس لها لزوم .. إذن علينا بالتركية المصرية ذات القوام الملبن والعيون الزرقاء . وعندما توقف القطار فى المنصورة أصلحت من هندامى ومن رباط عنقى وبللت حذائى بريقى . وهبطت المحطة نافشا كالمرحوم روميل يستعرض جنوده .. ولكن وكستى العريضة أننى لم أشاهد أحدا فى المحطة إلا الكمسارى والمسافر والشباك ، وقلت لعل البلدية أو مدير المديرية منع دخول المحطة نظرا للزحام .. لعل الستات واقفات على أحر من الجمر فى انتظار خروج حضرتنا !.

ولكن النظرة الأولى للشارع جعلتنى أومن أن النسوان موجودات فى عقلى الهايف ، وأن المنصورة مثل الجيزة مثل منوف مثل شبين ، بلدة عادية وما يدور فيها يدور فى أى مكان على ظهر الأرض .. ومع ذلك لم أكف أبدا عن تصور أشياء خرافية ، وكانت آخر خرافة تصورتها أن ستات اليابان حلوين .. وأن الرجل اليابانى ملك متوج ، وأن الست اليابانية آخر جمال وآخر دلال وآخر أدب .. إذا كح الرجل ارتعدت ، وإذا زغر انتفضت وإذا عطس قالت له يرحمك الله ! ولكن حكمة الله أن ستات الصين أحلى من ستات اليابان وأرق ! والبنت اليابانية تزغر لها فتزغر لوالدك ! وتكح فتضربك على ظهرك . وتعطس فتقول لك ضع على فمك منديل الله يخرب بيت أبوك !.

ولكن البنت الصينية تنفخ فيها فتتمايل ، تهزها فتقع ، تلمسها فتجرحها ويلزم لها كولونيا وإسعاف . ضللت الطريق مرة فسألت بنت يابانية فشرحت لى ووصفت لى ، وقالت على طول واكسر على اليمين . ولكى تؤكد أن الكسر على اليمين عكمت يدى اليمنى وياحزنى .. طقطقت عظامى حتى تصورت أننى أخطأت وسألت ليستون ! وقلت حذار لا أسأل ولا أستفسر .. التوهان أفضل لأننى فى النهاية سأعود ، أما السؤال فقد يقذف بى فى مستشفى أبو الريش اليابانى ! ولكنى تعاملت مرة أخرى مع ست يابانية عندما رأيتها أشفقت عليها .. ودعوت لها أن تبرأ من ضعفها ومن سقمها .

ولكن الست المسلولة ألقت بى على منضدة وانتصبت واقفة على أطراف أصابعها تمشى على ظهرى ، كانت الست تقصد التدليك ، ولكن الذى حدث كان التكتيك ، أقصد عظامى تكتكت كأنها أسنان أفندى مذعور ساعة غارة .. أو أسنان جعان فى أول طوبة ! ورفعت رأسى أسألها ، هل هذا تدليك ؟ قالت أسكت ! ودغنتنى بكعب رجلها فى سلسلة ظهرى .. وصرخت من أمعاقى يعنى من أمعائى ، وهى كلمة جديدة فى اللغة العربية أهديها إلى بتوع المجمع اللغوى لا أريد منهم جزاء ولا شكورا ، وأغلب ظنى أنهم لن يقبلوا الكلمة لأنها صادرة من العبد لله ولو كانت من مخلفات أبو كحكوح الأموى لأصبحت مادة لكتاب اسمه الجاموس فى شرح القاموس .

المهم .. عندما زغدتنى الست بكعب رجلها فى سلسلة ظهرى ، أنا صرخت من أعماقى ، ياخفى الألطاف ، نجنا مما نخاف ! .

ومرة ثالثة وأنا فى مطار طوكيو استقبلتنى بنت . الحق حلوة ، جسمها مثل القلم الحبر الصينى ، طعمة طعامة اللحمة البتلو وارد أجا .. وتكلمت البنت وأشفقت عليها من الكلام فمثلها ينبغى ألا تتكلم ، ولو أنا صاحب البنت أحلف ميت يمين .. شارع لاتخرج .. شباك لا تنظر .. كعب رجل منها لايظهر ! والبنت صوتها جميل ، صوصوة مثل كلام العصفورة حتى أكل البنت جميل .. حبوب مثل أكل العصفورة .. حتى لبسها جميل .. أصفر أزرق أخضر مثل ريش العصفورة ! وقلت يا سلام لو أنا رسام مثل عمنا جمال كامل ، لو أنا شاعر مثل عمنا المتنبى . لو أنا موسيقار مثل عمنا عبد الوهاب . لو أنا جواهرجى مثل الأخ عكاوي ، آه لو أنا واحد من دول ، إذن لحصل الكلام والوئام والذى منه ! المهم البنت العصفورة اكتشفت أننى سارح ولم تدرك أننى سارح فى جمالها .. فصرخت تستعجلنى صرخة مثل صرخة عمك محمد الحلو فى أسد السيرك العجوز ، وتعجبت ؟ كيف تصرخ البنت العصفورة مع أن العصافير لاتصرخ ، فلما هممت بشيل الشنط لم أستطع أن أحملها كلها دفعة واحدة ، فانحنت البنت العصفورة وشالت جميع الشنط ، وانطلقت أمامى تجرى !.

وقلت لنفسى لماذا نسوان اليابان شكل آخر غير نسواننا . النسوان هنا تتقصع مع أنها فى حاجة إلى بولدوزر لإزالة أطنان من اللحم والشحم ، وتتعوج وهى

توعى على فحت البحر ، وتتدلع وهى مثل أمنا الغولة ، ليس فى العالم نساء دليكات مثل نسائنا!.

أقصد نساءنا فى المدينة . ولكن نساءنا فى الريف ياميت جدعنة وياميت حلاوة ! أنا أعرف بنت سنكوحة ، فستانها باتسته .. وجزمتها من عند باتا ، وشعرها مدبوب فيه ألف فلاية ، وكعب رجلها حاشف وناشف ، البنت إياها إذا تكلمت قلبت الطاء تاء والراء لاما .. آل يعنى بنت طوسون باشا زوغلى ! .

لماذا ستاتنا بغاشة ، وستات الغير آخر حلاوة ولكن آخر شغل على ودنه .. أعتقد أن الحل هو أن تدخل البنت الجيش .. أن العيال المايصة يدخلون الجيش فيصبحون رجالة ، فلنجرب دخول البنت الجيش ، أولا لأنه حقها وثانيا لأن دخول البنت فى الجيش مكسب للأمة ومكسب لها ، حتى البنت فى الجيشا مؤدبة طالما أنت مؤدب ! فإذا لعبت بديلك لاسمح الله ، فالبنت الجيشا تتحول إلى أسدة – مؤنث أسد – تضرب بالأظافر وتنهش بالأنياب ! والبنت واقفة فى كل حتة .. حتى فى أشق وأعنف الأعمال ، وكل بنت فخورة بعملها ، مبسوطة لأنها تؤدى عملا والسلام . والبنت فى مصر تعمل ممرضة وتندب حظها السيىء وتسأل الله أن يفتحها فى وشها ويجعلها ممثلة فى مسرح عمر الخيام .

والبنت عندنا مدرسة وطول عمرها تبحث عن دور فى فيلم من أفلام حسن الإمام ! لذلك أنا انبسطت جدا من البنت فى اليابان رغم قسوتها ورغم فتوتها ، وانبسطت أكثر لأنها تعرف الأصول والاحترام ، وأنا صعدت أعلى قمة جبل فى «نيكول» بالقرب من طوكيو ، وكان معنا فى المصعد عشرون سيدة أشك أنهن جميعا اشتركن فى رضاعة سيدنا نوح ! واحدة منهن شكلها الخالق الناطق شكل شيتا ، والحجم الخالق الناطق حجم طرزان ، وقلت فى نفسى سيدة مثل هذه ما الذى جاء بها تتفرج على الآثار ؟ مع أنها قطعا كانت موجودة على قيد الحياة أيام كانت القارة اطلانطس موجودة . وقبل أن تنفصل عن الأرض لتصبح فيما بعد كوكب القمر. وصعدنا إلى القمة وتفرجنا وجلسنا . وجاءت بجوارى الست الحيزبونة ، فاكتشفت أن المرأة الدردبيس كانت فى مكتب للترجمة ملحق بقيادة اليابان خلال الحرب العالمية .

واكتشفت أيضا أنها لم تكن مترجمة فقط ولكنها كانت محاربة أيضا ! وفى جنبها اليمين آثار رصاصة ، وسألت المرأة الدردبيس عن رأيها فى المرأة اليابانية فزغرت لى وقالت ولماذا أنا بالذات تسألنى ؟ قلت لأنك قديمة .. ولأنك قطعا تفهمين الستات فى اليابان ، قالت : لا أحد فى العالم يفهم الستات .

وكداب ابن كداب من يدعى أنه يفهم ست واحدة فكل ست كوكب غامض يدور فى فضاء الكون ، ولكى تكتشفه يلزم لك صاروخ جبار وسفينة فضاء ورواد مثل رواد أبوللو .. وقد يتمكن الرواد من النزول على المرأة . وقد يحصلون منها على بعض الصخور أو بعض القشور ، لكنهم لن يكتشفوا سرها أبدا .

قلت للست اليابانية ولكن العبد لله ينظر للست من دول نظرة رقم ٥ أو رقم ٦ حسب التساهيل والأحوال ، فإذا بى أكتشف أمرها .. قالت أنت هايف ابن هايف وفكرت فى استخدام عضلاتى واستعمال مقصاتى وبونياتى ولكن منظر المرأة اليابانية التى كانت تعمل فى قيادة جيش اليابان جعلنى أتسامح ، وصدق عمنا المتنبى حين قال ، كل حلم أتى بغير اقتدار .. حجة لاجىء إليها اللئام ! .

وقلت ياسبحان الله . أنا فعلا كنت أظن أن البنت اليابانية معجبانية وحلوة وناعمة كما قطعة السكر .

ولكن هاهى البنت اليابانية أمامى . فى المصنع شغالة ، فى الشارع ماشية ، فى المحل واقفة ، فى المطعم منتظرة ، ولكنها ليست حلوة وليست ناعمة ، ومثلها مثل السمكة الشال ترقص وتلعب وتتقصع ولكن لها شوك اذا لدعت به واحد مثل حضرتنا فيانهار أزرق ومعجون بالنيلة ! وقلت أحسن شيء أمشى من اليابان بكرامتى .

لو أنا شاب مثل زمان ، لو أنا فتوة مثل ليستون . لو أنا شجاع مثل جاجارين ، لفعلت المعجزات . ولكن حكمة الله أننى لست واحدا من هؤلاء . وحكمة الله أيضا أننى غلبان غلب القبيسى ، ضعيف ضعف نزلاء مستشفى الدمرداش ولكن الناس تنخدع فى العبد لله ، وآهو الصيت ولا الغنى ، وأنا صاحب صيت وكفى الله المؤمنين شر القتال ، وقلت وداعا يايابان . فأنا ذاهب إلى هونج كونج ، وهى الأخرى لها فى ذهنى صورة ، صورة أخذتها من أفلام هوليوود ، وبعض القصص الهايفة .. وهى فى ذهنى

مدينة بلا قلب . الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود . وأنني فيها ضارب أو مضروب ، ومادام الحال هكذا فأنا إذن مضروب ومصكوك . ووضعت يدى فى جيبى أتحسس المسدس الخشب الذى اشتريته لحضرة ولدنا أكرم ،، ورفعت شعر رأسى .
- أقصد فروة رأسى - إذ لم يعد فى فروة رأس حضرتنا شعر وقلت جودباى توكيو ..
فأنا ليس من حقى أن أقول طوكيو ، بعد كل ما رأيت وعانيت من ستات اليابان ...
ورغم أننى مرضت وتدعبلت ونمت فى هونج كونج أشكو الحمى والصداع ، رغم العيا والبلا إلا أنه لايزال على طرف اللسان كلام .

هـــونـج كـــونـج

الله عليها. من فوق آخر حلاوة وأخر طلاوة ، وشيء يشبه نيويورك وبالميت خالص يشبه مدريد ! ناطحات سحاب تبدو من الجو، وشوارع مستقيمة ، وجبال تكسوها الثلوج ، وروابي خضراء ، وقصور آخر هوسة وآخر جو ! وعندما تهبط بك الطائرة وتنزل على الأرض تصاب بالقرف وتصاب بالدوار . رائحة ولا رائحة بيت الأسد في جنينة الحيوان .. وبيوت مثل العلب . وغسيل منشور في بلكونة . غسيل يقرف الكلب الجربان .. ورائحة طعام أؤكد لكم لو ألقاه أحد لكلب صايع لانسعر في الحال واندار عقر في خلق الله ! وفي سفوح الجبل عشش ولا عشش الترجمان .

ثم مدينة عايمة عند الشاطيء . مراكب قش ومراكب خشب ومراكب خيش ومراكب والسلام ، وفي المراكب تعيش النسوان والأطفال .. وفي المراكب محلات بقالة ومحلات جزارة وقهاوي ونوادي للقمار .. ولكنها نوادي من باب الدلع ، وقمار ولكن بملين ، ومقامرين ولكن شيء يغم القلب الفرحان ، وهذه اسمها كاولون شبه جزيرة متصلة بأرض الصين ، والقطار يقوم من محطتها وبعد ساعتين يكون في محطة كانتون .. هي إذن أرض صينية ولكن الانجليز هبروها واستأجروها بكذا ألف جنيه كل عام تماما كما يستأجر أحدنا شونة أو خرابة أو مغلق خشب زان .. ولكن انجلترا اللئيمة لم تدفع ملين أحمر منذ سنة ١٩٤٨ لأن ثورة الصين انتصرت في ذلك العام ، وأصبح في العالم صينان ، صين ماوتسي تونج ، وصين كاي شيك التعبان ! وبالطبع وقعت انجلترا في مأزق وبالطبع واجهت مشكلة .. فلمن تدفع الايجار الآن ؟ للصين الشعبية أم للصين الوطنية ؟ . وبالطبع لم تجد انجلترا جوابا عن هذا السؤال ؟ وأيضا لأن انجلترا صديقة للطرفين ، ودفع المبلغ لطرف واحد دون الآخر . عمل من شأنه إغضاب الطرف الذي لم يقبض !! وبالطبع انجلترا دولة ناعمة ودبلوماسية ، وهي شديدة التمسك

بالعلاقات الدولية ! وهى أيضا دولة قانونية ، ودفع الايجار لمالكين ، عمل ضد قانون الايجار العام والايجار الخاص والايجار الدولى ، ولما كانت انجلترا حريصة كل الحرص على أن تكون دولة مجاملة . وحريصة أيضا على أن تظل دولة قانونية . فقد اكتفت فى النهاية بالصمت والبلطجة وامتنعت عن الدفع المباح حتى يطلع الصباح ! ولكن الصين الشعبية سكتت هى الأخرى وصهينت تماما ، وأكلت المسألة بمزاجها .. لأن الصين لو أرادت كاولون وغير كاولون ، لأمرت أحد عساكرها على الحدود بأن يسرف فى تدخين السجائر وأن يكح كحتين فى الليل ، وبالطبع لن تجد فى الصباح أى إنجليزى فى المنطقة كلها بسبب كحة حضرة العسكرى الصينى المهاب .. ولكن لماذا صهينت الصين عن كاولون مع أنها تستطيع احتلالها دون أن تطلق طوبة ؟ السبب أن هونج كونج كلها تعتبر «بنك» للصين . فى العام الماضى بلغت حصيلة الصين من العملات الصعبة ٨٠٠ مليون جنيه من هونج كونج .. السبب أن هونج كونج هى المكان الوحيد فى العالم الذى يشترى منه الأمريكان . والسبب أن الأمريكانى عندما يسوح فى فرنسا يشترى روائح وكرافتات فقط ، وفى إنجلترا يشترى بلوفر صوف .. وفى إيطاليا يشترى حذاء . وفى مصر يشترى طبق صدف ، ولكن فى هونج كونج يشترى الأمريكانى كل شىء .. أولا لأن كل شىء فى العالم موجود هناك .. وثانيا لأن كل شىء بسعر التراب ، وأرخص شىء هناك منتجات الصين الشعبية .. وفى البداية كان الأمريكانى يحجم عن الشراء لدوافع قومية ووطنية وعنجهية .. ولكن اغراء السعر جعله يغطرش ويشترى كل شىء .. ومعظم فلوس الصين الشعبية دولارات ، والذين يدفعونها أمريكان ، ربما كان بعضهم عساكر حملوا السلاح يوما ما ضد الصين فى كوريا . ولكن الصين التى تحارب بذكاء التاجر ، وتتاجر بحماس المحارب ، أرغمت الأمريكان على الركوع فى السوق .. والصين تنتج كل شىء وأى شىء .. وهى تأخذ الشكل المعروف والماركة المشهورة ، وهات يا إنتاج ويا تصدير .. وفى هونج كونج ترفع الصين الشعبية أعلامها وتعزف نشيدها ، وترفع كلمات ماوتسى تونج بالشمال وتقبض دولارات أمريكا باليمين .. وما أقرب هونج كونج من الصين ، وما أبعد الفرق بينهما .

ورغم إن هونج كونج على مرمى حجر من الصين ، إلا أن كل مايدور هنا عكس مايدور هناك .. فى هونج كونج المكاسب للوسيط . السمسار يكسب أكثر من العامل ، والتاجر يكسب أكثر من السمسار ، والتاجر سمسار أيضا ولكن على أكبر .. والذى يتاجر فى الحرير وفى الفلوس وفى الحديد ، يتاجر فى الأعراض .. وهى أيضا لها سوق تشترك فيه أغلب دول العالم .. فكل صنف موجود ماعدا – والحمد لله – الصنف العربى .

والناس فى هونج كونج صنفان .. إما واقع على الأرض مش لاقى يهرش ولا يحلق.. وإما بنكير يلعب بالفلوس لعب .. التقيت فى كاولون بصينى عجوز ،، لعله موجود من عهد أسرة مانشو . لباسه بنطلون قديم وفانلة مشجرة ، ولحم بطنه باين . أقصد لحم بطنه من الخارج لا من الداخل .. فهو يبدو كأنه لم يأكل شيئا منذ عشرة أعوام .. ولكن منظره وهو جالس على الأرض ولا منظر تركى قائد طابية ! ولا معتمد بريطانى أيام الخديوى توفيق ! والراجل مسطول سطلة ينى . مبسوط كأن القيامة قامت وظهر اسمه فى كشف سكان الجنة .. ورائحة الأفيون تتصاعد من فمه إلى السما السابعة . وهو تاجر أيضا ولكن تاجر ليل . وبضاعته جاهزة ومستعدة وعلى كل لون .. صينية طعمة ، انجليزية معصعصة ، طليانية مبطرخة .. فرنسية مناخيرها فوق.. والسعر حراق والرجل الصينى لا يساوم .. ليس لديه وقت للمساومة وليس لديه بال للحساب .. صينى من بقايا عصر كاى شيك ، وفى داخله تجسدت كل مساوىء النظام القديم .. أغرب شىء أنه فر من كانتون عقب نجاح الثورة .. وجاء إلى هونج كونج يحلم بالحرية والعزة والمجد التليد .. ولكنه انتهى إلى الرصيف يجتر مع الأفيون ذكريات الماضى الذى ولى، ويحلم من خلال السطل بعالم آخر يختلف عن العالم الذى يعيش فيه .. والرجل المسطول المأفون ليس وحده .. فى هونج كونج مليون صينى يعانون نفس المحنة ويلقون نفس المصير .. مليون صينى يسكنون العشش ، فإذا جاء إعصار أطاح بالعشش وأطاح بالسكان .. ويعملون فى كل شىء هابط وحقير .. من أول جر الراكشا كما البغل الشقيان ، الى تجارة الليل .. وهم جميعا هاربون من

الصين فرارا من الكبت والعبودية «كذا !!» إلى الحرية وحيث الفرص متاحة للجميع . ولكنهم اكتشفوا أن الصعود في مجتمع مفتوح يشبه الربح في سباق الخيل .. خمسة يربح كل منهم مائة جنيه .. ولكن بشرط أن يخسر مائة رجل خمسمائة جنيه .. إذن هي حسبة برما .. لكي يرتفع خمسة لابد وأن يركع خمسمائة .. ولكن لماذا لاتعود إلى الصين أيها الصيني المسطول ؟ أعود ؟ . إنني لو عدت لأجبروني على العمل .. وأنا رجل لا أحب أن أعمل .. صحيح العمل يوفر لي الشرف .. ولكن من قال إنني أبحث عن الشرف ؟ إنني في الحقيقة أبحث عن الترف .. ولكن أين الترف أيها المسطول ؟ لقد فقدت الشرف والترف معا .. لا .. لا يزال في العمر بقية ، وهو صحيح فشل ولكنه فشل حتى الآن .. ولكن من يدري ؟ ربما استطاع أن ينجح يوما .. المقامر يخسر كل نقوده ، ثم تأتيه ضربة حظ في آخر لحظة فيعوض خسارته ويكسب عدة آلاف .. هو إذن منتظر ولكنه في انتظار جودو الذي لن يحضر على الاطلاق .. فهذه المدينة هونج كونج مساحتها قدر مساحة حديقة حيوانات لندن .. وحديقة لندن تتسع لألف حيوان ولكنك وضعت هنا ثلاثة ملايين وحش .. وستتصارع كل الوحوش لكي تحصل على مكان .. وبالطبع سيرتفع من الوحوش من هو أكثر وحشية ، وسيهبط الوحش الذي يخسر المعركة .. ولكنه لن يترك الحديقة ، لأن طبيعة الوحش الكامنة في أعماقه ستجعله في انتظار أن تنمو مخالبه يوما ليعاود الصراع من جديد .. ولكن هذا الذي يراه الصيني منطقيا من خلال السطل لم أستطع أن أتبينه على الاطلاق .. فلقد انتهت المعركة في هونج كونج من زمان والذي ربح يجلس على القمة ، والذي خسر يجلس على الرصيف .. ولكن ليس معنى هذا أن كل الذين خسروا معركة الحياة في هونج كونج قنعوا بالأحلام على الرصيف أو بالصمت في العشش .

وهناك وحوش أخرى اكتشفت أنها خسرت المعركة فعلا ، وأنهم في حاجة إلى معركة أخرى ولكن خاطفة .. بحيث تتم المعركة في دقائق ، فإما شعلقة في القمة وإما شعلقة في الحبال .

ولذلك ما أكثر العصابات المسلحة في هونج كونج. ولذلك أيضا ما أكثر الحراس

المسلحين فى هونج كونج . على كل محل جواهرجى أربع شحوطة . كل شحط يفتح بلد ، ومع كل شحط بندقية من نفس النوع الذى كان يستعمله عسكر الفرنساوية ضد عسكر المملوك .

وأغلب الحراس هنود من طايفة السيخ ، طوال القامة عراض عرض شارع رمسيس ولهم شوارب وذقون ولا الجدع عنتر . ولكن محلات الصين الشعبية يحرسها فتيان من الحرس الأحمر .. ومعهم بنادق سريعة الطلقات ! أما محلات عمنا كاى شيك فيحرسها جنود من سن الأخ كاى .. وعجبى على رأى صلاح جاهين أن فى ملة بوذا البنات مثل العيال ، وحقوق البنت مقدسة ومقدمة على حقوق الواد .

والبنت فى هونج كونج مدرسة ومرشدة سياحية وبائعة انتيكا ومراكبية وكناسة فى البلدية وتلميذة وربة بيت .. ولكن البنت فى هونج كونج أيا كان موقفها وموقعها .. فهى فى الليل غير النهار . أنا رأيت بنت فى الخامسة والعشرين صينية حلوة أبوها هربان من صين الثورة ، وهى متزوجة من ولد صينى أبوه كان شيخ تجار الجواهر فى شنغهاى . فلما سقط السادة فى الصين وهربوا إلى هونج كونج لم يكن هناك مبرر لوجوده فى شنغهاى ، خصوصا وبضاعته ليس لها سوق إلا فى مجتمع يقتنى بعض أفراده الذهب ويقتنى بعض أفراده الجوع . البنت التقيت بها فى كافتيريا هيلتون فى هونج كونج .. وبخت الخواجا هيلتون أن زوجة مدير اللوكاندة مصرية ، ونائب مدير اللوكاندة ابن بلد من أسيوط . سألت البنت فى الليل ، لماذا تلعب بديلها مادامت متزوجة ومبسوطة وآخر مزاج ، وردت البنت اللعبية : لا شىء فى هذا الأمر .. إنها مجرد لعبة لتجديد الحياة ! .

ولذلك بنت الهوى فى هونج كونج ليست بنت هوى وبس ، ولكنها بنت هوى وبنت ناس . حتى التلميذة فى المدرسة تسرح بالكتب فى النهار وتسرح بالمينى جيب فى الليل فلا شىء عجيب فى هونج كونج ، ولا شىء حرام مادام يؤدى إلى المكاسب والفلوس .

ولذلك ستجد فى هونج كونج بيوتا مظهرها محترم وداخلها شىء لا يجوز . وأعجب شىء أن أصحاب هذه البيوت رجال أعمال ورجال أموال ورجال نفوذ . وفى هذه البيوت تستطيع أن تفعل أى شىء وكل شىء . تنسطل جايز ، تسكر ماشى ، تدوخ مفيش مانع ، ترقص مفيش بأس وكل شىء على مايرام .

ولكن ليس هذا هو الشىء الموجود فقط فى هونج كونج . هناك أيضا ستجد ثوارا أصحاب قضية . ومتمردين أصحاب مطامع .. بعض الحالمين يعيشون فى هونج كونج على أمل رجوع كاى شيك إلى شنغهاى .

وهم لا يحلمون فقط ولا ينتظرون بس .. ولكنهم أيضا يعملون فى الخفاء . يطبعون منشورات هايفة .. ويجندون عملاء أهيف .. وبالطبع سيطول انتظارهم لأن كاى شيك لن يرجع ولن يعود ، وهناك أيضا ثوار . وأنا رأيت أحدهم وهو من جزيرة ماكاو ، وبينها وبين هونج كونج أربعون ميلا بحريا ، والجزيرة تحكمها البرتغال وممنوع دخولها على العرب والهنود والباكستانيين والصينيين ! . أبوابها مقفولة فى وجه كل من يرفع صوته بالاحتجاج ضد البرتغال ، ويلقى فيها الأفريكان حتفهم جزاء وقوف دولهم مع ثوار أنجولا وموزمبيق ، وهى جزيرة حلوة ولكن حولها البرتغاليون إلى كازينو للقمار . وأنت تستطيع أن تلعب فيها القمار .. كل أنواع القمار ، وفى أى وقت من أوقات الليل والنهار ، وفى الجزيرة سبق خيل وسبق كلاب وسبق حمير وسبق سمك وسبق براغيت وأى شىء يتحرك على الأرض أو يطير فى الجو له سبق وعليه رهان فى ماكاو . ولقد كنت أتمنى أن أرى ماكاو فقد عشقتها على البعد والسبب عمنا سومرست موم . فقد عاش الكاتب الانجليزى فى الشرق الأقصى وانبهر بما رآه هناك . وطبع الشرق الأقصى بصمات أصابعه على نفسية الكاتب وطفحت نفسيته على سن القلم فكتب أعظم أعماله عن الشرق الأقصى . وأحسن ما قرأت له من قصص قصيرة كان عن ماكاو . حكاية رجل أبيض ضاع فى المجاهل البعيدة وبعد أن كان وردة زمانه وأوانه أحب امرأة شخصيتها لامعة ونفسها صايعة واكتشف بعد فترة أنها تخدعه فهرب إلى الأفيون يدفن أحزانه فيه ، ورق له قلب امرأة صينية غلبانة فتفرغت لتمريضه وترويضه حتى مات !

ولكن ماكاو رغم أنها كانت على مرمى البصر إلا أن دخولها كان أصعب من الصعود للقمر . ويا سبحان الله الولد الثائر الماكاوى – وهو لا علاقة له بسيد مكاوى – كان شديد الثقة بأنه سيعود يوما إلى ماكاو . ولقد سبق له دخول ماكاو أكثر من مرة

وفي كل مرة كان يدخل السجن ليهرب مرة أخرى ليعود من جديد إلى سجن ماكاو ..
ومع ذلك فهو شديد الثقة أنه سيعود يوما وقد رحل عساكر البرتغال . السبب أنه نجا
بأعجوبة من مجزرة الأفيون التى تنصبها السلطة للثوار في ماكاو . ولقد روى الولد
الثائر حكاية يشيب لهولها الغراب النوحى ويموت لهولها الطفل الرضيع بالسكتة وفى
حديثنا التالى نروى لكم حكاية رجل ماكاو.

حــرب الأفيــون

كالسل يصبح الاستعمار درجات . واستعمار البرتغال - باعتبار ما كان - من الدرجة الثالثة . هذه الدولة الصغيرة ، التى كان لها فى الماضى نصف العالم بفرمان من البابا ذاته . والتى أول من بدع خطف العبيد وبيعهم فى السوق ، الدولة نفوذها تضاءل الآن ولكنها تمسك بالأظافر والأسنان على ماتبقى لها من أرض فى أرض الله . وهى لم يعد لها إلا مجموعة جزر . ومجموعة جيوب .

وأيام سالازار كانت تمارس ضد أهل البلاد المحتلة أبشع أنواع القمع ، تعلق الثوار على الأشجار .. تربطهم فى ذيول الجياد ، تكويهم بالنار ، تغرقهم فى الأنهار . ولكن أعجب وأغرب وسيلة تطبقها البرتغال فى ماكاو .. الولد الثائر الماكاوى العجيب حكى لى وعيناه تطق شرار ، كيف تمارس البرتغال تعذيبها لثوار ماكاو وفى السجون عشرات من الثوار ، وهى لاتجلدهم بالسياط ولا تكويهم بالنار .. على العكس ، هى تسحقهم بالمزاج ، وفى كل صباح يمر طبيب على الزنازين يحقن الثوار حقنة أفيون ليصبح الثائر آخر انسجام وآخر انسطال . والطبيب يمر فى كل يوم ويزيد الجرعةكل يوم . ليتحول السجين بعد عام إلى مدمن لا يستطيع أن يتحرر من الداء . وبعد أن يصبح المسجون آخر تمام ، تفتح له السلطات باب السجن ليتفضل مع التحية والاكرام ويتحول الذى كان ثائرا يوما ما إلى مدمن صايع يتجول طول النهار فى الجزيرة بحثا عن نفس يشده أو سنة أفيون يدسها تحت لسانه وينام ! وأحيانا عندما يفشل الثائر الصايع فى الحصول على الكيف اللعين يعود إلى السجن بقدميه ،متوسلا للحراس أن يسمحوا له بالدخول لينسطل وينبسط وينام ! الولد الماكاوى الثائر كان واحدا من هؤلاء اختطفته السلطة ووضعته فى السجن ، وجاء الطبيب فى الصباح ، وفتح الحارس الزنزانة ليكتشف الولد الثائر أن الطبيب شاب من أهل البلاد ، وزميل دراسة ، ولكن الشيطان وحده هو الذي ساقه ليعمل فى خدمة الطغمة الحاكمة فى البلاد . وبعد

السلام والكلام بدأ حوار بين الولد العاقل والولد العاق . حوار انتهى بأن أصبح الطبيب واحدا من الثوار .. ولكنه لم يهتف ولم يصرخ ولم يرفع شعارات . مضى سيرته الأولى بالتمام والكمال . كان يحضر كل صباح إلى السجن . وكل صباح يحقن الثوار ، ولكن بحقن فيتامينات . وعلى الثوار أن يمثلوا دور المسطول المبسوط الدايخ دوخة الكلب السعران . وبعد عام فتحت السلطة باب السجن وأفرجت عن المساجين العظام . ولكنها سرعان ما اكتشفت اللعبة عندما فر هذا الفوج من المساجين عبر البحر إلى الخارج ، ووقع أحدهم في يد السلطة ليعترف تحت وطأة التعذيب القاتل بكل شيء . أما الطبيب الثائر ، فقد ساقوه إلى السجن ، وأذاقوه من نفس الحقنة ، وهو الآن حطام بنى آدم يتسول عند الميناء من السادة السواح ثمن حقنة أفيون أو هبرة كوكايين أو نفسين يجعلوه يكف عن الصياح ! ولكن هل البرتغال وحدها هى التى اكتشفت أن الأفيون هو أقصر طريق لتدمير الثورة وتدمير أرواح الناس . لا .. لقد اكتشفها كل الذين صناعتهم الاستعمار . قبل ذلك بأعوام طويلة شنت دولة بريطانيا العظمى حربا أعظم لكى تبيع الأفيون فى الصين . والآن بلا حرب تبيع بريطانيا العظمى الأفيون لكل مستعمراتها فى الشرق البعيد ، وكذلك تفعل أمريكا هناك . ولكن الأساليب تختلف . فبينما البرتغال الغشيمة تفعل كالرجل الغشيم الذى اشترى دواء لقتل البراغيث بشرط أن يمسك بكل برغوث على حدة ثم يسقيه الدواء !! تفعل أمريكا وبريطانيا شيئا يتفق مع عصر القمر والكواكب والفضاء ، تقضى على البراغيث كلها مرة واحدة . وباللطف والظرف والتراضى والاتفاق . ففى هونج كونج مثلا ، الناس صنفان ، إما حافى لايجد مايأكله ، وإما باشا يلعب لعبا بالدولار . والثوار نبت شيطانى ، أحيانا يهب من الطبقة التى تحت ، وأحيانا يطلع من الناس اللى فوق . وما دام الاحتمال قائما أنهم يخرجون من بين الشعب ، فليحقن الشعب كله بالأفيون وليصبح الشعب كله آخر مزاج . ولذلك سترى عند الشاطىء مواخير والناس فيها على ودنه . الفقير الدقة يريد أن يهرب من هذا العالم الكئيب إلى عالم آخر بهيج ولذيذ ! والباشا الذى يلعب بالدولار يريد أن يضاعف انبساطه وأن يجعل نفسه ترلم لم على الآخر . الأفيون إذن هو لعبة الطرفين ، ولكن البرتغال تعطيه للناس بالعافية ، والانجليز



يقدمونه للناس فى قعدات طرية وعن طريق غير مباشر يجعل المدمن يتصور أنه هو الذى قرر وهو الذى اختار ! أنا دخلت ماخورا من هذا النوع أتفرج ، الناس كأهل الكهف يتعاملون بنقد ليس له قيمة هذه الأيام ، ولو كان الذى معهم عملة لهان الأمر ، ولكن معهم أفكارا أكثر قدما من نقد أهل الكهف ، وأكثر تمزقا من ملابس الرجل الشمام! ويفتح المسطول الهونج كونجى عينيه على قطع الأسطول الأمريكى تدخل الميناء ويفشخ بقه عن ابتسامة رضا وامتنان ، فهذا الأسطول الأمريكى هو الذى يحمى هونج كونج من خطر الصين ، وهو الذى يهب الحياة والخير للناس المساطيل ! فى الماخور أنا اكتشفت بنتا بيضاء أقصد كانت يوما ما بيضاء كاللبن الحليب . ثم أصبحت فى النهاية صفراء كفانلة النادى الاسماعيلى . والبنت عيناها كعينى ميت داس عليه الترولى باس .. وشعرها كشعر فريد شوقى قبل أن يستعمل الشعر المستعار ، وهى نحيفة كمعزة جعانة جوع الابل ، وهى تكح عمال على بطال ، وهى أفيونجية وسيكونالجية وشمامة تشم حتى روث الخيل وبول الكلاب ! وهى جاءت إلى هونج كونج منذ عدة أعوام . وفى البدء كانت كما الزهرة وكما الوردة . زوجها كان رجلا أبيض ولكنه مدمن قمار . وقامر بكل شىء ، ثم كف عن القمار ودخل فى زمرة التجار ، ولم يجد مايتاجر به إلا عرضها ، وعرفت الليل وأكلت أرصفة هونج كونج راقات من عقلها . ثم اختفى الزوج ذات صباح بالكنز الذى كانت تعمل لتدخره ، ثم اكتشفت أنه لم يفر ولكنه توارى عن الأنظار ، وأنه لم يكن يدخر شيئا ولكنه كان يلهف عرق عرضها ليحظى بلحظات نشوة على موائد القمار . وجنت المسكينة فعكفت فى الماخور توزع الكيف على الزبائن ، وتأخذ نصيبها من الكيف وتنام . والسلطة فى هونج كونج تعلم وتكتم وتبارك الجميع وتتمنى لهم مزيدا من الغيبوبة وكثيرا من الانسطال ! ولم تكن البنت البيضة هى البيضاء الوحيدة فى المواخير المنتشرة عند الشاطىء ، كان هناك بيض آخرون ، رجل مثل ذكر جاموس وحشى عجوز . كان يوما ما ملك شنغهاى. كل البيوت التى كانت للحظ والمزاج فى عاصمة الصين كانت تبع سعادته . وكانت حساباته فى البنوك مثل حسابات الخواجا فورد ، وكان يستورد لحما أبيض من كل أرجاء المعمورة ، ثم عبر الشيوعيون النهر ذات صباح ودخلوا شنغهاى . ليهرب

الخواجا بجلده إلى هونج كونج ولم يبق له من أيام العز القديمة إلا برنيطة مثل برانيط رعاة البقر فى سهول المكسيك وساعة جيب قديمة يقسم الرجل برأس أبيه أنها هدية من رجل صينى ثرى أمضى عنده ليلة مزاج ليس لها نظير . والرجل دائما فى غيبوبة ودائما يهذى بكلام فارغ كثير . وهو لايفيق إلا ليسطل ولا ينسطل إلا ويسأل الله ألا يفيق ! ولا يزال الرجل يحلم بالعودة إلى شنغهاى كلما فتح عينيه . وأحيانا عندما تشتد به نوبة جنون مفاجئة يخرج ليشاهد حدود الصين . ويظل يصرخ ويتوعد ويهدد ويضرب الهواء بقبضة يده المرتعشة ، ثم يعود إلى الماخور آخر سعادة وآخر انبساط .

ومع ذلك فهونج كونج ليست شرا كلها ، وليست «غم أزلى» على الدوام ، والمرء يتمنى أن يعيش فترة فى مكان مثل هذا . لا قوانين تحكمه ولا حكومة تنظمه ولا شىء يهدى الناس فيه إلا المزاج الشخصى والتقدير الفردى لما ينبغى أن تكون عليه الأمور ، كل إنسان فى هونج كونج حكومة مستقلة . التاجر مثلا يستطيع أن يرفع السعر إذا أراد وأن يخفضه إذا شاء . وكناس الشارع بوسعه أن يكنس وبوسعه أيضا أن يكف عن الكناسة فى أى وقت يشاء . والمينى جيب يختلف عن المينى جيب فى أى بلد فى العالم. وإذا كان المينى جيب فى لندن أصبح تحت الصرة بقليل ! فهو فى هونج كونج بقليل جدا ! وإذا كانت الأفلام فى باريس تعرض موضوعات تعالج الجنس ، فالسينما فى هونج كونج تعرض أفلاما جنسية . وكل شىء فى هونج كونج موجود وكل شىء مباح .. الحشيش غبارة من ايران وزيت من الهند وكبس من بيروت ! والخمور ويسكى من اسكتلندا وفودكا من روسيا وريتسينا من اليونان ! وسوق العملة يقبل أى ورقة ملونة ومتداولة فى أى مكان على ظهر الأرض .. وكل عملة ولها شبيه فى هونج كونج . لعب الأطفال اليابانية يجيدون تقليدها بالحرف ويكتبون عليها أيضا صنع فى اليابان . والآلات الألمانى يصنعونها فى مصانع النصب الهونج كونجى وعليها علامة الألمان والزبون يشترى ويدفع ثم يتبين بعد ذلك أنها نصب . ولكنه لا يتبين هذا إلا بعد أن يكون قد غادر هونج كونج . وهو عادة لايرجع ولا يعود . وكذب أن هونج كونج رخيصة رخص التراب ، ربما كانت كذلك يوما ما قبل حرب فيتنام . ولكنها الآن ولعة وأسعارها ولا أسعار باريس . السبب أنها فى كل يوم تستقبل عدة مراكب حربية قادمة من فيتنام

وعليها عساكر جاءت لتقضى أجازة قبل أن تعود لاستئناف القتال ، وهؤلاء العساكر معهم فلوس كالرز ومعهم دولارات بعدد شعرات الرأس . هى مجموع مرتباتهم خلال الشهور التى قضوها يقاتلون فيها وسط مزارع الأرز وداخل الغابات . وهم لأن الأجازة قصيرة والفلوس كثيرة ، يبعثرون النقود ولا عمدة شطانوف فى موسم القطن . وهم لأن أغلبهم يذهب ولا يعود فهم يشترون أى شيء وكل شيء .. وهم يتذوقون كل لذة حتى لذة الكيف فى مواخير الشاطيء لأنهم عندما يتركون ميناء هونج كونج يصبح لدى كل منهم شعور يبلغ حد اليقين أنه لن يعود أبدا . إن معصرة فيتنام الهائلة تأكلهم بلا هوادة وتزهق أرواحهم بلا رحمة . ولقد كان آخر من التقيت به من البيض فى إحدى المواخير شاب فى الرابعة والعشرين من عمره ، ضخم كما العون . أبله كما عم بركة . وهو زبون سقع فى الماخور . بل هو أهم زبون . وهو يأكل الأفيون ويدخن الأفيون . وهو أمريكى من تكساس . وهو عسكرى فى الجيش . وهو هربان بعد أجازة قصيرة فى هونج كونج ، لأنه رأى الموت بعينيه فى سهول فيتنام . وهو عندما ينسطل جدا يفتح قلبه بكلام كثير . وهو هربان ليس لأنه ضد الحرب بل هو معها . وهو أمريكى حتى النخاع . وهو يرى أن الطريقة الوحيدة لكسب الحرب هى القنبلة الهيدروجينية . ولكن بهذه الأسلحة التقليدية لا أمل فى شيء . فهؤلاء الصفر لاينتهون . كلما قتلت واحدا ظهر لك عشرة . وهم يقبلون على الموت بشراهة . والآسيوى الواحد يساوى عشرة أمريكان فى ساحة القتال . لأن أحدا منهم لم يجرب أن يكون له بيت وسط حديقة . وفى البيت زوجة جميلة وثلاجة وغسالة وتليفزيون ! ولذلك فالحرب بالأسلحة المستعملة الآن لا تكون لها نهاية . بل هى تنتهى عندما ينتهى الأمريكان لأن هؤلاء الملاعين لاينتهون إطلاقا، ولاوسيلة لقهرهم مثل القنابل النووية . وهو لذلك اتخذ قرارا لا رجعة فيه . فهو لن يعود الى فيتنام إلا إذا سلموه قنبلة ذرية . وهو لن يعود إلى أمريكا لأن المحكمة فى انتظاره . وهو لن يبرح الماخور لأن البوليس الحربى يتعقبه . وهو سيدخن الأفيون لأن من خلاله يرى آسيا كلها تحترق بالنار والأمريكى يغنى على أطلالها مثل نايرون على تلال روما . مثل نابليون على أبواب موسكو ! ولكنه أحيانا يبكى بشدة . لا أحد يدرى لماذا ؟ ولكنه على أية حال أسعد بكثير من الذين

ذهبوا إلى فيتنام ! لأن البكاء فى الماخور يختلف عن البكاء فى جحيم الحرب ! وهو حتما سيظل فى الماخور حتى يتحقق حلمه ، ويوما ستحترق آسيا كلها بالنار ، ولكنه لن يقف على الأطلال ويغنى بل سيبكى ويلطم على خديه بشقاقة .. حزنا على الجيش الأمريكى العرمرم الذى أكله الثوار .. ولكن حظه سعيد لأن هونج كونج ستظل إلى النهاية بعيدة عن خطوط النار . وستكون آخر قلعة تستسلم وآخر أرض تتحرر . لأن جميع الأطراف لهم مصلحة فى بقائها خارج حزام النار ، وسيتحول البارود والرصاص المنطلق فى ربوع آسيا إلى ذهب رنان يدخل جيوب بعض الناس فى هونج كونج ، ويتحول إلى دخان أفيون يدخل عقول أكثر الناس هناك .

الأســـطـول .. والـمـســـطـول

ها أنذا على باب مطار هونج كونج أعجب مطار وأغرب مطار على ظهر الأرض . الجبال تحيطه وتطل عليه وتخنقه ، والخليج هو امتداد الممر . والطيار الذى يخطىء الحساب أثناء التحليق فوق المطار سيصطدم حتما بالجبل ، والذى يخطىء الحساب لحظة الهبوط على الممر سيسقط حتما فى الخليج . لذلك فالطيران هنا ينبغى أن يكون بحساب والهبوط بحساب ، ولذلك أيضا لم تحدث حادثة واحدة فى مطار هونج كونج . لأنه عندما تكون المسألة سبهللة والبساط أحمدى ، والمطار فى العراء ومكشوف ومفتوح فلا جبال ولا حبال ومدارجه آخر امتداد فلا خليج ولا مليج . عندما تكون الأمور حلوة إلى هذا الحد يفقد الطيار الاحساس بالخطر . وفى حالة مثل هذه يحاول الطيار استعراض عضلاته ، يتشقلب ، يتمقلب ، يتدحلب ، يتسحلب ، ولكن الأمر قد ينتهى بكارثة فتتكب الطيارة على جناحها وينكب الطيار على أم رأسه .

وبالطبع تنكب شنط الركاب وينكب الذى فيها .. أما الركاب أنفسهم .. فسينكب ورثتهم على مكاتب الطيران لاستلام التعويض والتفويض والذى منه وحكمة الإله أن وسائل المواصلات مثل وسائل الحياة درجات وطبقات . فى الترماى قد يسقط الراكب تحت العجـــلات .. ويمـوت وليس فى جيبـه إلا ثمن التذكـرة وثمن رغيف عيش وسيجـارتين .. ولـكن محـامى الشركة يجـد ألف شاهد زور ، والكمسارى يستعين بألف واحد صاحبه .. والكل يشهد أن الراكب معتوه .. وأنه كان ينوى الانتحار .. وأنه سقط مرة وفشل فى الموت .. ولكنه أصر فكرر السقوط .. وأن الله أكرمه فى نهاية الأمر ففاتت العجلات عليه وارتاح وأراح .. ولولا العيب لحكموا على الراكب المقتول تحت العجلات بغرامة ، وربما جعلوه يكنس قسم البوليس عشر مرات فى الأسبوع .. لأنه لايستطيـع دفـع الفـلوس .. ويخـرج السـواق القـاتل من الجـريمة كما تخرج



الشعـرة من العجين ويظـل حـرا شاهـرا ترمايه على عباد الله فى الميـادين وفى الشوارع !.

أما فى الطيران فالأمر مختلف .. لأن الذين يركبون الطيارة هم الناس الألاجة آخر آلاطة وآخر أناقة .. فعندما تقع الطائرة تصرف التعويضات على الفور وقبل التحقيق والتدقيق ، وقد يكون الراكبَ هو المخطىء وقد يكون السواق هو المجنون . لاشىء يهم على رأى إحسان عبد القدوس .. المهم أن الألوف تصرف فى الحال .. وتنصب السرادقات على حساب الشركة وتخرج النعوش وليست فيها من الميت إلا بعض الهدوم وبعض اللحوم .. وتعازى فى الجرائد وصور فى التليفزيون !.

وأنا لأننى ذكى ولأننى خارق الذكاء فقـــد لاحظت هـــذه الملاحظـــة الذكية ، وسألت أحمد توفيق البكرى رئيس مجلس إدارة شركة الطيران العربية .. وكان معنا فى الرحْلة وهو رجل طيب لم أسمع له صوتا ولم أسمع همسا ، وصحيح أنه كان أول من يخرج من الطيارة وأول من يعود إليها ، و لكنه آخر من يأكل وآخر من يشرب وآخر من يطلب . أنا سألت توفيق البكرى لماذا فى الطيارة كل شىء فورى وفى الترماى كل شىء على مهله؟ ضحك الرجل الهادىء الطيب وقال لأن الطيارة أسرع من الترماى ! قلت لأ .. أنا أسأل ليه صحيح ؟ قال لأن الطيران لايزال وسيلة خطرة من وسائل المواصلات . الناس لم تطمئن بعد إلى الطيارة رغم أننا فى عصر الصواريخ .. لذلك ترى ناسا مهمين جدا وعقلاء جدا يفضلون ركوب المركب أو ركوب السيارة ، ولو فكر الراكب قليلا فلربما أحجم عن الركوب . هذا رغم أن حوادث الطيارات أقل من حوادث الترماى والمراجيح والصنادل . لذلك أيضا كان لابد وقت وقوع الكارثة أن تمحو الشركة المنكوبة أثرها على الفور .. فلو أن ورثة الميت فى الطيارة داخوا بين مكاتب الشركة ورفعـــوا قضــــايا أمام المحاكم فلربما وقف حال جميع الشركات ولم يركب فيها أحد !.

قلت: أليس السبب أن ركاب الطيارة غير ركاب الترماى ؟

قال : هذا نظام الطيران ولو ركب الطيارة صياع ينامون فى حديقة الاورمان !.

ولـــكن ها هو مطـــار هونج كونج والبحـــر أمامى والجبـــل ورائى . وفى البحـــر

قطع الأسطـول الأمريـكى تعوم على مياه الخليج كالدرافيل الضخمة وفى سفوح الجبال يعيش المسطول الأمريكى والصينى والانجليـزى .. آخـر أحـلام وآخر انسـجام .كأنما هونج كونج قد أصبحت مرآة العصر بكل متناقضاته .. الحديد الملتهب فى البحر والفحم الملتهب فى الجبل . وقبل أن أرفع يدى لأقول وداعا ياهونج كونج .. تذكـرت رجـلا من مصـر يعيش الآن فى الجـزيرة التى أصبحت أعجـوبة هذا العصر .

والرجل ليس سفيرا وليس مديرا ولكنه رجل على باب الله أحمد سعد سليمان من عابدين بالقاهرة وربما لاتزال عائلته هناك . كان بحارا على مركب بريطانى رست ذات مساء على خليج هونج كونج وكانت ليلة باردة وسوداء من شتاء عام ١٩٥١ ، وجاءت الأنباء عبر الراديو أن القاهرة احترقت عن آخرها ، وأن دبابات الإنجليز هدمت مدينة الاسماعيلية . وثار الجدل حول الباخرة ، البحار المصرى يتهم الانجليز . والبحارة الانجليز يتحرشون بالبحار المصرى ، وانتهى الجدل بمعركة وسقط أحد الانجليز جريحا فى المعركة ونام البحار المصرى ليلة فى سجن هونج كونج. وأقلعت الباخرة ذات صباح وليس عليها البحار المصرى . وبعد أيام كان يواجه الجوع والتشرد فى الميناء البعيد ، واضطر إلى العمل شيالا فى الميناء وصيادا للسمك على قارب صيد . وأحبت البنت التى من شنغهاى الولد الذى من عابدين .. وأحب الولد الذى من عابدين البنت التى أبوها يملك مراكب صيد . وتزوجا .. ومات الأب الذى كان يملك مراكب الصيد وأصبح الولد الذى من عابدين صاحب المراكب وأصبح له من العيال خمسة ومن البيوت ثلاثة ومن المتاجر أربعة ومن الفلوس عدة آلاف ... وأصبح الولد الذى من عابدين يرطن بكل اللغات حتى الصينى . وأصبح خبيرا بالمنطقة من كوريا إلى سيام .. وأصبح له مكتب وبالمكتب عدد من الموظفين وعدد من السكرتيرين أحدهم انجليزى من نفس جنس البحارة الذين طردوه ذات مساء فى خليج هونج كونج . ولكن الولد المصرى لايزال يحن إلى حى عابدين وشارع أبو السباع ورغم مراكب وخليج هونج كونج لايزال يتوق إلى سهـرة على مركب أمام روض الفـرج ، فليس فى الدنيـا أجمـل من مصـر ..

والمصرى يأكل وهو مرتاح.. ولكنك لكى تأكل فى أى مكان آخر لابد لك من أن تعمل حتى الموت.. وهو شغال على ودنه وكسيب تمام.. ولكن مزاجه ليس بالروقان الذى كان !ويا سلام على قهوة البرابرة فى شارع أبو السباع حيث كان يقرأ الشيخ رفعت مساء كل جمعة ومساء كل خميس .. وأبو ظريفة بتاع الطعمية فى باب اللوق .. والمالكى بتاع اللبن فى الحسين .. ويا سلام على الصياعة فى شوارع القاهرة بعد نصف الليل . المصرى يضرب فى جناح الأرض ويسوح فى أركان المعمورة ولكن لاشىء فى الدنيا يعوضه عن تراب القاهرة وعن فجل القاهرة وعن ليل القاهرة الذى ليس له نظير!

الولد المصرى الذى التقيت به فى آخر ليلة فى هونج كونج حلفنى بميت يمين وألف قسم ألا أنسى أن أقرأ له الفاتحة فى سيدنا الحسين وأن آكل له أكلة كوارع فى أى مسمط فى شوارع القاهرة .. وأن أرسل له ديوان بيرم التونسى واسطوانة للشيخ رفعت .. أما الأسطوانة فقد أرسلتها ، وأما الديوان فأنا أسأل المجلس الأعلى للفنون والآداب وأسأل السادة المتجعبذين على الكراسى فى مكاتب وزارة الثقافة على شط النيل .. أسألهم أين ديوان بيرم التونسى ؟ وهل كان بيرم التونسى «فنان أم طعمجى ؟» وفى هذه الحالة أتوجه بالسؤال إلى وزارة التموين !.

المهم أنا رفعت يدى وقلت وداعا هونج كونج .. وداعا يابلد لاتنام فى الليل ولا فى النهار .. وطارت الطائرة الضخمة ونفذت من رءوس الجبال كما ينفذ الخيط من خرم الإبرة . وبعد نصف ساعة قال الطيار «على اليمين شاطىء فيتنام» وألقيت نظرة على الشاطىء الملتهب الدامى .. هنا أكل الأمريكان علقة هزت فتوة العالم الذى خرج من قمقم الحرب العالمية الثانية .. خرج بقنابله وغواصاته وطياراته يريد أن يفرض رأيه على العالم .. أحيانا يسدى النصيحة بالدولار .. فإذا رفضها البعض أسداها بالمدفع . مبعوث العناية الإلهية لهداية الناس إلى الصراط المستقيم .. فإذا رفضوا نزل عليهم بهليكوبتراته وفانتوماته وهات ياحرق وهات يا طحن وهات ياضرب .. ولكن حظ أمريكا المهبب أنها جاءت متأخرة كثيرا .. ولو ظهرت أمريكا أيام نابليون مثلا لكانت الآن سيدة العالم .ولو كان هتلر نجح لنجحت أمريكا الآن .. ولكن هتلر كان أقوى من

أمريكا ، وشعب ألمانــيا كان مستعدا فعلا لحكم العالم .. ولـكنه سقط بفضل قوة الحلفاء .. ولكن لأن منطق العصر حكم على الامبراطوريات بالموت .. وهاهى بريطانيا العظمى آخر امبراطوريات التاريخ تتسول اليوم من كل مكان لقمة .. وها هو الجنيه الاسترلينى يتدحرج كما الجنيه الكونغولى ..

وياهونج كونج وداعا .. وأهلا بتايلاند .. أهلا بسيام . بلد الناس الطيبين والقطط الحلوين .. وعن تايلاند لنا كلام يا حضرات السادة القارئين والقارئات ..

لا أقـول وداعـا ولــكن ..!

البنت عبيطة وسحرها فى عبطها ، وعبطها جزء من حلاوتها ، وحلاوتها أنها هبلاء تبيع الجوز بمليم وتحمد الكريم المتعال على الصحة والشباب .. وعند آخر نقطة وصل إليها القارب رأينا السلطة ..

وكما كانت آسيا مفتاح السعادة والحبور للقارة المحظوظة الملنوذة أوروبا ، ستكون آسيا أيضا مقبرة هؤلاء الرجال البيض الذين قفزوا إليها عبر البحار البعيدة ليستولوا على ثروتها ويهبروا خيراتها وليتركوها فى النهاية يا مولاى كما خلقتنى ، وربما يامولاى كما قبل أن تخلقنى بزمان ! .

أغنى وأعتى قارة فى الوجود صارت خرابا ييابا يا ولداه . مزارع المطاط ، غابات الجوز واللوز ، مناجم الذهب والزمرد والياقوت ، مراعى الملايين من الرءوس . لماذا أهلها يارب عرايا كما طرزان يجد ولدا ؟ ينامون على الرصيف كما شحاتين السيدة ، يموتون بالعشرات وبالمئات وبالألوف . من الجوع ومن الكوليرا وأحيانا بلا سبب يموتون . فى بومباى مثلا جوهرة آسيا ومفتاحها . ينام الملايين على الرصيف فى الشارع . يأكلون ويشربون ويتناسلون . وبلا احتجاج يمضغون أيامهم ، كأنما هكذا خلقت الحياة ، وهكذا ينبغى أن تكون . وفى الهند يموت الملايين كل عام بالكوليرا ويموت الملايين بالجوع . وفى بورما يتساقط المئات كل يوم صرعى التيفود . وفى تايلاند بالكوليرا وبالتيفود يموتون . وفى فيتنام يموت الملايين بالجوع ويموت الملايين بالرصاص والنار وقنابل النابالم . أين إذن تذهب الخيرات والثمرات ؟.

تذهب كلها إلى أمريكا وإلى أوروبا ! كأنما نهر سحرى عجيب الشأن والشنشان يجرى من آسيا ، نهر من الذهب الخالص وفى فيضان دائم ودلتاه أوروبا وأمريكا . وهناك يرمى بخيراته وبثمراته . ولكن ممنوع على أهل آسيا أن يلقوا بأنفسهم فى النهر أو يغترفوا من ثمراته . هناك قلة فقط مسموح لها بأن تمد أيديها وتغرف ، قلة من

آسيا . الأرزقية والسماسرة ورجال السياسة والحكم وخدامين الغرب. قلة لا تأخذ من النهر الجارى إلا مقدار كوز واحد .. أما النهر كله فيذهب إلى جيوب أصحاب الملايين فى أريزونا وتكساس وأصحاب الملايين فى لندن ولاهاى وفرانكفورت . يالها من حسبة برما أيها الخلق . قارة تنتج وقارة تحصد ، ولا إله إلا الله ..

ولذلك ستبقى آسيا ولسنوات طويلة قادمة تحمل لقب قارة العجائب . وستظل آسيا هى الأرض الوحيدة التى تموت بالثعبان وتعيش بالثعبان .. لأن الثعبان فى آسيا يؤكل ويأكل .. يعض النفر فيموت أو يعكمه النفر فيشويه على النار ويلتهمه ويحمد المولى الكريم على الخير الوفير والرزق العميم ..

وستظل آسيا مرتعا لكل الخرافات ولكل الخيالات وستجد فيها من يعبد الله ومن يعبد الشيطان ، ومن يصلى لحجر ومن يركع لتمثال ، ومن يحارب ويستشهد من أجل بقرة . وستجد فيها تمثالا لبوذا من الزمرد الخالص ارتفاعه قدر ارتفاع الهرم الأصغر، ومن حوله مليون مؤمن بالتمثال فى حاجة إلى نكلة . وستجد فى جاوة رسولا جديدا أرسلته السماء اسمه أحمد بودستى صاحب دين جديد يدعو للتوحيد ! ليس توحيد الله فقط ولكن توحيد الأنبياء أيضا . وستجد فى آسيا زعيما مثل غاندى لايحتاج من الملابس إلا مايستر عورته ، ولا يحتاج من الطعام إلا ما يسد رمقه ومثل أبو العلاء المعرى لا يخشى انتقاصا ولا يرجو ازديادا وعند وفاته لا يترك إلا مغزلا ومعزة . وستجد أيضا زعيما مثل أغاخان يعيش فى الريفييرا ويعبده الناس فى بومباى وفى دكا وفى دلهى ، ويتزوج أحلى وأشهى النساء . ويزن نفسه كل عام بالمجوهرات والأحجار الكريمة ، ويموت تاركا ملايين الجنيهات مبعثرة بين بنوك العالم . وستجد مع هؤلاء زعيما مثل ماوتسى تونج يؤمن بأن القوة هى الحل الوحيد لمشاكل آسيا ومآسى آسيا ..

ولذلك سيجند جيشا من الشعب كله ليهزم بالبنادق والفئوس كل أسلحة وتكنولوجيا الغرب ، وليضرب فى الصميم مبدأ استعماريا .. آسيوى ضد آسيوى .. وليفرض على أمريكا مبدأ جديدا هو أن تأتى بنفسها لتحارب فى آسيا . وهو المبدأ الذى جربته فى

كوريا وأكلت فيها علقة ولا حرامى فى مولد .. ثم جربته فى فيتنام وأكلت علقة ولازنديق فى جامع شركس ..

وإذا كان غاندى قد ترك الحب والود والذكر الحسن . واذا كان أغاخان قد ترك ثروة فى البنوك لاتقدر برقم ، فقد ترك ماوتسى تونج أثره فى آسيا .. فهو الزعيم الذى على نمطه يخرج الزعماء الآن فى القارة العظيمة وهو صاحب الطريقة المادية التى تحظى باهتمام وإعجاب الملايين من شعب آسيا . وفى آسيا ستجد أمريكا هناك . وستجد أيضا كل أوروبا . حتى بلد الجبنة الحلوم واللبن الرايب هولندا لها مستعمرات فى آسيا .. حتى البلد الخنفسة البرتغال .. ستجدها مستقرة وفى راحة ويادى النعيم اللى انت فيه ياقلبى .. وستجد مشاكل لا حل لها ابتكرها عقل شيطان أبيض .. ولكن أغرب وأعجب مشكلة .. هى مشكلة البلوش .. والبلوش شعب كامل متكامل قسمته بريطانيا إلى ثلاثة أجزاء .. جزء للباكستان .. وجزء لافغانستان .. وجزء لايران .. وستجد البلوش الذين يتبعون إيران كلهم مسلمين سنيين وإيران كلها شيعة . وستجد الجزء الذى مع باكستان مسلمين شيعة ومسلمين سنة .

ولذلك وجد الشعب نفسه غريبا هنا وهناك .. ويهاجر بالملايين ليمارس أحط وأحقر الأعمال .. وليتقاضى أقل الأجور .. وكما المدرس المصرى الذى يعمل فى الكويت حين يعود يشترى المرسيدس ، أيضا ستجد الرجل البلوشى حين يعود إلى بلده يشترى الحمير .. لأن الحمير لها سعر فى بلاده أما البنى آدم .. فلا حول ولا قوة إلا بالله .. وستجد مستعمرة مثل هونج كونج لاسيد فيها إلا الدولار ولا حاكم لها إلا الجنيه .. وتستطيع أن تشترى فيها كل شىء وأى شىء وعلى رأى عبد الرحمن الخميسى تستطيع أن تشترى الحذاء والنساء والشنب .

وستجد جزيرة مثل تايوان صارت من نمور العصر لها مقعد دائم فى مجلس الأمن .. وفى مانيلا مثلا ستجد فيلبينى رقيع يبيع الأعراض مقابل دولار واحد فى الساعة .. وعلى بعد كيلو متر واحد من العاصمة ستجد فيلبينى عظيم يستشهد فى سبيل حفنة من تراب الأرض .. وستجد مطاعم مثل مطعم مكسيم فى باريس ، ومطاعم أخرى تبيع الدود المسلوق .. وستصادف مدخنين يدخنون السيجار ، وآخرين يدخنون أوراق الشجر .. ومواطنين بطيلسات وقلبقانات .. مركوبهم الفيل ومشروبهم لبن الماعز

ومأكولهم الديوك الهندى والفراخ الجاوى .. ومواطنين ملبوسهم رداء آدم ومأكولهم ماتعثر عليه اليد .

ولقد عشت دهرا طويلا أحلم بآسيا وأنهار آسيا التى تفيض أحيانا بالذهب وتفيض أحيانا بالدم .. بمزارع آسيا التى على مدد الشوف .. بمعابد آسيا التى جدرانها ذهب وسقوفها فضة ودرجات سلالمها ألماظ .. بغابات آسيا التى تزخر بالجوز .. التى المانجة فيها شيطانى .. والموز فيها يطحنوه للعيش .. ولقد قدر لى أن أدخل غابة فى آسيا ولكنها غابة ولا كل الغابات .. ونهر الميكونج العريق الشهير الذي ينحدر من فيتنام عبر أراضى تايلاند يتفرع بعد العاصمة بانجكوك ليصبح عدة قنوات تخترق الغابة .. وهذه القنوات صالحة للملاحة عدة أميال ثم تعود القوارب من حيث أتت عندما تبدأ أغصان الغابة تتشابك وتتلاحم وتبدأ مملكة الظلام .. وعلى ضفاف القناة أشجار فى حجم أشجار أم الشعور .. ولها شعور مرخية وأوراق مثل اللحاف .. وأحيانا تتأرجح الكوبرا من بين الفروع .. وأحيانا يصرخ قرد شقى أو يموت ذئب صايع على بعد أمتار من القارب الدايخ دوخة دلال يبحث عن ولد تايه ياولاد الحلال .

ولكن لا القرد ولا الذئب ولا الثعبان يمنع أولاد الغابة من القفز فى طين القناة ليسألوا السواح بات لله ! والبات عملة كل عشرة منها تساوى نصف دولار .. ولن أنسى أبدا منظر امرأة فى التسعين من عمرها تركب «خبص» وهو اسم القارب فى تايلاند .. وهى تستعمله كمعدية لنقل الأهالى بين الضفتين .. المرأة العجوز الدردبيس على رأى عمنا الشيخ طاهر طيب الله ثراه .. حفرت السنون الطويلة على وجهها قنوات وأنهارا وبحارا .. ولم يبق من شعرها شىء إلا ذكريات .. ولم يبق من عينيها شىء إلا ما يجعلها ترى الغابة طشاش .. ولو برزت للعبد لله ذات مغربية لظننتها غولة عجوزة زجرها الغيلان الشباب .. وعندما شعرت المرأة العجوز بوهج لمبات التصوير غطت وجهها بيدها ربما خجلا أو ربما زهدا فى الشهرة والانتشار .. ولكن بنت غاباتية - نسبة للغابات - تبيع على الشاطىء الجوز والأناناس .. جعلتنى أهم بمغادرة الخبص لأقول لها أنا وراكى كظلك .. وأنا قتيل المحبة والهوى والغرام .. بنت أشهد ليس مثلها فى لندن ولا فى باريس ولا فى كان ! البنت كانت فى مايوه من قطعة ونص . جلدها

مشدود مثل طبلة قنزيع فنان الجيزة المشهور .. عيونها تضرب شرار .. دمها شربات.. رموشها سيوف . صدرها حراب بطنها عجين خمران . ولو سرحت البنت فى شوارع بانجكوك لأصبح لها عمارة بأسانسير وبواب .. ولو جاءت القاهرة لأصبحت بطلة فيلم عزيزة المتعة من إخراج المتع حسن أبو دراع .. ولكن البنت عبيطة .. وسحرها فى عبطها .. وعبطها جزء من حلاوتها .. وحلاوتها أنها هبلاء تبيع الجوز بمليم وتحمد الكريم المتعال على الصحة والشباب .

وعند آخر نقطة وصل إليها القارب رأينا السلطة .. والحكومة هناك ثلاثة رجال بطراطير مثل طرطور عفريت الليل .. معهم بنادق لم تنطلق منذ أن صنعت .. الرجال الثلاثة جاءوا من العاصمة لحفظ الأمن .. ولكنهم هم أنفسهم لايحسون بالأمن .. وهم هنا باسم القانون مع أنهم فى حاجة إلى قانون لتسوية حالاتهم .. ولكنهم رغم ذلك أحيانا يستخدمون البنادق باسم القانون والنظام .. ومع ذلك فوجودهم هنا مثل عدمهم .. لأن الحكومة .. لا تسيطر على الغابة .. ولكن الغابة تسيطر على الحكومة .. ودائما تهب الرياح من داخل الغابة لتقتلع الحكومات فى آسيا .. ففى الغابات تنبت وتترعرع وتزحف الثورات . والثوار مظاليم يشقون طريقا لأنفسهم فى الحياة بالبندقية بحثا عن العدل .. وهؤلاء الحراس مظاليم أيضا ومعهم بنادق .. ولذلك غالبا مايزحفون مع الثوار .

وفى غابات تايلاند تدوى طلقات الرصاص أحيانا . ولكنها لاتزال فى البداية .. ومع ذلك فمع كل طلقة رصاصة تسقط قلوب القادة الأمريكان فى حلف جنوب شرق آسيا .

وتعجب معى كيف أن قارة عظيمة إلى هذا الحد .. ليس فيها لغة واحدة حية .. ولا أدب يؤثر .. والهندى لا يفهم الهندى ولذلك يتخاطب الاثنان بلغة المستر تشرشل .. والتايلاندى ساكن العاصمة لايفهم التايلاندى ساكن الريف . والهونج كونجى لايفهم الماكاوى .. والسنجابورى لا يفهم الاندونيسى .. ومن عجائب الحياة أنه كان فى العالم خمس دول عظمى .. ثلاث من أوروبا ورابعتهم أمريكا وخامستهم جزيرة فرموزا .. ولكن الصين ليست عظمى ! والهند دولة عظمى فعلا .. وأندونيسيا لها مقومات الدولة العظمى .. واليابان عظمى بدون أى شك ، وباكستان تستطيع أن تصبح دولة عظمى .. ولو فى العالم عدل قدر مافيه من جوع .. لأصبح لآسيا خمسة مقاعد دائمة فى الأمم



المتحدة .. ولكن آسيا العظيمة تظل صايعة وأوروبا الصايعة تحتل مركز العظمة .. ولو عدلت الحياة أكثر لأصبحت فيتنام دولة عظمى ولأخذت هولندا على قفاها .. ومع ذلك فهذه الأوضاع التى هى أمنيات الآن ستصبح حقائق بعد عشر سنوات .. وإذا كانت الدنيا تدور .. فهى تدور الآن فعلا لتقف على مؤشر آسيا .. آسيا التى قطعتها فى ١٨ ساعة طيران و ١٨ يوم لف ودوران و ٨٠ قرشا فى اليوم وخرجت منها بأربعة أصدقاء .. بنت يابانية تعيش فى طوكيو وتعمل فى شركة طيران .. ونحيلة مثل عصا الخيزران ، ونهمة لا تشبع .. ورجل صايع فى هونج كونج .. يهرب من ضباب الحياة إلى ضباب الأفيون ويطل من قمة الجبل على الميناء بجسد نصف عارى ونصف مكسى ،. وعين نصف مفتوحة نصف مغلقة .. وعقل نصف تايه نصف عاقل .. ويحلم بيوم لن يكون له وجود أبدا .. ورجلان من تايلاند .. أحدهما كان فى القاهرة لمدة طويلة .. ولايزال يعيش رغم البعد فى حوارى الحسينية ويشم فى خياشيمه رائحة الطعمية .. وعلى طرف لسانه طعم شاى الفيشاوى .. والملوخية بالتقلية .

رجل رحل من مصر قبل الحرب ليقطع آسيا كلها مارا بغزة ويافا والقدس وبيروت والعراق وإيران وافغانستان والهند وبورما وتايلاند ، الشيخ شرف الدين واسمه الرسمى طالا مالاسالا .. لأنه هكذا كتب على المسلمين فى تايلاند أن يخفوا أسماءهم وأن يعبدوا الله فى صمت .

ورجل آخر سأحتفظ باسمه .. لأنه يعيش فى العاصمة وقلبه فى الغابة .. وهو يربح النقود ليجمع البنادق .. ويوما ما سينحدر عبر النهر وضد التيار ، ليحاول إعادة صياغة الحياة عن طريق البندقية .. وإذا كانت مشاكل آسيا مستعصية فالبندقية هى الحل الوحيد والأكيد .. ويوما ما سأعود إلى آسيا .. ولكنها عندئذ ستكون أرض السعادة والورد والحب . وسيحل الفن محل الكوليرا .. والنقود محل التيفود .. ولن يكون الثعبان آكل ومأكول فى آسيا .. سيكون مكانه المتاحف والمعامل وحدائق الحيوان .. ولكن حتى يتحقق ذلك أرجو من المولى الكريم أن يحيينا وإياكم إلى ذلك العام .. ويا آسيا الثمينة الحزينة .. لا أقول وداعا ، ولكن سلام .. وإذا كان فى الشرق البعيد جراح فلدينا فى الشرق القريب جراح .. ويوما ما سنلتقى ولكن بلا جراح .

بســـاط الريـــح

عبرت المحيط فى طائرة عملاقة ، وفيها كسفينة نوح من كل زوجين اثنين ، البشر والكلاب وحتى صنف القطط أيضا ، وقطعت المسافة من لندن إلى واشنطن فى ٨ ساعات أكلت خلالها ونمت واستيقظت وتحدثت مع جارتى فى الطيارة ، وهى انجليزية متزوجة من أمريكى ، قالت إنه كان يعمل فى إنشاء مشروع تليفزيون فى إحدى العواصم العربية ، وفى الوقت نفسه كان يعمل فى خدمة المخابرات الأمريكية . قالتها جارتى ببساطة ، قالتها دون فخر وبلا خجل . فهكذا الحياة فى أمريكا ، بسيطة والبساط أحمدى ، فلا أسرار ولا أحراز وإنما كل شىء مكشوف وعلى البهلى وعلى عينك ياتاجر، فاجتماعات الحكومة مذاعة واجتماعات الكونجرس على الهواء ، والأمريكان بشر لهم مضمون أوروبى ومزاج عربى والطيارة نفسها كسوق الثلاثاء ، واحد واقف وواحد نايم وواحد قاعد آخر حلاوة وآخر انسجام .. ومنذ خمسين عاما بالتمام والكمال قطع المحيط طائرا أول إنسان من بنى آدم على متن طائرة صنعها بنفسه فى ورشة متخصصة فى ميكانيكا السيارات وقطع المحيط فى ٢٧ ساعة ، وغلبه النوم فنام ، وهبط بطائرته على سطح الماء يسأل الصيادين أن يدلوه على طريق ايرلندا وكأنه مسافر من شبلنجا إلى كفر أبو جاموس . وعندما هبط بطائرته فى مطار باريس دخل استراحة المطار ليشرب عصير برتقال ، ثم اكتشف فجأة أن باريس كلها كانت فى انتظاره ، وأن الدنيا كلها كانت تتابع خطواته ، وتترقب أخباره ، فقد حقق الرجل معجزة ، ودخل التاريخ من خلال الفضاء وعلى جناح الريح ، وهى معجزة حققها بعد ذلك ملايين من بنى آدم حتى المقعد وحتى الجبان وحتى العجوز الذى لايقوى على الوقوف. وهكذا الحياة تحتاج فى البداية إلى رائد . فقط ليفتح الطريق ويصبح الرائد بعد ذلك بطلا ، والعمل الذى أنجزه يصبح معجزة ، ثم تتضاءل المعجزة بعد ذلك فتصبح مجرد تذكرة يقطعها المسافر ، ومقعد يحجزه فينام فى أمان الله ، بينما

الطائرة الجبارة تقفز به من شاطىء إلى شاطىء قاطعة عدة ألوف من الأميال ، فوق بحر الظلمات الذى خلع قلوب أجدادنا وجعلهم يحجمون عن ارتياده ، فقد تصوروه بلا نهاية وبلا شاطىء . وأنا نفسى مرت على لحظات خيل إلى فيها أن الطائرة ضلت طريقها ، فليس تحتنا إلا سحب ومياه ، وليس فوقنا إلا فضاء بلا حدود ، وليس فى طريقنا معالم ، وليس على دربنا آثار ، ولكن ما أغرب العقل البشرى وما أعجبه . قهر الفضاء وما بعد الفضاء أيضا وصار بساط الريح حقيقة ثم تجاوز بساط الريح وامتطى بساط الفراغ لأنه فى الفضاء الكونى لايوجد ريح ولايوجد هواء وليست هناك جاذبية ولاشى هناك على الاطلاق إلا الفراغ والسكون والعدم ، ولكن تبقى هناك حقيقة مؤكدة ، هى الانسان وخالق الانسان سبحانه جل شأنه ما أعظمه !! .

❑❑❑

وفى بروكلين بنيويورك حيث يسكن اسبان وزنوج وجالية عربية ، رأيت شوارع ولا شوارع الجيزة ، ومجارى ولا مجارى شبرا ، وحفرا ولا حفر شارع سوق السلاح ، ورأيت زبالة ولا زبالة القاهرة ، وبيوتا ولا عشش التركمان ، وشاهدت على الرصيف نصابين يلعبون الثلاث ورقات ، ونشالين يترقبون فريسة ، وحشاشين يدخنون الماريجوانا ، وتجار هيروين ولا تجار الباطنية ، وعساكر بوليس متواطئين مع الجميع ، وليس هذا الحال وقفا على بروكلين فقط ، ولكنها حالة عامة موجودة أيضا فى منهاتن وفى كوين ، وفى لونغ ايلند ، وفى ركن من نيويورك معقل بنك تشيز منهاتن وروكفلر وجميع أصحاب الملايين ، وياليت الحالة وقف على نيويورك وحدها . ولكنها حالة عامة تشمل واشنطن وفيلادلفيا وبتسبورج وبافالو . وكل المدن الأمريكية التى شاهدتها حتى الآن . ولكن أعجب شىء أن الأمريكيين لايخفون الحال المايل ولا يمنعون الأجانب من التصوير وهم لايخجلون ولايبررون ولا يحاولون اقناعك بأن هذه الحالة من مخلفات حكومة كارتر والعهد البائد وأن العهد الحالى حريص على ابدال الحال فى ظل سيادة الرئيس ريجان وعهده السعيد .

فالأمريكى إذا لفت نظره إلى كل هذه الأزبال والأوساخ والمآسى فى أمريكا ، قال لك ببساطة هذه هى أمريكا وشوارعنا تمتلىء بالزبالة وفضاؤنا يضيق بالأقمار

الصناعية والصواريخ .. وفى بلادنا كلما وثب رئيس على الحكم علق كل السيئات على شماعة الرئيس السابق ، وبرر كل الأخطاء بأنها من صنع سلفه الراحل ويبقى فى الحكم مائة عام ويبقى على تصميمه ، بأن كل الوساخات من صنع أسلافه بينما هو لم يفعل إلا كل شىء عظيم .

والفرق بيننا وبينهم أن الحكومة عندهم متواصلة ومتتابعة وكل حكومة منها تحمل الشعلة من الأخرى ، وتندفع على الطريق ، ورؤساء أمريكا السابقين لهم نفس الهيلمان ونفس الاحترام ونفس التقدير وليس هناك عهود بائدة ولا عهود جديدة سعيدة . فكلها جزء من تاريخ أمريكا ، وكلها حاولت وعملت وسواء فشلت أو نجحت فقد كانت تسعى لخدمة أمريكا وشعبها الكبير .

وليس هناك مواطنون مشردون لأنهم كانوا يعملون مع الحكومة التى ذهبت فالحكومة ثابتة ودائمة ولا تتغير ولا يتغير إلا أعضاء الإدارة العليا وحتى هؤلاء يستدعون للخدمة أحيانا لأداء بعض المهام عندما تتأزم الأمور لأن الحكومة عندهم تكليف لا تشريف . وهى خدمة وليست سيادة ، وهى فى النهاية وظيفة وليست هبة يمنحها الله لمن يختارهم من عباده الصالحين ، ولعل هذا هو الفرق بين أمريكا وبين بعض دول العالم الثالث ففى أمريكا حكومة، وفى البلاد إياها «عكومة» مهمتها الوحيدة «عكم» الشعب وتأديب وتهذيب وإصلاح المواطنين ..

والتقيت فى نيويورك بولد مصرى يبيع الطعمية فى شوارع منهاتن ، ورأيت ولدا فلسطينيا يبيع الحلوى على شواطىء كاليفورنيا ، واجتمعت بعشرات من العرب فى الولايات ، تجار وموظفين ورجال أعمال وطلبة وصياع متشردين ، ومع ذلك ليس لنا نفوذ فى أمريكا ، وليس لنا حضور وإن كان لنا وجود ، وفى المقابل النفوذ اليهودى ظاهر وموجود وحاضر أيضا وهم دائما فى حالة تحفز واستعداد لانتهاز أى فرصة للإساءة للعرب ، مثلا عندما اعتدى الولد التركى محمد على أغا على بابا روما ظهر أكثر من ثرى يهودى على شاشة التليفزيون ليعلن للمشاهدين أن الولد التركى على علاقة بمنظمة التحرير ، وبالطبع لم يكن هناك حاجة لظهور هذا العدد من اليهود فى برنامج إخبارى يتناول موضوع الاعتداء على البابا ولكنه النفوذ اليهودى على كل محطات التليفزيون فى الولايات ، فاليهود أصحاب مصالح ضخمة وهم ينفقون ملايين

الدولارات للاعلان فى التليفزيون فإذا جاءت فرصة لسب العرب انتهزوها على الفور وفرضوا أنفسهم واتهمونا بالارهاب والجنون وقلة الحياء والدين .

وأعجب شيء أن اليهود فى أمريكا كالبنيان المرصوص كل منهم فى خدمة الآخر وكلهم فى خدمة الجالية ، والجالية كلها فى خدمة اسرائيل . ولكن حرب البسوس قائمة فى أمريكا بين العرب بعضهم البعض ، إذا نجح أحدهم حاولوا أن يهدموه وإذا لمع أحدهم أجهدوا أنفسهم ليطفئوه ، وبعضهم ترك العرب ومشاكلهم وراء ظهره وذهب فى المجتمع الجديد ، وهذا البعض أصبح أمريكيا أكثر من الأمريكى ، وكارها للعرب أكثر من اليهود وحتى أسماءهم تخلوا عنها ، وتحول محمود الى مودى وبديعة إلى «بادى» وجمال إلى «جيمس» وعبيد إلى «إيدى» ووكستنا عريضة اذا لم يقم تنظيم عربى قوى برعاية الجالية العربية فى أمريكا ووقف التدهور الذى أصاب العرب على الساحة الأمريكية .. ونفخ الروح العربية فى الجثث التى ماتت ولم تدفن بعد ، وأعتقد أننا نحن العرب لا ينقصنا المال ولا الهمة ولا الرغبة فى انقاذ شعبنا فى أمريكا ، وهو علاوة على ذلك عمل من شأنه أن يُرضى الله.

❑❑❑

كلما رأيت عربيا فى الخارج اجتاحنى السرور ، كلما ناقشتهم ركبنى الهم ، فنحن فى الواقع لانخرج من بلادنا ونعيش فى الخارج ولكننا نهاجر الى الخارج ونعيش فى بلادنا ، نطبخ طعامنا الذى تعودنا عليه ونبحث عن الدخان الذى اعتدنا تدخينه ونتحدث فى نفس المواضيع التى كنا بدأناها فى بلادنا ولم نحسم النقاش فيها بعد ، ونحن لانذهب إلى الخارج كعرب ولكننا نخرج كقبائل وعشائر ونستأنف الحرب التى كنا قد بدأناها فى أرضنا . واذا لعبنا فى الخارج لانلعب كفريق ، ولكننا نلعب كشيع ونحارب من خنادق مختلفة ومتنازعة ، ونطلق من خطوطنا على خطوطنا ، ولذلك نخسر الحرب دائما لأننا نتقابل فى الساحة كفرق مختلفة بينما يحتشد أعداؤنا كفرقة واحدة ، ونصطف نحن تحت راية واحدة ، ونتكلم بمائة لسان ويتكلم أعداؤنا بلسان واحد ، وكل منا يعرض قضية العرب من وجهة نظره ، ويستعرض الأمور بمفهومه الخاص ، ولذلك يشك كثير من الناس فى الخارج أننا بالفعل أمة واحدة . فكل منا على حق وبقية العرب على باطل ، وكل منا بطل والآخرون جميعا خونة ، وكل منا فى جيبه مفتاح حل

القضايا ، بينما الآخرون يعرقلون الحل ويقفون عقبة فى طريق الخلاص من المشاكل كلها ، وكل منا فى يده حل القضية بينما الباقون يسترزقون من بيع القضية ويتاجرون بها .. وفى اسرائيل مائة حزب ومائة جماعة دينية ومائة مذهب ومائة ألف زعيم ولكنهم إسرائيليون جميعا فى الخارج ولهم وجهة نظر واحدة ، وهم ينفقون مائة ألف جنيه لتشويه العرب ويحققون نتائج باهرة ، ونحن ننفق ملايين الجنيهات ولا نحقق أى نتائج على الإطلاق ، لأننا ننفق أغلبها فى تشويه بعضنا البعض ، وفى تسفيه آراء الذين يختلفون معنا ..

ومصيبة العرب الكبرى أنهم لايرون فى الألوان إلا الأبيض والأسود فقط ، فإما أنت على طريقنا وإما أنت على طريق الخيانة ، وأنت إما بطل وإما خائن وإما شهيد وإما عميل . ناقشنى أحدهم فى مدينة أمريكية على الحدود الكندية ، كان يعلم كل شىء ولديه كل الأسرار وتحت يده كل الملفات فالصحفى فلان عميل للمخابرات المركزية ، والزعيم فلان جاسوس انجليزى ، والقائد فلان من رجال المكتب الثانى الفرنساوى ، والناس كلهم أولاد كلب وعملاء ومأجورون ، وليس فى الوطن العربى أبطال إلا هذا السيد نفسه والشرذمة التى ينتمى البطل إياه إليها .. مأساة ليس لها مثيل وكارثة ليس لها نهاية ، ومصير أسود من الليل البهيم ، وهى حرب بسوس جديدة بين كل واحد فينا ضد كل واحد منا . ويوم مثل يوم داحس والغبراء أو هو أغبر من ذلك إذا لم نترك عشائرنا ونهجر قبائلنا وننزح عن مضاربنا ونصبح جميعا كما نزعم أمة واحدة .. «كانت» خير أمة أخرجت للناس .

❑❑❑

والتقيت أستاذا مصريا فى جامعة كلورادو، يحمل جواز سفر أمريكيا وهموما مصرية ، وهو يعيش فى أمريكا وقلبه مع مصر المحروسة وعينه عليها ، وهو حاول فى العام ١٩٧٣ أن يهاجر مرة أخرى إلى بلاده لعله يجد لقدمه مكانا تحت الشمس ، أو يعثر على قناة يستطيع النفاذ منها إلى تحقيق أهدافه ، وقضى فى القاهرة شهورا يشرح للجميع نواياه ، يعرض عليهم خبرته ودراسته ، كان يريد أن يحقق طفرة فى فن المكتبات ، فمكتباتنا ليست إلا مخازن للكتب ومطاعم للفئران ، ولدينا كنوز ولكننا لا ندرك قيمتها ، وعندنا عصير عقول الأجيال ولكننا نتركه يسيل من بين أصابعنا ،

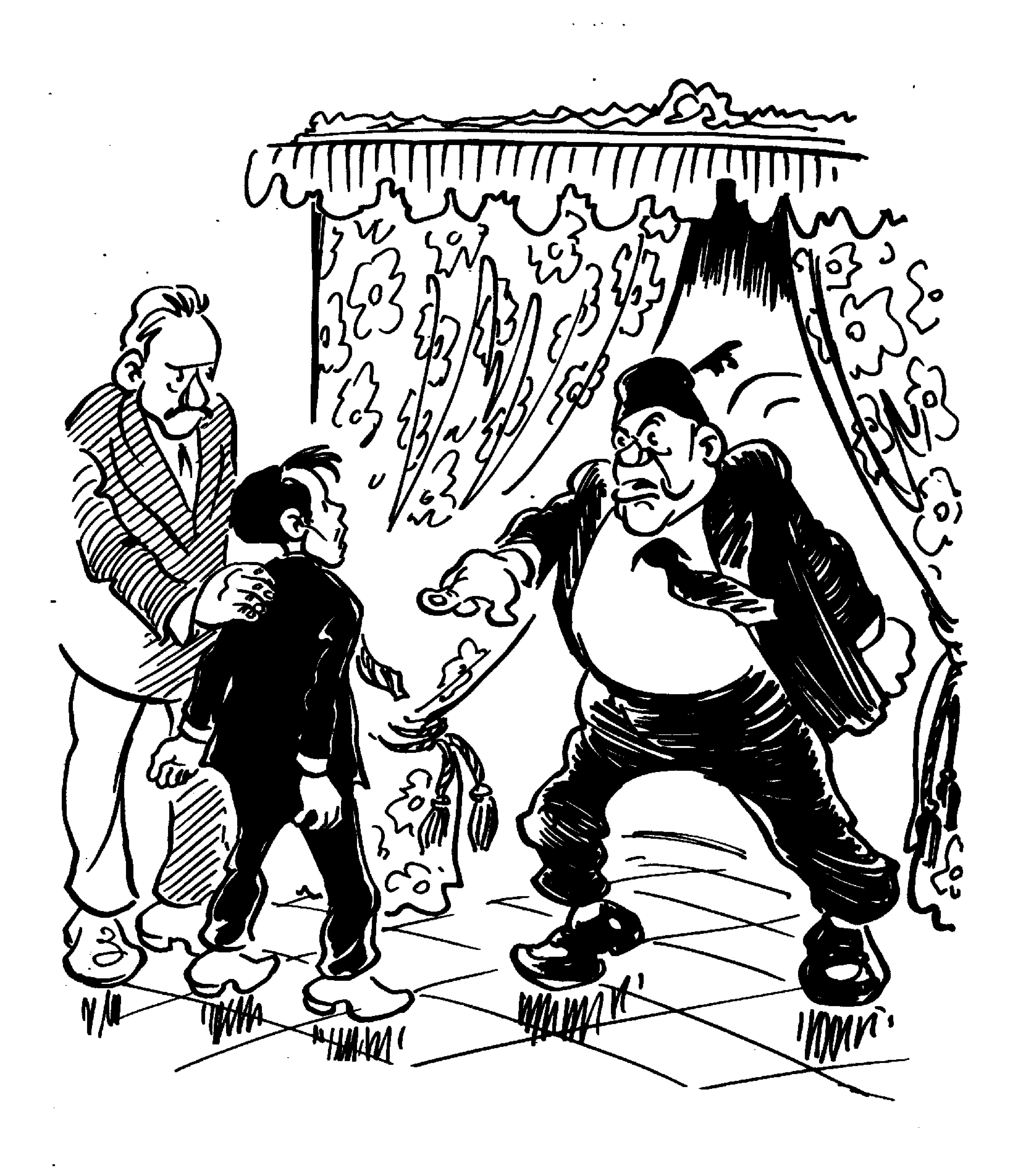
ونطالب بالتنظيم ولكن أحدا منا لا يسعى إلى ذلك ، وجميعنا نرفض الحال المايل وكل فرد فينا مشترك فى صنعه ، واستمع إليه الجميع . الوزير والوكيل والمدير وحتى الفراش والبواب والمواطنون جميعا أصغوا إليه واندهشوا من حديثه . ووافقوا عليه ولكن أحدا لم يتحرك ليعرض عليه مشروعا أو يفتح له بابا ، استمعوا فقط ثم انفضوا وعادوا إلى النوم والاستمتاع بأحلام المستقبل الزاهر اللذيذ .

وحمل الرجل متاعه وأولاده وعاد من جديد إلى أمريكا ، ليعطيها علمه وخبرته وتعطيه جنسيتها وكافة حقوق المواطنين .

وقصة هذا الأستاذ تتكرر فى كل أنحاء الولايات المتحدة . مصريون ولبنانيون وسوريون ومغاربة وتوانسة ويمنيون .. وإلى متى . يستمر نزيف العقول هكذا ومن المسئول ، وكيف نمنع هذا الدمار ، لأمة كانت يوما منبع النور وإشعاع الحضارة للعالمين . إنها مأساة بحاجة إلى دراسة ، ومصيبة تحتاج إلى بحث ، ومعركة تحتاج إلى قائد عظيم ، خصوصا وأن من بين هؤلاء الأساتذة من أفنى عمره فى دراسة الذرة وفى اكتشاف الفضاء وفى ابتداع نظريات جديدة فى الطبيعة ، وفى الفيزياء وصناعة الطائرات وتطوير الصواريخ ، وإذا استمر الحال على هذا المنوال فلن يعود إلينا إلا عباقرة النحو العربى ودكاترة الفن الشعبى وأساتذة علم الاستيراد والتصدير وعندئذ سنكون أول أمة فى التاريخ أبطالها هم كباتن كرة القدم وعلماؤها هم الذين يبحثون فى خفايا السيرة الهلالية وتفاصيل مأساة عزيزة ويونس ومفكروها هم الذين قتلهم الفكر من شدة الديون وإلحاح الدائنين ! .

❑❑❑

والتقيت ولدا مصريا اسمه برعى يعمل أجيرا فى مطعم صغير فى كاليفورنيا ، وعندما علم بأننى من مصر رفض أن يتقاضى الحساب ، وجلس يتكلم معى بعربية مكسرة وعلى الطريقة الأمريكية ، قال لى الواد المصرى - أى المصرى - الأمريكى ، إنه جاء إلى أمريكا منذ عشر سنوات وكان عمره عشر سنوات ، وعندما بلغ الثامنة عشرة غادر منزل والده ، وعاش بمفرده مع بنت مكسيكية ، وهو يعمل ويدرس أيضا ، ويحلم بالعودة إلى مصر يوما ما وإلى حى «شربا» - يقصد شبرا - حيث يعيش أقرباؤه هناك .



والتقيت بنتا فلسطينية فى الخامسة عشرة من عمرها فى ولاية أوهايو ، أبوها فلسطينى يحمل جواز سفر أمريكيا ، وأمها أمريكية ، وهى تعرف من اللغة العربية عدة كلمات لاتزيد على أصابع اليد الواحدة ، ازيك وكويس وشكرا وصباح الخير ، وهى آسفة على ذلك وحزينة أيضا ، وهى تضع علم فلسطين على صدرها دائما ، وتستمع إلى الأغانى العربية ، وتأكل الفول والطعمية والملوخية أيضا .

وقابلت فى ديترويت جمعية مكونة من ثلاثين من الشباب العربى اسمها جمعية عبد الحليم حافظ ، وهم يجمعون صوره من الصحف التى تقع فى أيديهم صدفة ومن بعض الأصدقاء .

ورأيت بعض العرب يزرعون الملوخية فى حدائقهم الصغيرة ، ومصريين يبيعون فى الشوارع الخلفية فى أوقات الفراغ ، ولمست حركة عربية عامة فى شوارع أمريكا ولكنها ليست منظمة وليست مركزة فى خدمة قضايا العربى والعروبة ، فى ديترويت مثلا يمكن للعرب لو اجتمعوا على رأى واحد أن يتحكموا فى انتخابات عمدة الولاية ، بل هم يستطيعون الوصول بمرشحهم إلى هذا المنصب ، وحتى فى نيويورك ستجد العرب فى مصالح كثيرة .

وفى بروكلين حى بأكمله للعرب ، والكتابات العربية تغطى جدران الشوارع وواجهات المحلات ، وأصوات أم كلثوم وعبد الوهاب وناظم الغزالى تتصاعد فى سماء بروكلين وتملأ الآذان ، ورائحة الكباب والكفتة تعبق فى الجو ، وفى بعض المطاعم تستطيع أن تدخن الأرجيلة الشامية ، والمعسل المصرى أو تشرب العرق الزحلاوى وأشياء أخرى أيضا وارد زحلة ولا داعى للافصاح .

ولدى اقتراح لدول الخليج أن تهتم بإنشاء بعض المساجد فى بعض الولايات ، ويتولى التدريس فى هذه المساجد بعض رجال الدين ، وبعض المدرسين فى المدارس العربية الأمريكية ، وحتى لاتتكرر حكاية «شربا» يعنى شبرا واسكندرونة بدل اسكندرية، وحتى لاتظهر لدينا لغة عربية جديدة بعد عشرين عاما ، وتصبح لدينا مشكلة اسمها مشكلة اللغة البرعية نسبة إلى النحوى العلامة برعى المعر يكى الذى التقيت به فى ولاية كاليفورنيا .

حكمة السنين

أروج مهنة فى أمريكا هى مهنة الطب النفسى ، وأغنى الناس فى أمريكا الآن هو الطبيب النفسانى ، ويتزاحم الناس حول عيادات هؤلاء الأطباء ويحجزون موعدا بشق الأنفس ، ويرتمى الواحد منهم على السرير فى غرفة الطبيب وينقلب فى بكاء عنيف ويظل يبكى ويصرخ ويلطم ويقص الحشايا والوسائد وأغطية السرير ، ثم ينهض وقد ارتاحت نفسه ، وارتخت أعصابه ، ويذهب بعد أن يحجز لنفسه موعدا فى الأسبوع التالى لكى يعاود نفس القصة من جديد ، وتسأل .. طيب لماذا لايذهب المريض إلى بيته ويبكى إذا أراد البكاء ؟ لماذا عيادة الطبيب النفسى ؟ ولماذا يدفع ربع دخله أحيانا من أجل ساعة بكاء وعويل ، ولا أحد فى أمريكا يعرف الجواب بدليل أن الساقية لاتزال تدور والحكاية لا تزال تتكرر ، الأمريكى يبكى والطبيب يقبض ، والحياة تمضى بالجميع ، ورزق الهبل على المجانين ، وكأى شىء فى الحياة تبدأ المسائل ثم تتطور وقد تطورت مسألة الطب النفسى فى أمريكا لدرجة أن بعض الحالات أدمنت وأصبحت فى حاجة إلى طبيب نفسى لتخليصها من عادة الذهاب إلى الطبيب النفسى ، بل إن بعض الأطباء النفسيين يذهبون هم أيضا إلى أطباء آخرين لكى يبكوا ويلطموا عندهم ليصبحوا بعد ذلك مستعدين لاستقبال بكاء ولطم الآخرين . وبالرغم من أن العبد لله ليس «طبيب نفسانى» ولن أكون ، إلا أننى لاحظت أن الناس فى أمريكا تعيش بمفردها ، كل واحد فى حاله . لا أحد يستمع إليك ولا أحد يهتم بشكواك كل منهم يبدأ حياته مبكرا – حتى وهو طالب بالابتدائى – ويقرأ الجرائد فى الخامسة صباحا ويذهب إلى المدرسة فى السابعة ويعود فى الخامسة بعد الظهر ليشاهد برامج التليفزيون ثم ينام .. ليعاود الحكاية فى الصباح من جديد .

والبنت تترك بيت أهلها عندما تبلغ الثامنة عشرة تماما وتواجه الحياة وحدها وتُخدع وتَخدع ، وتفشل أو تضيع ، ولكن عليها الاعتماد على نفسها فقط فأبوها

مشغول بحياته وأمها كذلك وأخوها قد يهتم بها أحيانا ، فيسأل عنها مرة كل عام ، أو يتزاور معها كل عيد ، وهذا السلوك فى أمريكا ليس سببه أنهم يرتكبون أو أنهم لايتحلون بأخلاق القرية ، ولكنه سلوك طبيعى لمجتمع هو قمة العالم الصناعى والرأسمالى ، وليس فيه وثن معبود إلا الفرد وحرية الفرد ، ونحن أيضا سنصل إلى هذه الحالة يوما ما لو تطورنا فى اتجاههم ، لو أصبحت صواريخ العرب تدور فى السموات ، وسفن العرب تمخر البحر ، وسيارات العرب تنهب الأرض فكل مجتمع يفرز سلوكياته ، والسلوك الأمريكى هو سلوك مجتمع الوفرة والقوة والضخامة والعنفوان ، وهذا هو الفرق بين أمريكا وهولندا .. الأولى فى حاجة إلى أطباء نفسانيين والآخرى فى حاجة إلى وعاظ .

❑❑❑

سيىء الحظ من يمتد به العمر إلى سن الشيخوخة فى أمريكا ، وتعيس من يعيش حتى أرذل العمر ، وملعون فى كل كتاب من يبقى على قيد الحياة حتى يغشى بصره وترتعش ساقاه ، وفى أمريكا ملاجىء للمسنين فى حجم أهرام الجيزة ، والنزلاء يملأونها دائما ، أحيانا يذهب بهم أبناؤهم ، وأحيانا يذهبون بأنفسهم يطلبون اللجوء خوفا من هؤلاء الأبناء ، وما أكثر حوادث القتل التى تقع فى أمريكا ، بنت تقتل أمها تخلصا من إزعاجها ، أو إلحاحها أو جنونها فى بعض الأحيان ، أو ابن يقتل أباه تخلصا من ضيف ثقيل لم يعد له مكان فى الحياة التى تهضم العمر وبقوة على مدى الأيام والساعات والدقائق والثوانى واللحظات ، إنه مجتمع الصبا والشباب والبأس وعنفوان العنفوان ، لامكان للعجوز أو للشايب فلا أحد فى انتظار أحد ، ولا شىء بانتظار شىء ، لكنه مجتمع الفرص واغتنامها ، والغنائم واقتناصها ، والحرب دائرة على ودنه والنصر فيها لصاحب القلب الشجاع ، والعضل المفتول ، والعزيمة التى تفلق الحجر وتفل الحديد ، ولذلك فالحياة عندهم تبدأ فى العشرين والدنيا كلها عندئذ ملك يديك والحياة كلها بين ذراعيك والأمانى والأحلام كلها رهن لاشارتك ، وكل شىء ممكن وكل شىء جائز ، تعيش شحاتا طول عمرك .. ممكن ، تهبط عليك الثروة فجأة يجوز ، تصبح جنرالا .. مفيش مانع ، عمدة فى ولاية .. ماشى ، تصبح رئيسا للولايات .. زى

بعضه ، تموت بالرصاص صدفة .. ممكن ، تتحول إلى رجل عصابات .. وارد ، فكل شيء وارد ومتاح شرط أن تكون شابا وفتيا وقويا ومتسلحا . ولكنك لن تجد أحدا يتصدر المجالس ، وكل مواهبه هي الشيخوخة . ولن تجد شهادة تفوق في أمريكا تمنح للمسنين ، وإذا بلغت سن اليأس فعليك أن تخلي الطريق أو تتنحى على جانبه وأن تلزم مكانا محددا تجتر فيه ذكرياتك وأحزانك ، وأن تجلس وحدك مع همومك وشجونك ، وأن تلزم حدودك فلا تتدخل في شئون الآخرين ، فهؤلاء لهم زمانهم وأنت كان لك زمانك ، وحكمة السنين لا تساوي لأن الحياة لاتتكرر وما كان يصلح في وقتك لايصلح في هذا الوقت ، وتجارب الشيوخ مكانها التاريخ وليست وصفة طبية لعلاج أمراض العصر الحاضر ، ولعل هذا كله يفسر انتحار كاتب عظيم مثل أرنست همنجواي ، أمسك ببندقية مسددة إلى فمه ووضع حدا لحياته ، لقد كان عندئذ على قمة مجده ، أشهر كاتب في العالم ومن أغنى الناس في أمريكا ، لقد وصل إلى قمة جبل الحياة ولم يبق أمامه إلا النزول ، ولعله كان يدرك بعبقريته الفذة أن رحلة النزول خصوصا في أمريكا صعبة وأيامها مريرة ونهايتها حالكة السواد.

اللهم أحيني شابا في أمريكا ، وأحيني جثة في بلادنا ، فالعجائز في بلادنا لهم صدر المجلس ، وفصل الخطاب ، ولهم التحية والاحترام وشهادات التقدير ، وربما أيضا شهادات الاستثمار ! .

الضربة القاضية

وفى أمريكا ضجة حول ولد أبيض ملاكم يقولون إنه سيصبح بطل العالم فى الملاكمة فى القريب ، الولد الأبيض اسمه «جيرى كونى» واستطاع فى آخر مباراة له أن يصرع خصمه الأسود «كين نورتون» بالضربة القاضية بعد ٥٦ ثانية من بدء المباراة .

والولد المهزوم «كين» كان أحد القلائل الذين ألحقوا الهزيمة بالبطل العالمى محمد على كلاى . ولكنه لعيب مزاجتلى مرة فى السما ومرة فى الطين .. ومع أن الأمريكان يعلمون هذه الحقيقة إلا أنهمتعصبوا للولد الأبيض ، لأن بيض الأمريكان أخلوا مكانهم فى البطولة منذ زمن طويل ، ولم يعد لديهم أمل فى رؤية بطل أبيض بعد روكى مارشيانو الذى كان آخر أسطورة بيضاء فى ملاكمة الوزن الثقيل . ومع أنه لا أمل على الإطلاق للولد الأبيض «كونى» أمام الدبابة البشرية «لارى هولمز» بطل العالم الحالى إلا أن الأمريكان يأملون ويحلمون ، وطبول الدعاية الآن فى أرجاء الولايات المتحدة تمهد للبطل الأبيض وتحاول أن تفتح له الطريق بالرغم من أن التمييز العنصرى ليس ملموسا فى الظاهر إلا أنه فى الباطن موجود وشغال وله دخل فى توزيع الحظوظ والأرزاق على الجميع . ولذلك يشعر الأمريكيون بحزن شديد لأن الأبطال البيض اختفوا من الساحة ولم يعد هناك بيض أبطال إلا فى التنس وبعض أنواع السباحة . ولكن كرة القدم الأمريكية وكرة السلة أصبحت حكرا على الأبطال السود ومنذ «روكى مارشيانو» مثلا لم يلمع على حلقات الملاكمة إلا أبطال سود وكان أعظم الأبطال بعد فترة محمد على كلاى بطل الأبطال أسود ومسلم وولد آخر فى وزن خفيف الثقيل اسمه ماثيو سعد محمد أسود ومسلم أيضا ، وولد آخر فى وزن المتوسط إسمه راى سكر أسود ومسيحى طيب يعبد الأب والإبن وروح القدس .

ولذلك فى أمريكا اليوم ستجد حمى اسمها «كونى» وستجد متحمسين له حتى بين

التلميذات والفتيات والأطفال - ليس لأنهم من عشاق الملاكمة - ولكن لأن المسألة هى رد اعتبار البيض فى الملاكمة ، لأن أمريكا أنشأها البيض وطورها البيض ورفعوها من الأرض إلى السماء فى مناطيد وطائرات وصواريخ ومراكب فضاء وأقمار صناعية ، وبالرغم من ذلك لم يستطع البيض أن يظهروا أية عبقرية فى الملاكمة ولم يستطيعوا أن يظهروا أى نصر على الحلبة ، وأصبحت البطولة من نصيب نفر من السود جلبهم الانجليز يوما من أفريقيا ليزرعوا فى مزارعهم ، ويخدموا فى بيوتهم ، فإذا بهم ينتفضون كالعفاريت الزرق ويضربون السادة البيض علقة ساخنة اسمها الفنى الضربة القاضية .

❑❑❑

منظمة الطلبة العرب فى أمريكا لجأت إلى القضاء فى قضية طريفة ، طرفاها ولد سعودى طيب وولد يهود ابن كلب .. الولد السعودى طالب فى جامعة كاليفورنيا والولد اليهودى كذلك ، ولكن لأن الولد اليهودى أمريكى ويحمل جواز سفر من بتوع الأمريكان فقد انتهز فرصة الضجة المفتعلة التى ثارت حول صفقة الأسلحة التى طلبتها السعودية من واشنطن ، انتهز الفرصة وراح يتحرش بالولد السعودى ويستفزه .. هدده بالضرب مرة ورسم له نجمة داود على ظهر الجاكيتة مرة، ورسم له العلم السعودى على السبورة وكتب تحت الرسم عبارات لا تليق ، هنا تحركت منظمة الطلبة العرب فى الولايات المتحدة ولجأت إلى القاضى طالبة فصل الطالب اليهودى الصهيونى من الجامعة لممارسته سياسة الاضطهاد العنصرى وهو أمر مكروه يحرمه القانون ويعاقب عليه .

واستعدت المنظمة للقضية فحشدت عددا من المحامين المشاهير فى لوس انجلوس وتحركت أيضا الجمعيات اليهودية وكلها صهيونية ودخلت المعركة ، وأصبحت قضية الولد السعودى والولد اليهودى حديث كاليفورنيا والكل يترقب حكم القاضى . فإذا حكم فى صالح الولد اليهودى فهى مسألة عادية واستمرار لسياسة أمريكا العلنية والخفية . وإذا حكم لصالح الولد السعودى فستكون نقطة بداية وعلامة تحول تضاف إلى علامات أخرى سبقتها ولها دلالات خطيرة .. إحدى هذه الدلالات صدور بيان من جمعية بحوث أمريكية - والجمعية خطيرة وشهيرة وظهرها مسنود ويقف خلفها عدد من رجال

الأعمال الممتلئين والشبعانين - البيان يعلن عن استعداد الجمعية لدفع خمسين ألف دولار لكل من يكذب مزاعم اليهود حول إعدام ستة ملايين يهودى فى معسكرات الاعتقال «الألمانية» وأبدت الجمعية استعدادها لدفع المبلغ فورا لكل من يتقدم بدليل واحد يسكت هذا الزعم ولو قطعة صابون واحدة من النوع الذى زعم اليهود أن الألمان صنعوه من دهن القتلى اليهود ، وبالرغم من أن الجمعية أعلنت بيانها منذ عدة أسابيع إلا أن أحدا لم يتقدم بهذا الدليل أو بدليل آخر غيره ، وذلك لسبب وحيد وبسيط هو أن الحكاية كلها ملفقة مفبركة وليس لها أصل فى الحقيقة ولا فى الواقع ولكنها كلها حكايات وروايات وأباطيل ، وهناك همس فى أمريكا حول موقف ريجان نفسه ويقولون إنه أمريكى بالفعل ويبحث عن مصلحة أمريكا ، ويقولون أيضا إنه مستعد لحماية أمن إسرائيل ولكنه ليس مستعدا لحماية نزواتها أو غزواتها ، ويقولون إن موقفا أمريكيا جديدا سينشأ فى عهد الرئيس العجوز الذى تعدى السبعين والذى يتصرف بحرية لأنه لايعتقد أنه سيخوض انتخابات الفترة الثانية ، هكذا يقولون ، ويقولون إنه ليس يهوديا ولكنه ليس عربيا . وأخشى أن تتضح الحقيقة فنكتشف فى النهاية أنه بالفعل ليس يهوديا وليس عربيا .. وإنما هو إسرائيلى ومن أحبار إسرائيل !!.

❑❑❑

عندما تكون ضخما فإن أحدا لا يستطيع تحجيمك . وعندما تكون طويلا فإن أحدا لا يستطيع تقزيمك ، وعندما تكون حادا كالسيف فإن أحدا لا يستطيع أن يكسرك ، لا أحد يستطيع ذلك ولو أطلقوا ضدك أحقر الإشاعات ، ولو حاربوك بكل الطرق ، ولو استخدموا ضدك أقذر الأساليب ! .

وقصة حياة «كولمان ريد» تصلح درسا لكل إنسان اتخذ طريقه فى الحياة على درب الحق . وجعل من ضميره عصا يتوكأ عليها فى جولاته ، ووهب نفسه لوطنه أمريكا ولم يسترزق . وصنع المعجزات ولم يطلب ثمنا ، وتعرض للموت ولم يأخذ أجرا . وفى الحرب الأهلية الأمريكية انضم للجانب الذى اعتقد أنه الأفضل . كان مع الوحدة ، ومع تحرير العبيد ، ومع إقرار العدل ، ومع مبدأ تكافؤ الفرص ، ومع شعار الدين لله والوطن للكل ! وانتهت الحرب وعاد السلام واستقرت الأمور ، وإذا به يكتشف أن كل

شىء عاد إلى ما كان عليه ، الذين حاربوا من أجل الوحدة أرادوها وحدة للهبر ، والذين حرروا العبيد من المزارع أرادوهم عبيدا فى المصانع . وأبطال الحرب الأهلية تحولوا إلى زعماء عصابات ومافيا تفرض شريعة الغاب على الجميع ! وعاد «كولمان ريد» يحمل السلاح ضد الجميع ، ويقف فى وجه الكل ! ولكنه لم يدرك أن المعركة اختلفت ، والسلاح تغير ، وأن الناس الذين كانوا أبطالا فى الحرب قد أصبحوا أرزقية فى السلام ! وتحالف الجميع ضده ووقف الكل فى وجهه ، فهو يهدد مصالح الكبار ويقطع أرزاق الصغار ، وهو أصبح خطرا على نظام المدينة فاستفز الجميع ، حتى قاضى المحكمة وحتى راعى الكنيسة . فقد كان القاضى ضالعا مع زعماء المافيا ، وكان راعى الكنيسة ينفق على طقوسه من تبرعات زعماء العصابات ، وذات صباح قتل لص مجهول صبيا صغيرا فى السوق .. أطلق عليه رصاصة اخترقت رأسه ، وإذا بكل الناس الذين كانوا فى السوق يشهدون بأن القاتل هو «كولمان ريد» ولا أحد غيره ! كل الناس حتى السيدة العجوز التى كانت تشترى اللحم من عند الجزار ، وحتى حارس الخيول عند الحانة ، والذى كان لحظة إطلاق النار على الصبى فاقد الوعى تحت تأثير الخمر ! وقدموا «كولمان ريد» للمحاكمة ، واصطف الشهود فى طابور طويل وكلهم متأكد وعلى يقين من أن المتهم هو القاتل ، ولم يقف بجانبه أحد إلا محارب قديم عجوز شهد بطولاته فى ساحة المعركة ، ولكن شهادته عن شرف المتهم وشجاعته وسمو أخلاقه ضاعت فى زحام الأكاذيب . وصدر الحكم بإعدام «كولمان ريد» وتدلى جسده الطاهر من حبل المشنقة بينما كان صديقه العجوز يترنم بأغنية كان يترنم بها «كولمان ريد» خلال المعارك .

وبعد عشرين عاما من موته ظهرت الحقيقة . اعترف اللص الذى قتل الطفل لحساب رجال العصابات . وأقيم تمثال للرجل البرىء فى نفس المكان الذى نصبت فيه المشنقة . تمثال يقول : إنه لا يصح .. إلا الصحيح ! .

اعتذرت لها بأن عندى مغصا !

عندما ذهبت إلى أسبانيا فى عام ١٩٥٦ ، كان فرانكو يحكم بيد من حديد ، وكان الشعب آخر فقر وآخر تعب .

والحزب الوحيد الذى يحكم ويتحكم هو حزب الفلانج «الكتائب» ولكنى اكتشفت أنه حزب وهمي وليس له وجود ، فالجنرال فرانكو يحكم باسم الحزب ولكن الحزب نفسه غائب . وكان للحزب مقر فى مدريد فى حجم وفخامة هيلتون بارك لين فى لندن . ومع ذلك لم يتردد عليه أحد إلا رجال الأمن ومجموعة من البصاصين . وحدث للعبد لله اندهاش شديد عندما اكتشفت أن أغلب المدخنين الأسبان يؤثرون السجاير (الفرط) وكنت قبل زيارتى لأسبانيا أتصور أنه اختراع مصرى موطنه الأحياء الشعبية ! واكتشفت أيضا أن الأسبان يحلون مشاكلهم بالجهود الذاتية . وأغلب بيوت مدريد يمكن تأجيرها – مجرد إيجار – لقضاء أوقات سعيدة !.

ولكن أسبانيا فى ذلك الحين كانت من أرخص بلاد العالم .

استأجرت فيها حجرة بالهيلتون بثلاثة جنيهات يوميا ، ولكن عبد المنعم النجار الملحق العسكرى المصرى لامنى بشدة على سفهى وتبذيرى ، وأرشدنى إلى فندق بشارع خوزى انطونيو – أجمل شوارع مدريد – واستأجرت غرفة بالفندق بحمام وملحق بها صالون صغير بـ ٦٠ قرشا مصريا !.

ولكن مدريد بالرغم من فقر الأسبان وعجزهم كانت مدينة مرحة ، تسهر الليل بطوله ، وتستيقظ قبل الظهر. وكان بها نظام فريد من نوعه لحراسة المنازل . كان لكل منطقة بواب رسمى يحمل معه مفاتيح البيوت التى فى عهدته . ولم يكن باستطاعة أحد أن يصعد إلى شقته إلا بمعرفة البواب . ولم يكن بوابا من إياهم ، ولكن كان يرتدى زيا خاصا ، أشبه بزى الجنرالات .



ويضع على كتفه علامات كرتب الضباط ، ويمسك بعصا جميلة . وكانوا جميعا من كبار السن ، وبعضهم كان من المحاربين القدماء الذين دخلوا برلين مع فرانكو .

ولكن هذا النظام لم يكن معمولا به فى الأحياء الشعبية بل كان وقفا على أحياء الصفوة من الأثرياء والمسئولين. وكان الهدف من ورائه حماية منازل الصفوة من السرقة ، ولكن السبب الأهم كان حماية نظام فرانكو من انقلاب مفاجىء يقوم به ضباط الجيش ، وكان على كل خفير من هؤلاء أن يقوم بإبلاغ غرفة العمليات بالقيادة العامة للجيش إذا غادر أحد الضباط بيته فى الفجر !.

كان الأمن على رأس اهتمامات حكومة فرانكو .. أقصد أمن الدولة وليس أمن الناس . ولكن بالرغم من الأمن المستتب كانت الأحوال الاقتصادية سيئة للغاية ، لأن رأس المال جبان ولم يكن هناك رأسمالى واحد عاقل يغامر بفلوسه فى ظل نظام فرانكو . أما هؤلاء الذين كانوا يستثمرون فى ظل فرانكو فقد كانوا جميعاً شركاء لأفراد الأسرة الحاكمة من أقارب فرانكو والسيدة حرمه . وكانت السوق السوداء هى مصدر ثراء أغلبية المسئولين فى الجيش وفى الحكومة . والفساد يضرب جذوره فى كل أنحاء أسبانيا بدءا من الخفير الذى يفتح الباب للسكان ليلا ، وانتهاء بحاشية الرئيس .

وفى ظل فرانكو كان يستحيل على أى مواطن أسبانى أن ينجز أى مهمة له فى دوائر الحكومة إلا بعد تقديم البقشيش . حتى النقود التى يحتفظ بها المواطن فى البنك كان لايمكنه سحبها إلا بعد أن يدفع المعلوم . وكان الشعب الأسبانى يفرغ شحنات يأسه المكبوتة فى ملاعب كرة القدم ، وفى ساحات مصارعة الثيران وفى حفلات الرقص الجماعى ومع مطربى الفلامنكو ، الذين تخصصوا فى تأليف وتلحين أغان فلكلورية تدعو الناس إلى الصبر واحتمال مصائب الحياة لكى يظفروا فى النهاية بنعيم الجنة ! .

أما قادة الجيش فكانوا فى مقاعدهم منذ عام ١٩٣٦ . وكان عزلهم من مناصبهم يتم عن طريق عزرائيل وحده . وكانوا هم أنفسهم الذين دخلوا مدريد

مع فرانكو وأسقطوا الحكومة المنتخبة وأقاموا فى مدريد نظاما عسكريا فاشستيا بأسلوب الحزب النازى فى المانيا والحزب الفاشستى فى إيطاليا . وكان من بين هؤلاء القادة ضباط عرب من المغرب ، كان أحدهم واسمه الزيانى أو المزيانى لا أذكر هو قائد الحزب الجمهورى وظل فى منصبه حتى مات . وكان هذا هو السبب فى كراهية الشعب الأسبانى للعرب فى عهد فرانكو . وكان المثقفون الأسبان يرددون فيما بينهم أن العرب فتحوا أسبانيا مرتين ، مرة على يد طارق ابن زياد ومرة على يد فرانكو . المهم أيها السادة أننى دخلت أسبانيا بحثا عن شخص عربى مقيم فى مدريد اسمه مصطفى ، أما اسمه الحركى فهو السنيور أنخى ، وهو عربى من الجزائر وكان مندوب جبهة التحرير الجزائرية فى أسبانيا . وكنت أحمل له خطابا من محمد خيضر وهو واحد من ألمع وأذكى قادة الثورة الجزائرية على الإطلاق . وكان الخطاب يحمل توصية من محمد خيضر إلى مندوبه فى الجزائر لتسهيل دخول العبد لله إلى جزائر الثورة ! .

وترددت على منزل محمد خيضر عدة مرات ، وقضيت السهرة معه أكثر من مرة فى أماكن عامة ، وكان السنيور أنخى أو مصطفى يجيد الأسبانية كأحد أبنائها وأشهد أنه كان ممتازا يعمل بهمة ونشاط وبلا كلل من أجل القضية الجزائرية .

وأعتقد أنه نجا من كل عمليات التصفية الجسدية التى جرت بعد استقلال الجزائر . والسبب أنه كان قنوعا بمنصبه كسفير للجزائر فى إحدى بلاد أوروبا الغربية . المهم أن السنيور أنخى طلب من العبد لله أن أنتظر فى مدريد وقتا كافيا حتى يدبر أمر سفرى إلى طنجة ومن طنجة التى كانت دولة وقتئذ إلى وجده المغربية على حدود الجزائر ثم إلى الجزائر نفسها مع الثوار فى قمم الجبال . واكتشفت أننى لست الوحيد الذى ينتظر السفر إلى الجزائر ، كان هناك إبراهيم حرشى الموظف الجزائرى فى الأمن العام الفرنسى بمدينة الجزائر . وكان يعمل مع الثوار فى السر .

ثم خاف أن يفتضح أمره فيكون مصيره إلى المقصلة . وانتهز فرصة أجازته

السنوية فسافر إلى باريس ، ثم ركب القطار من باريس إلى مدريد واتصل بالسنيور أنخى ليدبر له أمر عودته إلى الجزائر ولكن عن طريق الجبل وفى خدمة الثورة .

وبدأت أسرح مع إبراهيم حرشى فى كل أنحاء مدريد ، وترددت معه على مقاهى مدريد ومطاعمها إلى مسارحها ومراقصها ، وسرحنا معا خارج مدريد أيضا إلى توليدو - طليطلة - وإلى جريندادا - غرناطة - وذات سرحة من دول وكنا فى جوادا لخارا - وادى الحجارة - حيث السجن السياسى الرهيب الذى لم يعرف أحد فى أى وقت عدد نزلائه أو أسماءهم أو عددهم منذ بدء استخدامه فى عام ١٩٣٦ وحتى انتقل فرانكو إلى العالم الآخر .

فلم يكتب لأحد من الذين دخلوه رؤية الحياة مرة أخرى . ولم يسمح لأحدهم بتلقى خطابات أو أغذية أو زيارات من الخارج .

ولكن معلومات السفارات الأجنبية عن السجن كانت من النوع الذى يشيب له الغراب . فى رحلتنا إلى جوادا لاخارا ألقت الصدفة فى طريقنا بفتاتين واحدة فى حجم السيد قشطة ولكن دمها خفيف للغاية ، وواحدة فى حجم عبد السلام محمد - الفنان الراحل الذى برع فى تمثيل دور الفرفور فى مسرحية يوسف إدريس - ووقعت السمينة المربربة التى يكفى عشرة منها لحل أزمة الغذاء فى الصومال ، وقعت الست الملحمة فى غرام العبد لله ، وعلمت منها أنها من الأندلس ، وأنها من أصل عربى وأنها فى أجازة من عملها فى المجلس البلدى مع زميلتها وصديقتها الست الناشفة التى يبدو أنها وقعت فى غرام أخينا إبراهيم حرشى الذى فر من خدمة الحكومة الفرنسية لينضم للثوار . وقضينا الفترة التى تلت زيارتنا لجوادا لاخارا نتنزه سويا فى شوارع وحوارى مدريد ، ثم انفصل إبراهيم حرشى مع المرأة الناشفة وانفردت أنا الآخر بالمرأة المربربة .

وذات مساء وأنا - أدخل مع المرأة الملحمة مطعما فى الحى الذى يقع تحت الأرض فى غرب مدريد - اكتشفت وجود الملحق العسكرى المصري مع آخرين هناك ، وقال لى عبد المنعم النجار ملحقنا العسكرى فى مدريد .. فوت على بكره

فى السفارة .. وبالفعل ذهبت إليه فى اليوم التالى . فبادرنى بسؤال عن المرأة التى شاهدها معى ليلة الأمس . فحكيت له تفاصيل تعرفى عليها فصمت قليلا ثم قال ... طيب خد بالك لأنها من الأمن . وعندما بدت الدهشة على وجه العبد لله ، قال عبد المنعم النجار .. إيه .. غريبة ؟ .. أنت بالقطع مراقب من فترة . قلت له بسذاجة .. وح يراقبونى ليه ! رد عبد المنعم النجار ساخرا .. ياسلام .. أنت فاكر نفسك فين ؟ دى بلد محكومة ، وأنت يوم ما قابلت السنيور أنخى حطوك تحت المراقبة . قلت : أنا فاهم أن أسبانيا مع الجزائر . قال عبدالمنعم النجار ... ده صحيح هم مع الجزائر ومع القضايا العربية كلها وإسرائيل ملهاش أى نفوذ هنا ، لكن أسبانيا فيها دولة ولازم تعرف كل حاجة . وصمت الملحق العسكرى فترة ثم قال .. وساعات فرنسا تضغط عليهم فيتحولون إلى شىء وحش قوى. كان جميع اللاجئين من ثوار الباسك الأسبان لاجئين فى فرنسا . وفى الأوقات التى يبدو فيها أن أسبانيا متورطة إلى حد بعيد مع الثورة الجزائرية ، تزداد العمليات الإرهابية التى يقوم بها ثوار الباسك ضد حكومة فرانكو . عندئذ تفهم حكومة أسبانيا الإشارة فتخفف من موقفها .

كانت لعبة أشبه بلعبة القط والفأر بين مدريد وباريس . ولكن مدريد انتصرت فى النهاية لأن أغلب الأسلحة التى كانت فى يد الثوار الجزائريين كانت أسلحة أسبانية اشتريت بأموال عربية وهربت إلى الجزائر بجهود مصرية . وصارحت عبد المنعم النجار بأننى حكيت لها أننى صحفى من القاهرة وفى طريقى إلى الجزائر . وقال عبد المنعم النجار ... هذه معلومات يعرفها الأسبان فى اليوم التالى لوصولك إلى مدريد ، ولكن لاتتبرع بمعلومات أخرى ، وتستطيع أن تقول لها بعد فترة إنك فشلت فى إيجاد وسيلة للسفر إلى الجزائر ، وإنك ستغادر إلى القاهرة . وقلت لعبد المنعم النجار ... ولكنهم سيكتشفون كذبى عندما يكتشفون أننى غادرت إلى طنجة وليس إلى القاهرة ؟. قال وماذا يهمك مادمت قد غادرت مدريد ،

بدأ العبد لله يتحفظ مع المرأة الملحمة ولاحظت هى ذلك ، مع أن الملحق

العسكرى المصرى أوصانى بأن أبدو طبيعيا للغاية ولكن أن يبدو الانسان طبيعيا للغاية فى موقف مثل هذا يحتاج إلى أعصاب مخبر مدرب فى بوليس اسكوتلاند يارد . كانت تحضر إلى الفندق فأعتذر لها بأننى مريض لا أستطيع الخروج ، وإذا خرجنا معا أعتذر لها بأننى أشعر بمغص شديد وأحتاج للعودة إلى الفندق . ولما كان العبد لله ليس هدفا ثمينا ، فقد بدا عليها هى الأخرى بأنها ليست مهتمة بصداقتى ، وأن حبها لى ليس من طراز نار ياحبيبى نار ، ولم تلبث العلاقة بيننا أن فترت ثم انقطعت تماما . اتصلت بى تليفونيا ذات صباح ، وأبلغتنى أن أجازتها انتهت وأنها عائدة إلى الأندلس حيث تعمل وتقيم ، ووعدتها بزيارتها فى الأندلس فى القريب العاجل ، وسألتها أن تراسلنى ، وأعطيتها عنوانى فى القاهرة أيضا .. شارع سلسبيل الهوى حى القرموط بالقاهرة رقم ١٥ ! ونفس الشىء حدث مع إبراهيم حرشى ودعته المرأة الناشفة وادعت هى الأخرى أنها عائدة إلى الأندلس ! .. وبعد مغادرة الست الملحمة إلى الأندلس بأسبوع دعانى عبد المنعم النجار إلى العشاء فى مقر حزب الفلانج .. حزب فرانكو وفى مطعم فاخر داخل مقر الحزب ، وكان يسمح لأعضاء البعثات الدبلوماسية الأجنبية بالتردد عليه وتناول العشاء فيه ، وكانت قعدة طرية للغاية ، العشاء فاخر ، والنبيذ من النوع الذى مضى عليه ربع قرن ، وراقصة غجرية مع مطرب شعبى تبهج الحاضرين ، وكانت القاعة مزدحمة فقد كانت ليلة السبت ونهضت من مكانى إلى دورة المياه وكانت المفاجأة ، وقعت عينى على الست الملحمة تجلس إلى مائدة مع ثلاث سيدات وأربعة رجال إثنين منهم فى ملابس عسكرية .. ونظرت نحوها ونظرت نحوى ولكنها لم تتحرك نحوى ولم أتحرك نحوها ولم نأخذ بعضنا بالقبلات والأحضان كما تفعل الست ليلى علوى مع نور الشريف فى الأفلام والمسلسلات ! .



الزعيم ديالكم !

سحبنى الرئيس بورقيبة فى رحلة استغرقت أربعين يوما ، غطت تونس كلها من الحدود الليبية إلى مدينة الكاف على الحدود الجزائرية ، كان الرئيس بورقيبة قد انتهى لتوه من إزاحة «باى» تونس من على عرشه . والباى هو من مخلفات العصر العثمانى ، وكان الباى من نصيب تونس بينما كان الداى من نصيب الجزائر . ولكن باى تونس كان رجلا . بلا حول ولا قوة ، كان أشبه بناظر مدرسة إلزامية فى بر مصر . ولحظة حصول تونس على الاستقلال وتولى بورقيبة مقاليد السلطة فى بلاده ، لم يكن محتاجا لكى يزيح الباى أكثر من إرسال خطاب فصل للباى عن طريق البريد .. فلم يكن فى تونس كلها فرد واحد مستعد للدفاع عن الباى العجوز .

وكانت رحلة بورقيبة عبر تونس أشبه باستفتاء شعبى للمجاهد الأكبر ، الذى حمل عبء الدفاع عن تونس وشعبها على مدى ثلاثين عاما ، ذاق خلالها السجن والنفى والتشريد ، وصدر ضده حكم بالإعدام ، عجزت فرنسا عن تنفيذه ، لأن بورقيبة تمكن من الهروب خارج الحدود . والحق أقول إن الرجل كانت له شعبية طاغية ، وكان حزبه - الدستورى التونسى الجديد - هو أعظم الأحزاب العربية تنظيما وأخطرها حركة وأقدرها على تحريك الجماهير . كان يكفى بورقيبة أن يضغط على زر لتشتعل تونس كلها بالنار ، فإذا ضغط على زر آخر ساد النظام والهدوء ، ولم يكن بورقيبة فى حاجة إلى برلمان أو دستور ، فقراراته هى القانون وكلماته هى الدستور ، والوطن هو بورقيبة وبورقيبة هو الوطن . كان يتجول وسط الجماهير بلا حراسة .

وفى بعض الجولات كان يتقدم منه مواطن عجوز يعرفه من أيام الكفاح ، فيصافحه بورقيبة بشدة ويسأله عن أحواله وأحوال عائلته ويذكر أفرادها بالإسم فردا

فردا ، ثم يأمر أحد المسئولين ، «عامل أو والى أو باشا» بحل مشكلة الرجل العجوز . وكانت قراراته بخصوص هؤلاء الأصدقاء تأخذ طريقها إلى التنفيذ فى أحسن صورة وفى أقصر وقت . وفى مدينة الكاف استوقفت الموكب سيدة فى الثمانين من عمرها ، وما أن رآها بورقيبة حتى أسرع إليها وعانقها بشدة وقبل رأسها ويدها ، وسألها عن زوجها ، فلما أبلغته أنه توفى إلى رحمة الله ، رفع يديه إلى السماء وقرأ الفاتحة بصوت عال ورفعت الجماهير المحتشدة حوله أيديها إلى السماء وقرأت الفاتحة هى الأخرى وكانوا أكثر من عشرة آلاف مواطن ،. ثم وقف بورقيبة وخاطب الجماهير قائلا.. هذه السيدة العظيمة آوت الزعيم ديالكم «بتاعكم» عندما كان مشردا ، وأطعمته عندما كان جائعا . ثم سألها عن حاجتها . وبعدها أمر لها ببيت وبمرتب ثابت يجرى عليها كل شهر . وفى إحدى المدن القريبة من الحدود الجزائرية خطب بورقيبة فأنذر ملاك الأرض الذين يسيئون معاملة عمالهم ، ثم خبط المائدة التى أمامه وقال .. سأجعل من هؤلاء عبرة للآخرين ، وسأبطش بهم بقوة . وكان العبد لله يجلس فى الصف الأمامى مع عدد كبير من كبار الملاك يجلس عن يسارى وعن يمينى ، وفجأة سقط اثنان منهم على الأرض ، وجاءت عربة إسعاف وحملتهما إلى المستشفى ، وعلمت فى المساء أن أحدهما مات على الفور والثانى لا يزال تائها فى غيبوبة طويلة ، وفى آخر الجولة أخذنى بورقيبة معه إلى جزيزة جالطا ، وهى الجزيرة التى نفى بورقيبة إليها . لفترة طويلة من الزمان ، وهى جزيرة صخرية قليلة الأشجار والنباتات ، ولم يؤنس وحدته فيها إلا السيدة وسيلة رفيقة نضاله فى أيام الشباب ... وهى نفسها السيدة وسيلة التى أصبحت فيما بعد حرم بورقيبة رئيس الجمهورية . وفى هذه الرحلة الطويلة حدث نقاش طويل بين بورقيبة والعبد لله . ليس نقاشا بالضبط ولكن الذى حدث كان حديثا من جانب بورقيبة واستماعا من جانب العبد لله . كان من رأيه أن عبد الناصر يحرث فى البحر ، وأن إسرائيل دولة قوية وعدوانية وستظل كذلك إلى مائة عام . وكان من رأيه أن الشرق الأوسط ضعيف وفقير ، وأن واجب حكام المنطقة أن يعهدوا لأمريكا بحمايتنا وحماية المنطقة فتحمينا من إسرائيل بنفوذها وترسانتها الحربية ، وتحمينا من

الفقر بفلوسها وإمكانياتها ، وكان دائم السخرية من عبد الناصر ، وأنه مجرد تلميذ فى مدرسة الدكتاتورية ، ونهايته ستكون مثل نهاية هتلر وموسيليني .

كان واضحا للعبد لله أن بورقيبة شديد الغيظ من عبد الناصر ، لأنه هاجم بورقيبة فى خطاب عام واتهمه بأنه عميل للغرب وصديق لإسرائيل . والسبب أن بورقيبة كان قد أعلن قبوله لمبدأ ايزنهاور قبل أن يعلن ايزنهاور أى مبدأ ، وطالب الدول العربية بعقد معاهدة صلح مع إسرائيل . وكان من رأى بورقيبة أن مصطفى النحاس هو أعظم زعماء الأمة العربية ، وأن محمود أبو الفتح هو أعظم صحفى أنجبته أمة محمد ، وأن محمد على الطاهر هو أعظم مناضل على أرض العرب . وكان النحاس باشا قد رفض تسليم بورقيبة إلى سلطات الاحتلال أيام الحرب بعد أن فر بورقيبة من تونس ولجأ إلى القاهرة .. وكان محمود أبو الفتح قد تبنى قضية بورقيبة على صفحات المصرى . أما محمد على الطاهر فقد بذل جهدا كبيرا فى جمع التبرعات وعرض قضية بلاده على الأمم المتحدة . ولم ينس بورقيبة جميل هؤلاء ، فقد ظل معترفا إلى آخر لحظة بأنه تلميذ لمصطفى النحاس باشا . وعندما مات محمود أبو الفتح خارج مصر ، وافق على دفن جثمانه بتونس وتصدر جنازته بنفسه ، وألقى خطبة نارية ضد عبد الناصر فوق قبره .. أما محمد على الطاهر فقد استدعاه بورقيبة إلى تونس وخصص له بيتا جميلا وسيارة ترفع علما ، وعاش محمد على الطاهر إلى آخر يوم فى حياته إلى جانب بورقيبة ، وظل دائما موضع الحفاوة والتكريم .

المهم أنه ذات مساء جمعتنى الظروف ببعض أعضاء الحزب الدستورى التونسى فى مقهى بحى الزيتونة ، ودار نقاش طويل بينى وبينهم ، وقرر أحدهم أن عبد الناصر لا يصلح لزعامة الأمة العربية ، وأن بورقيبة هو الوحيد المرشح والمؤهل لهذه الزعامة، وأن الحزب الحر الدستورى هو الوحيد القادر على جمع شمل الأمة العربية . وانسحبت من لسانى وقلت للأخ التونسى .. إن تونس دولة مغاربية وهموم المشرق العربى تختلف . وبورقيبة ليس فى برنامجه أى خطط للتغيير ، والشعب العربى يريد التغيير ويسعى إليه. وانفعل الأخ عضو الحزب الدستورى وسب عبد الناصر بألفاظ غير لائقة . ولم أجد بأسا فى ذلك ، فعبد الناصر زعيم يختلف حوله الناس ، ولكن عندما تطاول

الأخ الدستورى على شعب مصر ، تحامقت أنا الآخر فبادلته الشتائم . ولأن أسلحتى فى هذا المجال أقوى وأخطر ، فقد هزمته بالضربة القاضية . ولكن يبدو أننى فى غمرة . حماسى وانفعالى تناولت بورقيبة بألفاظ من النوع الحيانى ماركة السيدة الجليلة سكسكة يرحمها الله ! وفى صباح اليوم التالى استدعانى السفير المصرى وبدعى على كامل فهمى فى مكتبه بالسفارة ، وواجهنى بعاصفة من الغضب والاحتجاج، وذكر للعبد لله أن الرئيس بورقيبة اتصل به فى الصباح الباكر وأبلغه بما بدر منى . وقال السفير للعبد لله .. سنذهب معا الآن إلى بورقيبة وستعتذر له ، ثم رفع سماعة التليفون واتصل بالقصر الجمهورى وطلب الرئيس بورقيبة وقال .. محمود السعدنى قدامى أهه يا سيادة الرئيس وهو يقسم أنه لم يحدث منه شئ يمس فخامتك، وأنا شخصيا أؤكد لك يا دولة الرئيس أنه من أشد أنصارك ، وأنه سيكتب عنك فى جرائد المشرق ما يرضيك ويطيب خاطرك ، وهو يريد أن يأتى معى الآن ليقبل يد فخامتك وليعتذر لك عن سوء الفهم الذى حدث . وبعد أن كرر السفير عبارة حاضر يا أفندم عدة مرات ، وضع سماعة التليفون وأمر سكرتيره بإعداد السيارة ورفع العلم عليها ، ثم سحبنى من يدى. وفى السيارة التى راحت تنهب الطريق فى اتجاه قصر بورقيبة ، قلت للسفير : يا سعادة السفير ، لقد نقلت عنى كلاما لم أقله ، وتعهدت لبورقيبة بأشياء لا أستطيع تحقيقها . وشوح السفير بيده فى وجهى وقال .. يا أخى أهو كلام ، فك مجالس ، إحنا عاوزين نحل مشكلة ، وبعدين عاوز أقولك حاجة ، بورقيبة ده أعظم زعيم فى العالم العربى وبينى وبينك أعظم من عبد الناصر وبيعمل لمصلحة تونس ، ولازم تحل المشكلة دى ما تسودش وشى قدام الراجل .. بعد دقائق وجدت نفسى وجها لوجه أمام الرئيس بورقيبة ، وما أن رآنى حتى راح يصرخ بشدة فى وجهى وقال .. أنا خدتك معايا فى الجولة بتاعتى وقولتلك كل حاجة وعلمتك ، تكون النتيجة بالشكل ده . زعمت للرئيس بورقيبة أن خلافى مع عضو الحزب كان خلافا شخصيا ولم يكن بسبب عبد الناصر أو بورقيبة ، ولكنه فعل ذلك لكى يوغر صدرك منى .. وتدخل السفير فى الحديث وقال .. يا سيادة الرئيس ستقرأ بقلم السعدنى ما يسر قلبك ، لقد أحاطنى علما بسلسلة مقالاته التى سيكتبها عن سيادتكم بجريدة

الجمهورية ، وستعلم بعد نشرها أنه يقدرك كزعيم للأمة العربية وقائدا لها .. وارتاحت نفس بورقيبة وبدا عليه السرور وقال .. إذن علينا أن ننتظر وسنرى .

وسافرت فى اليوم التالى إلى روما . وحدث للعبد لله هناك حادث كاد يودى بحياتى ، لولا لياقتى البدنية العالية التى ساعدتنى على الرمح كالغزال الشارد ، بينما كان أكثر من عشرة جزارين طلاينة يجرون خلفنا وبأيديهم سواطير تلمع كسيف فارس بنى شداد .. عنترة ! ..

الرجـل الأوحـــد!

فى روما كاد العبد لله يفقد حياته فى خناقة هايفة داخل سوق خضار روما ، فقد التقيت فى روما بالدكتور عمرو محيى الدين ، وكان الانجليز والفرنسيون واليهود قد أتموا انسحابهم من مصر بعد العدوان الثلاثى الفاشل ، وأعقب انسحاب الجنود انسحاب من نوع آخر ، فقد أسرع الألوف من الأجانب بالهجرة من مصر ، اليهود كانوا أسرع الجميع بالفرار ، باعوا ممتلكاتهم بأى سعر ورحلوا غير مأسوف عليهم وتبعهم الطلاينة والجريج ورعايا مالطة وفرنسا ، ولم يبق فى مصر إلا الأرمن وبعض القبارصة ، وكان الدكتور عمرو محيى الدين والعبد لله يتجولان على أرصفة روما ، وبالتحديد على الرصيف المواجه لسوق الخضار ، عندما التقينا رجلا يبدو من سحنته ومن لونه أنه مصرى ، نظر إلينا ونظرنا إليه ، ثم ألقى علينا السلام ومد يده وصافحنا بينما كان يحمل طفلته الصغيرة على كتفه ، سألنا : هل أنتم من مصر ؟ أجبناه بالإيجاب ، سألنا : هل هربتم ؟ أجبناه بالنفى .. سألنا : وكيف خرجتم ؟ قلنا : من المطار .. قال : وكيف سمحوا لكم ؟ قلنا : ولماذا لا يسمحون لنا ؟ قال منفعلا : إن الجزار عبد الناصر لا يسمح للناس بالخروج .. قلت له : قد يكون جزارا بالنسبة لليهود المرابين والخواجات الذين نهبوا مصر ، ولكنه ملاك طاهر بالنسبة للمصريين ، عندئذ صرخ الرجل صرخة عنترية وقال: اذن أنتم من مخابرات عبد الناصر .. صرخت أنا الآخر فى وجهه : وأنت يهودى .. قال : نعم أنا يهودى ، وسأعود إلى مصر رغم أنف الجزار السفاح عبد الناصر ، قلت له بعض الألفاظ المنتقاة من قاموس عزبة القرود ، فصفعنى على وجهى ، ولحسن الحظ فقط كان اليهودى التائه فى حجم الممثل عبد السلام محمد ، ولذلك عندما بادلته الصفعة ترنح وسقطت الطفلة من على كتفه ، ولحسن الحظ سقطت على كوم زبالة من مخلفات سوق الخضار ، ولكن اليهودى الجبان لطم على وجهه وصرخ بالطليانى طالبا النجدة ، ولا أعرف بماذا وصفنا على وجه

التحديد للطلاينة الذين أسرعوا لنجدته ، ربما وصفنا بالسفاحين أو القتلة أو اللصوص ، لأن عشرات من باعة الخضار والجزارين حاملى السواطير اندفعوا نحونا وفى نيتهم تمزيقنا ، نظرت إلى الدكتور عمرو ونظر هو الآخر نحوى وأطلقنا أقدامنا كنفاثات من نوع التورنيدو ، ولا أعرف أين ومتى توقفت عن الجرى ولكنى بالتأكيد لم أتوقف إلا عندما أصبحت على بعد عشرة كيلو مترات على الأقل ، أمضيت عشرة أيام بعد ذلك فى روما ، ولكنى لم أقترب من مكان سوق الخضار ، عدت بعد ذلك إلى القاهرة وفى ذهنى تحذير أمين شاكر للعبد لله، لقد سمح لى بالغياب لمدة أسبوع ، ولكننى عدت إلى القاهرة بعد شهر ، وفوجئت بأن أمين شاكر ترك الجريدة وأن أنور السادات عاد إلى مكانه القديم رئيسا لمجلس الإدارة ، كان هذا التغيير هو بشرة خير بالنسبة للعبد لله ، فلا حساب إذن ولا يحزنون، قابلت أنور السادات فسألنى عما بدر منى فى تونس فى حق الرئيس بورقيبة، حكيت له بالتفصيل ما بدر منى وما فعله بورقيبة ، وموقف السفير المصرى على كامل فهمى ، الذى وصفت موقفه بأنه مريب .

وفوجئت برد فعل أنور السادات الذى لم أكن أتوقعه ، قال السادات بلهجته المعروفة وبطريقة حاسمة : دا مش مريب بس .. دا خائن ! قلت للسادات وقد أخذتنى المفاجأة : ولما هوه خاين يا فندم .. عاملينه سفير ليه ؟ قال السادات وهو يمضغ الكلمات ويعض عليها بشدة .. ماحنا بعتناه سفير عند واحد خائن زيه !! وعرفت من أنور السادات أنه تلقى عن السفير المصرى تقريرا كاملا وصف فيه سلوك العبد لله بأنه عملية هدم لكل ما بناه السفير لتوثيق العلاقات مع تونس خلال الفترة الماضية ، وقال لى السادات وهو ينقر بأصابعه على المكتب .. اكتب عن اللى شفته ما تخبيش حاجة .. وقلت للسادات وأنا أضع على مكتبه عدة أوراق مكتوبة .. أنا كاتب ستة موضوعات .. وأرجو أن أكون قد وفقت فى نقل صورة صحيحة عما رأيته وسمعته هناك .

وغابت الأوراق عشرة أيام ولا أدرى أين غابت ؟ ولكن السادات استدعانى بعد الأيام العشرة وسلمنى الأوراق وقال سلمها لمدير التحرير للنشر ، وتأكدت بعد النشر أن السادات لم يقرأ حرفا واحدا فيها ، وأن جهة أخرى هى التى قرأت المقالات ووافقت

على النشر ، بدليل أن السادات استدعاني بعد الضجة التي حدثت في أعقاب نشر الحلقات وقال لي : أنت قلت إيه في الحلقات ؟ دي المعارضة التونسية ح تطير من الفرحة ، أنا جالي بيجي ١٠٠ تلغراف .. كان ابراهيل طوبال أحد رموز المعارضة التونسية قد أرسل تلغرافا من ألف كلمة للرئيس جمال عبد الناصر ومثله لأنور السادات وانهالت التلغرافات على القيادة السياسية وعلى رئيس التحرير من المعارضين التوانسة في أوروبا وفي مختلف أنحاء العالم .

كانت المقالات الستة ضد بورقيبة وسياسته وأسلوبه في حكم تونس ، وكانت بعنوان « الرجل الأوحد في تونس» وهو اللقب الذي اقتبسه مني الشيوعيون العراقيون وأطلقوه على عبد الكريم قاسم بعد عشر سنوات ! وقلت في سلسلة المقالات «إن بورقيبة لم يترك أحدا حوله واقفا على قدميه حتى يبدو عملاقا وسط مجموعة من الراكعين» وقلت أيضا «إن بورقيبة أصبح هو شعب تونس كله وهو تونس نفسها والخروج على بورقيبة هو خيانة للوطن وللأمة» وقلت أيضا «إن بورقيبة سينتهي على المدى الطويل مسحولا في الشارع أو سجينا في أحد القصور» وهو الشئ الذي حدث بعد ذلك وبعد ثلاثين عاما على وجه التحديد .

ولكن ما حدث بعد نشر سلسلة المقالات هو الأمر الذي يدعو إلى العجب ، منعت من دخول تونس واحتل اسمي مكانا مرموقا في القوائم وهو أمر طبيعي ، وزارت المذيعة الكبيرة آمال فهمي تونس بعد نشر المقالات بعشرة أعوام وأرادت أن ترسل للعبد لله كارت بوستال من تونس ، فنصحها المستشار الإعلامي لمصر في تونس بعدم ذكر اسمي في أي مكان أثناء وجودها في تونس ، لأن ذلك سيعرضها إلى ما لا تحمد عقباه ! وسافر وفد مصري رسمي إلى تونس فطلب بورقيبة من رئيس الوفد تسليمه العبد لله لكي يحاكمني أمام محكمة الشعب التونسي لما بدر مني في حق تونس وشعبها الهمام !

ويعلم الله أنني لم أتعرض لتونس أو شعبها بكلمة واحدة . ولكن كل حرف كتبته كان يتعرض لبورقيبة شخصيا ، ولسلوكه في حكم تونس كقيصر من قياصرة روما أو ككسرى من أكاسرة فارس .

المهم أن كل هذا طبيعى ولا غبار عليه فنحن فى العالم العربى لا نقبل النقد ولم نتعود عليه ، ولكن المضحك حقا أن بورقيبة عزلوه بعد ذلك وسجنوه فى قصره بينما العبد لله لا يزال اسمه يحتل القوائم ، وما زلت ممنوعا من دخول تونس حتى الآن ، بالطبع حصلت محاولات من العبد لله لتصحيح الوضع ، آخر هذه المحاولات حدثت منذ شهر ، عندما التقيت فى مكتب الدكتور يوسف والى بوفد تونسى رفيع وحكيت قصتى مع تونس ، فأبدى رئيس الوفد دهشته وقال اعتبر المسألة منتهية ، وستكون فى تونس بدعوة منى عما قريب ، وحدد هذا الموعد القريب بأربعة أسابيع ، وكان اللقاء فى شهر مارس الماضى .

وقبل ذلك التقيت بسفير تونسى من الحرس القديم هو السيد الشاذلى زوكار وكان سفيرا لتونس فى صنعاء ، وقد التقيته فى حفل غداء أقامه على شرفى السيد حسن اللوزى وزير الإعلام اليمنى ، ووعد الشاذلى زوكار بحل المشكلة خلال أيام وطلب من العبد لله صورة لجواز السفر وسلمته الصورة بالفعل وكان ذلك فى فبراير عام ١٩٩٠ ، وعلمت أخيرا أن السفير الشاذلى زوكار ترك منصبه فى وزارة الخارجية وأصبح مثل حالى .. على المعاش .. ولكن بالرغم من ذلك ، فلابد للعبد لله أن يعترف بأن بورقيبة كان زعيما شعبيا من طراز مصطفى النحاس ، مع فارق بسيط وهو أن النحاس باشا كان خادما من خدام الديموقراطية وعلما من أعلامها ، ولو شاء مصطفى النحاس واستغل حب الجماهير له إلى حد الجنون لأصبح أعظم دكتاتور عرفه تاريخ المنطقة ، ولابد من الاعتراف أيضا بأنه كان سياسيا عمليا واقعيا ، وقد أثبت نجاحه عندما قبل الاستقلال الذى عرضته فرنسا بينما رفضه المرحوم صالح بن يوسف السياسى الحالم المثالى ، وقال بورقيبة كلمته المشهورة «يكفينا الآن أن نصبح أعضاء فى الأمم المتحدة وأن نرفع علمنا الوطنى ، ثم بعد ذلك نتقدم خطوة خطوة إلى الأمام ، ونستطيع كدولة مستقلة أن نقدم عونا أكبر للجزائر المستعمرة ولشعبها المناضل». وأثبتت التجارب أن بورقيبة كان على حق وأن نظريته كانت هى الصحيحة ، ولقد سعى بورقيبة بكل وسيلة إلى وحدة المغرب العربى التى أطلق عليها وحدة «الكسكسى والجلباب !!» . وكان يعتقد أن المغرب العربى أقرب إلى أوروبا منه إلى

المشرق العربى ، وأن من الخير للمغرب العربى أن يبتعد عن المشرق العربى ومشاكله ، وكان من رأيه أن مشكلة فلسطين هى بؤرة مشاكل المشرق العربى ، ولذلك دعا إلى عقد الصلح مع إسرائيل متصورا أن إسرائيل دولة طبيعية تريد الصلح وتسعى إليه ، وكان هذا هو الخطأ الذى وقع فيه بورقيبة ، والدليل على ذلك أن كل المحاولات التى بذلت مع إسرائيل باءت بالفشل . لأن الحقائق تقول إن الصلح ليس مطلبا من مطالب إسرائيل ، كما أنه ليس فى صالحها !!

على العموم وأيا كان الرأى فى الزعيم بورقيبة فالذى لا شك فيه أنه زعيم تاريخى من زعماء المغرب العربى ، وأنه عانى طويلا وشرب المر ، واستطاع فى النهاية أن ينتزع استقلال تونس من براثن الذئب الفرنسى ، واستطاع أن يمضى بها قدما إلى الأمام ، وكان علامة على مرحلة شهدت موجات عاتية وقلاقل رهيبة ، فقد كانت مرحلة مخاض انتهت بولادة دول المغرب الثلاث وتحرير ليبيا من الاستعمار الثلاثى وتحرير اليمن الجنوبى وخروج الانجليز من الخليج ، وقفز العالم العربى بعدها إلى الصدارة كقوة اقتصادية .

ولا يزال الحديث ممتدا على رموز تلك المرحلة ، وحديثنا القادم عن الرئيس شكرى القوتلى الرجل الطيب الذى أخلى مكانه كرئيس طواعية ليمهد الطريق لقيام أول وحدة عربية فى العصر الحديث !

التجــربة المــرة

سيكون وصولنا إلى اليمن عن طريق الأردن ، فقد سبق للعبد لله قضاء شهر كامل فى الأردن ، لمتابعة أول عملية انتخاب حرة مباشرة لاختيار أعضاء مجلس النواب الأردنى ، وكانت الأردن قد شهدت عدة تطورات سياسية هامة بعد طرد الجنرال جلوب الشهير بأبوحنيك ، وتولى الجنرال على أبو نوار رئاسة الأركان ، وقد جرت الانتخابات فى جو من الحرية واستطاع عشرات من النواب الوطنيين الوصول إلى مجلس النواب من بينهم أربعة أعضاء من حزب البعث على رأسهم منيف الرزاز وعبد الله الريماوى كوزير للخارجية .

وكان الريماوى صديقا للأستاذ محمد عودة ومن خلاله تعرفت على الريماوى ، وحدث أنه فى المرة الأولى التى تعرفنا فيها على الريماوى فى عمان كان المشير عامر يزور العاصمة الأردنية لتوقيع ميثاق الدفاع المشترك مع الأردن ، ثم حدث أننا غادرنا عمان بعد توقيع الاتفاق فى طائرة حربية إلى القدس ، ثم استأنفنا الرحلة إلى دمشق ، حيث وقع المشير عامر معاهدة دفاع مشترك مع سوريا ، وفى المساء سافرنا بالسيارة إلى بيروت لقضاء يوم هناك على أمل أن المشير سيقضى عدة أيام فى دمشق ثم نلحق به بعد زيارة بيروت لنستقل الطائرة الحربية عائدين معه إلى القاهرة ، ولكن لأن الشاعر العربى يقول .. وتقدرون فتضحك الأقدار ، فقد حدث عكس ما توقعنا ، سافرنا إلى بيروت وقضينا اليوم كله نمرح فى شوارعها ، ونتردد على مشاربها ومطاعمها ، ولم ندخل فراشنا إلا فى الصباح ، وبالطبع لم نستيقظ من النوم إلا فى الرابعة بعد الظهر ، وعندما نزلنا إلى بهو فندق بريستول كانت الساعة قد بلغت السادسة مساء وفجأة ونحن نرتشف فنجان القهوة دخل سعد الدين وهبة الفندق ، وما أن رآنا حتى صاح :

– انتوا لسه قاعدين هنا ؟

أجبناه بأننا على وشك السفر إلى دمشق لكي نلحق بالمشير الذى قد يسافر غدا صباحا إلى القاهرة ، وأجاب سعد وهبة :

- المشير سافر من ساعات ، وموجود فى القاهرة بالفعل ، والحرب قامت بين مصر واسرائيل ..

هرولنا جميعا إلى جهاز الراديو ، واكتشفنا أنه يذيع موسيقى عسكرية وأغانى وطنية ، وبين الحين والآخر كان يذيع أخبارا عن المعارك الحربية الدائرة فى سيناء ، ولن أطيل عليكم بسرد أحداث العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، ولكننا باختصار شديد اضطررنا إلى البقاء فى بيروت لمدة شهر ونصف ، أصدرنا خلالها جريدة الجمهورية لسان حال جمال عبد الناصر ، ولم نعد إلى القاهرة إلا بعد فتح المطارات المصرية ، ولكن (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) فعندما سمع المشير أنباء الغزو الإسرائيلى لمصر أقلع بطائرته على الفور وعاد للقاهرة عن طريق الأردن والسعودية ، ثم أقلعت بعده بقليل طائرة الصحفيين وطاقم الحراسة والمرافقين ، ولكنها اتجهت إلى مصر عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الطائرة بالذات هى التى كان من المفروض أن نستقلها .. محمد عودة وسامى جوهر والعبد لله .. ولم تصل هذه الطائرة إلى مصر حتى الآن ، ولم يعرف أحد مصيرها فى أى وقت ، أما الصحفيون الذين كانوا على متنها فقد اعتبروا أحياء وظلوا يصرفون مرتباتهم حتى عام ١٩٦٧ ، ثم اعتبروا بعد ذلك من الشهداء ، ونجونا من الموت بسبب عدم التزامنا بالمواكب الرسمية ، المهم أننى قضيت فى القاهرة أسبوعا ثم عدت مرة أخرى إلى عمان وكان أول من سـعيت إلى لقـائه وزير الخارجية عبد الله الريماوى ، وما أن رآنى حتى شهق مفزوعا وقال :

- ما كنت ضمن ركاب الطائرة المفقودة ؟

وحكيت له قصة ذهابنا إلى بيروت وتخلفنا عن ركب المشير ، بعد ذلك صافحنى الريماوى بحرارة وأكد على ضرورة دعوة محمد عودة لزيارة عمان خلال الأيام القادمة.
وقابلت الريماوى مرة أخرى فى سوريا بعد ذلك بأسبوعين ، وما أن رآنى حتى صاح مدهوشا :

- أنتم ما كنتم فى طائرة المشير ؟

أجبته بأننا لو كنا فى طائرة المشير ما كنت أقف أمامه الآن .

- ومحمد عودة ما مات ؟

أجبته بأنه حى يرزق وفى أحسن حال ، فحمد الله وأثنى على رسوله الكريم وقال قبل أن يستأذن فى الانصراف :

- لابد من دعوة محمد عودة إلى عمان خلال الأيام القادمة .

والذى حدث أننى قضيت فى سوريا شهرا ثم ذهبت إلى عمان والتقيت عبد الله الريماوى مصادفة عند أحد الأصدقاء وما أن رآنى حتى هتف من هول المفاجأة :

- أنتم ما كنتم فى طائرة المشير ؟

وحكيت له مرة ثالثة ما كان من أمرنا حين تركنا موكب المشير وسافرنا إلى بيروت ، ثم إقلاع الطائرة بدوننا ، ثم سقوطها فى البحر ، فحمد الله وأثنى على رسوله الكريم وقال :

- لابد من دعوة محمد عودة إلى عمان خلال ها الأسبوع ..

تغير عبد الله الريماوى كثيرا بعد أن تولى منصب وزير الخارجية ، عندما رأيته أول مرة كان يسكن فى فندق فى منطقة منعزلة بعيدة عن قلب العاصمة الأردنية ، وهو فندق فى مستوى فندق الكلوب العصرى فى شارع كلوت بك ، وكان بسيطا ومتواضعا ويتمتع بذاكرة من حديد ، فى تلك الليلة التى اجتمعنا فيها فى بيت صديقنا المشترك كان يرتدى بدلة فاخرة وربطة عنق من نوع سولكا وكان يأكل بحساب ويتكلم بحساب .. وبات واضحا بعد توليه المنصب أن ذاكرته لم تعد تستوعب ما حدث للناس الهاربكش أمثال محمد عودة وأمثال العبد الله ، أغرب شئ أننى التقيته بعد ذلك بسنوات فى القاهرة وما أن رآنى حتى هتف مذعورا:

- ما كنت فى طائرة المشير ؟

ولم أرد عليه هذه المرة ، وفتحت موضوعا آخر لا علاقة له بمحمد عودة ولا بطائرة المشير ..

المسئول الآخر الذى توثقت صلتى به فى عمان كان منيف الرزاز .. والعبد لله كان على صلة بمنيف الرزاز عندما كان طالبا يدرس الطب فى القاهرة ، وكان صديقا لعدلى المولد المحامى والمنتج السينمائى الآن ، وكان منيف الرزاز دائم التردد على منزل عدلى المولد ، وتعرفت عليه فى تلك الأيام ولفت انتباهى حلمه الدائم بدولة عربية واحدة ممتدة من الخليج إلى المحيط ، والحق أقول إننا فى تلك الأيام لم نكن نعرف أين المحيط وأين الخليج على وجه التحديد ! وعندما رأيته فى عمان اكتشفت أن ذاكرته قوية وأنه يحفظ كل التفاصيل الدقيقة عن الفترة التى عاشها فى الجيزة مع عدلى المولد ، واكتشفت أيضا أنه على عكس زميله عبد الله الريماوى شديد التشاؤم بالنسبة لمستقبل الأوضاع فى الأردن وأنه يؤمن إيمانا لا شك فيه بأن فترة الانفتاح الديموقراطى فى الأردن ما هى إلا مناورة من الملك حسين بعدها تعود الأوضاع إلى أسوأ مما كانت عليه ، وبالفعل انتهت تلك الفترة الديموقراطية على النحو الذى تنبأ به منيف الرزاز .. وانقطعت أخباره عن العبد لله ولم أقابله منذ عام ١٩٥٧ إلا فى عام ١٩٧٧ وفى بغداد ، خلال تلك الفترة التى غاب فيها عنى ارتكب منيف الرزاز جريمته الكبرى التى دفع حياته ثمنا لها فى عام ١٩٨٠ .. فقد استدعى ذات يوم على عجل إلى دمشق ، وطلب إليه أن يتولى رئاسة القيادة القومية خلفا لميشيل عفلق ، وقبل منيف الرزاز المهمة وشمر عن ساعديه ، وراح يعمل بكل ما أوتى من قوة لإعادة الروح إلى حزب البعث الميت ، ومن أجل ذلك طاف بريف سوريا ، قرية قرية ، وقابل جميع البعثيين فردا فردا، ثم خرج من التجربة بكتاب «التجربة المرة» وهو فى رأى العبد لله أخطر كتاب سياسى عربى فى الخمسين سنة الأخيرة ، والسر فى خطورته أنه وثيقة تاريخية عن عجز وضعف وفشل حزب البعث بقلم رئيس القيادة القومية لحزب البعث منيف الرزاز ، وألقى منيف الرزاز تبعة هذا الفشل على عاتق ميشيل عفلق الذى ارتضى بالجلوس على كرسى الزعيم دون سلطات حقيقية ، والذى وافق على بيع يافطة الحزب لبعض العسكريين ليحكموا من خلالها ، وهكذا صار الحزب بفضل ميشيل عفلق حزبا

عسكريا فاشستيا لا صلة بينه وبين الجماهير إلا صلة القمع والسحل والشنق ، ولم ينس ميشيل عفلق لمنيف الرزاز هذا الموقف وصمت طويلا حتى استطاع أن يستدرجه إلى بغداد ، وأن يعينه نائبا لرئيس القيادة القومية ثم سلمه للموت فى أول فرصة عندما اتهمه بأنه على علاقة بالمتآمرين أمثال غانم عبد الجليل وعدنان حسين ومحمد محجوب ومحمد عايش وعبد الخالق السامرائى ، ولما كان منيف الرزاز هو النائب لرئيس القيادة القومية ولا تجوز محاكمته إلا أمام القيادة القومية ، فقد قتلوه ليلا داخل زنزانته ودفنوه فى قبر مجهول ، أذكر أننى بعد سجنه بقليل قابلت أحد أعضاء القيادة القطرية لحزب السحل العراقى وطلبت من الرجل مساعدتى فى الحصول على إذن لزيارة منيف الرزاز ، وقلت له إننى كنت على صلة بالرجل منذ مرحلة الشباب ، وإننى على صلة بالرجل فى بغداد وكنت أتردد عليه فى منزله ، وأسهر معه أحيانا فى نادى الفروسية وفى نادى العلوية ، ونظر الرجل نحوى طويلا ثم قال :

– اطمئن يا محمود .. صاحبك مرتاح .. ومد الألف مدا طويلا ونطقها على النحو التالى : مرتا اااح !

عندئذ أدركت أن منيف الرزاز قد غادر دنيانا وأصبح فى رحاب الله ، يرحمه الله ، أحد شباب العرب الذين اشتغلوا بالسياسة وسط غابة من الحيوانات المفترسة والوحوش الكاسرة ، وكان حالما وطموحا ، وقد قاده طموحه إلى حتفه فى آخر الأمر ومات شهيد كتابه القنبلة «التجربة المرة» ولا أعرف السبب الذى يمنع دور النشر العربية من طبعه فى مئات الألوف من النسخ وتوزيعها على الشعب العربى ، لكى يتعرف الشعب المخدوع على حقيقة حزب السحل بشهادة قائده وزعيمه ورئيس قيادته القومية .. الشهيد منيف الرزاز !

المفـــتش العـــام!

كانت رحلتى إلى اليمن بعد نجاح الثورة اليمنية فى الاستيلاء على السلطة بوقت قصير ، وكان العبد لله ضمن وفد صحفى يضم الفنان الكبير حسن فؤاد والأستاذ صبرى أبو المجد ، وحدثت لنا حكاية غريبة فور هبوطنا فى مطار صنعاء ، فقد فوجئنا ونحن نهبط سلم الطائرة الحربية الضخمة «انتينوف» بضابط برتبة عقيد يرجونا الانتظام فى صف طويل تحت جناح الطائرة وعلى مقربة من السلم ، وبعد قليل فوجئنا بأن الطائرة التى جاءت بنا إلى اليمن قد ابتعدت عن مكانها واتخذت لنفسها موقعا بعيدا فى ركن من أركان المطار ، وجاءت طائرة أخرى من طراز كومبيت وتوقفت على مقربة منا ، وجاء العقيد وأمرنا بالانتظام فى صف طويل تحت جناح الطائرة الجديدة ، ولم يكن هناك أمامنا فرصة للرفض أو القبول لأنه أمرنا بلهجة عسكرية وكأننا عساكر فى الصف الأمامى من جبهة القتال ، وعندما انتظمنا فى الصف تحت جناح الطائرة مباشرة ، أقبلت علينا سيارة عسكرية ، فخيمة ترفع علما وتتبعها عدة سيارات ، ويحيط بالجميع طابور من سيارات الجيب يستقلها جنود من البوليس الحربى وفوجئنا بالسيارة الفخيمة تتوقف قبل أن تصل إلى الطابور وينزل منها المشير عبد الحكيم عامر من الناحية اليمنى ، بينما ينزل أنور السادات من الناحية اليسرى ، ونزل من السيارة التى كانت تتبع سيارة المشير مباشرة قائد كبير بقبعته العسكرية الملفوفة بشريط أحمر وعرفنا فيما بعد أنه اللواء عبد الغنى قائد القوات المصرية فى اليمن ، وتقدم اللواء الموكب وراح يمشى أمام المشير والسيد أنور السادات حتى وصل إلى أول الطابور فتراجع إلى الخلف ، بينما راح المشير وأنور السادات يصافحان ركاب الطائرة القادمة من القاهرة باعتبارهم مودعين للسيد المشير ، وصافح المشير العبد لله كما صافح الآخرين ، ولكن عندما وصل أنور السادات إلى حيث يقف العبد لله نظر نحوى مندهشا وقال :

– أنت بتعمل إيه هنا يا محمود ؟

– أنا لسه ما عملتش حاجة .. أنا يادوب نازل من الطيارة من خمس دقايق .

– طيب كويس إن ربنا بعتك .. اسمع .. أنت ماتخرجش من اليمن إلا لما تعرف لنا إيه الحكاية .. إحنا عاوزين نعرف إيه حكاية بتوع اليمن دول .. الناس دى إيه ؟ بيضحكوا ؟ بيعرفوا النكتة ؟ بيتكلموا ؟ ما فيش حد ها يعرف حقيقة الناس دى إلا واحد زيك .

ثم أشار إلى الضابط العقيد الذى أمرنا بالاصطفاف تحت جناح الطائرة وكان يدعى رشدى حسان على ما أتذكر وقال له :

– ما تسمحوش للسعدنى بالخروج من اليمن إلا لما يلفها كلها ويعرف لنا إيه الحكاية .. صافحنى بحرارة شديدة قبل أن يترك اليمن كلها ويصعد الى الطائرة ، ولا أعرف ما الذى فهمه العقيد رشدى حسان من كلام أنور السادات تماما .. كان السادات يعنى من وراء الأمر الذى أصدره للعقيد رشدى حسان أن أطوف اليمن كلها .أختلط بناسها وأتردد على مجالسهم ، وأحضر جلسات القات فى بيوتهم . ولكن يبدو أن رشدى حسان تصور أن السادات يريد من العبد لله الذهاب الى مواقع القوات والاختلاط برجال الجيش واكتشاف حقيقة الأوضاع التى يعانون منها ، وبالتالى تصور أننى أحد رموز السلطة الرسميين من أصحاب المناصب الرفيعة ، وأننى مسئول خفى وربما أكون مسئولا عن جهاز لا يعرفه أحد ، ولكنه الجهاز المشرف على أجهزة الأمن كلها !! وبعد أن طارت طائرة المشير والسادات واستأذن منى العقيد دقائق عاد بعدها وهمس فى أذنى بأنه رتب إقامة مريحة للعبد لله باعتبار أنها ستكون إقامة طويلة .

ولذلك – هكذا قال – ستكون إقامتى فى ميس الضباط بسلاح الطيران ، لأن المستوى هناك يليق بحضرتى ، على حد تعبيره ، أما أفراد السكرتارية .. وأشار إلى حسن فؤاد وصبرى أبو المجد ، فستكون فى استراحة الجيش !! وانتهز العبد لله الفرصة ورسمت علامات الأهمية الشديدة على وجهى وقلت للعقيد :

– شوف بقى لما أقولك .. أنا باشتغل بالناس دى .. واحد فيهم ذراعى اليمين والثانى ذراعى الشمال ، يا نقعد مع بعض يا نسافر مع بعض .

اعتذر لى السيد العقيد بشدة ثم استأذن لعدة دقائق ، وغاب ثم عاد وبشرنى بأن الأوامر صدرت أن يقيم أفراد السكرتارية حيث أقيم . وأقمنا فى ميس الضباط وخصصوا لمرافقتنا فى الرحلة «ضابط طيار» ، هو الكابتن عصام بهيج لاعب ومدرب نادى الزمالك الشهير ، واستمتعت بصحبته كثيرا ، وتعرفت من خلاله على ضابط آخر برتبة عقيد من سلاح الإشارة ، اسمه على ما أتذكر صلاح مصطفى ، وأذكر أنه كان من أعظم الرجال الذين صادفتهم فى حياتى .. وبدأت رحلتنا من صنعاء إلى تعز إلى إب إلى صعدا ، وفى كل موقع عسكرى نزوره نشاهد أفراد القوة فى حالة يرثى لها ، كانوا يفرشون أوراق الجرائد على الأرض ليأكلوا عليها ، ويشربون الشاى فى كيزان صفيح ، أما طعامهم فهو علب سلمون وجبنه بيضاء وعسل أسود ، ورثيت لحال القوات المصرية فى اليمن ، ولم أكتشف أن ما رأيته بعينى رأسى فى مواقع القوات المصرية فى اليمن كان مجرد تمثيلية كبيرة للضحك على ذقن العبد لله ، حتى أرفع فى تقريرى إلى الجهات العليا ما شاهدته من مظاهر البؤس والفاقة . وعندما تأكدوا أننى رأيت ما أرادوا أن يطلعـونى عليه ، سمحوا لى بالتجوال خارج حدود الدائرة التى رسموها للعبد لله .

كان أول لقاء لى مع الشيخ على ناجى القوصى زعيم قبائل الحدا ، وهو رجل اللهم صلى على سيدنا النبى فى حجم المرحوم خضر التونى بطل العالم فى حمل الأثقال .

وكان لحظة لقائى به قد تجاوز السبعين بكثير ، ولكنه كان نشيطا نشاط شاب فى الأربعين ، ذهبنا إليه فى بيته فى قرية قريبة من صنعاء وأدهشنى أن القرية تقع فى حضن جبل ، وأنها نظيفة نظافة المدن الأوروبية ، والبيوت شيدت بهندسة راقية تدل على حضارة عريقة ، ومستوى أهل القرية يفوق مستوى أهل القرية المصرية بمراحل كثيرة .. كان الجميع يرتدون أحذية جيدة الصنع ، ويلبسون الزى اليمنى .. جاكتة وغطاء رأس ، والملابس نظيفة وكلها فى حالة جيدة . كان مع الشيخ على شقيقه ، وكانت الملامح توحى بأنهما شقيقان بالفعل ، رغم أن شقيق الشيخ على كان ضامر الجسم ، أما العيون فهى زرقاء والبشرة بيضاء ، وكأنهما أوربيان هبطا فى مركبة فضاء على سطح اليمن ، أما الغداء فكان مكونا من خروف سمين للغاية وعدة أطباق

تحوى خضراوات ، والى جانب الأوزى لحم آخر اسمه اللحم الحنيد ، أما الطبق الذى استرعى انتباهى فهو طبق يحمل لونا من ألوان الطعام يشبه الملوخية فى مصر ثم تبينت أنه حلبة خضراء مطبوخة ، قال لى الشيخ على القوصى إنها تسهل عملية الهضم وتحمى الآكلين من ثورات المصران الغليظ ، واقتطع الشيخ على جزءا من الخروف فى حجم أربعة أرطال وقذف به فى حضن العبد لله ، ثم فعل نفس الشئ مع حسن فؤاد وصبرى أبو المجد ، أما مرافقنا العسكرى وهو العقيد محمد عبد الله فقد أكل بطريقة بسيطة وتلقائية وكأنه واحد منهم ، وقصة هذا الضابط الهمام ينبغى أن تروى .

فقد ذهب إلى اليمن فى أول أيام الثورة برتبة مساعد فى سلاح الصيانة ، ولكنه اختلط باليمنيين وصادقهم وأصبح واحدا من قبيلة الحدا وتزوج إحدى بناتها ، وأصبح خبيرا فى شئون القبائل ، ورفعوه إلى رتبة ضابط وظل يترقى إلى رتبة عقيد . ولكنه لم يرتد زى الضباط قط ، كان يرتدى الفوطة والجاكتة والعمامة اليمنية وينتعل صندلا فى قدميه ويعيش حياته كيمنى أصيل ، المهم أننا تناولنا الغداء ، ثم جاءوا بأصناف كثيرة من الحلوى على رأسها «أم الصحن» وهى نوع من الفطير يشبه الفطير المشلتت المصرى . وإلى جانب الفطير صحن زبدة وصحن قشطة وصحن عسل أبيض ، وهو ليس عسلا عاديا ، ولكنه عسل من إنتاج النحل البرى الذى يسكن قمم الجبال فى اليمن ، أما الشيخ على القوصى نفسه فقد أكل لية الخروف السمين . أمسكها بيديه وراح يقضم فيها على مهل حتى أتى عليها ، وبينما كانت أصابعه تنزف دهنا وكأنه غسلهما فى نهر من السمن ، اذ به يخلع عمامته ، واذ بشعر رأسه ينسكب على كتفيه ، أسود ناعما غزيرا ، ثم راح يمسح شعره بأصابعه ، وعندما جف شعره ، راح يتخلل شعر لحيته بأصابعه ، ثم وضع العمامة على رأسه وحمد الله وشكر فضله .. أما الرجل الثانى الذى عرفته فى اليمن فهو على العواضى وزير الحربية فى اليمن . كان قصيرا بشكل لافت للنظر . ويرتدى الجلباب ويتحزم بحزام . وكان لقائى به فى جلسة قات فى منزل بالقرب من ساحة الملح ، ونحن جلوس نخزن مع وزير الحربية دخل أحد رجال مكتبه ومال على ودنه بينما شدقه منفوخ بالقات والمداعة فى فمه ، وهمس الرجل فى أذن الوزير بكلمات لم أفهم معناها فأجاب الوزير بكلمات قصيرة :

بز راس أبوه ثم عاد إلى مضع القات وتدخين المداعة وجلسنا مع الوزير بعض الوقت ثم استأذنا فى الانصراف وعند اقترابنا من ساحة الملح وجدنا زيطة وزمبليطة وبعض الصبية يدحرجون كرة على الأرض ومئات غيرهم يشاهدون ويهللون ويصفقون ويهتفون ، ولما اقتربنا منهم اكتشفنا أنهم لا يدحرجون كرة ولكنهم يدحرجون رأس انسان ، كان الدم لا يزال ينزف منها ثم علمت أن هذا التعيس هو أحد جنود الامام البدر وأنه تسلل إلى صنعاء لزيارة بعض أقاربه ، ولكن البعض أرشد عنه وألقوا القبض عليه ، وهذا الرجل الذى جاء فى جلسة القات وهمس فى أذن وزير الحربية أخبر الوزير بنبأ القبض على هذا المفسد ، وكانت عبارة بز راس أبوه هى الحكم الذى أصدره الوزير ضد هذا المفسد التعيس . وقد جرى تنفيذ الحكم على الفور وجاء التنفيذ فى ساحة الملح على بعد خطوات من المنزل الذى جلسنا نخزن فيه .. الوزير على العواضى جاء إلى القاهرة بعد ذلك والتقيت به عدة مرات وسافر إلى الاسكندرية وكان محافظها هو المرحوم حمدى عاشور وكانت التعليمات الصادرة الى المحافظ من القيادة العامة للقوات المسلحة فى مصر تتلخص برعاية وزير الحربية أثناء زيارته وتلبية جميع رغباته .. فى أول يوم لزيارة الوزير للاسكندرية وبعد أن اصطحبه المحافظ لمقر إقامته . سأل الوزير المحافظ : أمال فين البنات ؟

وضربت لخمة مع المحافظ حمدى عاشور فلم يعرف كيف يرد ، ولكنه اكتفى بترديد كلمة حاضر حاضر ، وذهب المحافظ الى مكتبه ليلا واستدعى موظف العلاقات العامة وأمره بالتقاط فتاتين من إياهم ، من بين المتسكعات على كورنيش البحر بالليل وإرسالهما إلى مقر الوزير مع التنبيه عليهما بعدم تقاضى أى مليم من الوزير ، ولكن حدث شئ رهيب لا يخطر على البال ، ووقع حمدى عاشور فى حيص بيص . وفكر حمدى عاشور فى الاستقالة لكى يتخلص من هذا المأزق الخطير .

ليلى بنت الشوارع !

فى صباح اليوم التالى كان وزير الحربية قد شبك مع بنت من البنتين «إياهم» وبالطبع حكت للوزير عن عائلتها المحافظة التى تؤمن إيمانا لا حد له بأن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم . وبالطبع تعلق قلب الوزير بهذه البنت السنيورة التى نشأت وترعرعت وتقلبت فى أحضان النعيم ، وعاشت حياتها من البيت لأعمدة النور فى شارع الكورنيش ومن أعمدة النور إلى البيت . وبعد أن ودعت البنت الوزير على وعد بلقاء فى المساء ، استدعى الوزير السيد المحافظ وأبدى له رغبته بالزواج من هذه الوردة البرية البريئة ، ووعده المحافظ بدراسة الأمر وعمل كل ما يلزم عمله لعقد قران السيد الوزير على الزهرة البريئة فى أقرب وقت . وخرج المحافظ إلى مكتبه واستدعى موظف العلاقات العامة ، وبعد أن عرف كل التفاصيل ، أمر بوضع حراسة مشددة حول بيت الوزير للقبض على البنت إذا حاولت العودة ، ثم اتصل بالقيادة العامة بالقاهرة وأبلغها بتفاصيل الورطة . وبعد التشاور والتفاهم اتفق الجميع على حل ، وفى المساء توجه المحافظ إلى حيث يقيم الوزير ،. وأبلغه أن البنت للأسف الشديد فى موقف صعب للغاية ، وقد تتعرض للقتل بين لحظة وأخرى بعد أن اكتشف أهلها أنها قضت الليل خارج المنزل ، وتحمس الوزير وأبدى استعداده للذهاب فورا إلى بيت العائلة وعقد قرانه عليها فى نفس الليلة . ولكن المحافظ طلب من الوزير أن يتحلى بالصبر لأن المسألة ليست بهذه البساطة ، وأنه سيحاول بنفسه حل مشكلة البنت مع أهلها أولا ، ثم بعد ذلك يقوم بتمهيد الطريق لعقد قران الوزير على الفتاة .

وتساءل الوزير عن المدة التى تكفى لإنجاز المهمتين ، فأمهله المحافظ ثلاثة أيام . وفى اليوم الموعود طلبت القيادة العامة فى القاهرة من وزير الحربية اليمنى

العودة فورا إلى القاهرة لأمر هام . وبالفعل سافر الوزير إلى القاهرة بعد أن وعد بالعودة إلى الإسكندرية فى اليوم التالى ولكن الوزير ذهب ولم يعد بعد ذلك ، ولم تكتحل عيناه برؤية الإسكندرية فى أى وقت . والسبب أن القيادة العامة فى القاهرة أشارت على وزير الحربية بالسفر فورا إلى صنعاء ، لأن الموقف العسكرى فى اليمن يتطلب وجوده هناك . المهم أن الوزير بعد عشرة أشهر من سفره إلى صنعاء ، ألقوا القبض عليه وزجوا به فى السجن نتيجة صراعات فى السلطة . وانعقدت محكمة لمحاكمة الوزير ، وخلال المحاكمة وأثناء عودة الوزير من المحكمة إلى السجن ، هجم عدة مئات من اليمنيين على السيارة التى تقل الوزير إلى سجنه وأخرجوه منها عنوة وذبحوه ذبح الشاة ، وفصلوا رأسه عن جسده ، ولعب الصبية برأسه مباراة كرة قدم فى ساحة سوق الملح وفى نفس المكان الذى رأينا فيه نفس الصبية يلعبون فيه برأس المواطن اليمنى الذى أمر الوزير بقتله قائلا .. بز راس أبوه !.

يا سبحان الله ، وكما تدين تدان . ويمهل ولا يهمل . وهذا الوزير الذى أعطى لنفسه حق إصدار الحكم على بنى آدم بالموت وبدون محاكمة وبدون تحقيق أو دفاع ، يلقى نفس المصير بعد شهور قليلة ، ويذهب وزير الحربية فى الكازوزة ، وكما جاء من المجهول ذهب إلى المجهول ، فلم يكن له سابقة فضل فى الجهاد قبل الثورة ، ولم يكن من رجال الجيش عند قيام الثورة أو بعدها ولكنه كان قائدا لطابور من أبناء القبائل ، وكان يلقط رزقه من هذا الطابور . وكان يحارب على كل الجبهات ومن كل الخنادق . أسبوع مع الإمام البدر وأسبوع مع الثورة ، ولأنه كان خبيرا بمسالك الجبل ودروبه ، فقد قررت حكومة الثورة أن تكتفى شره ، فعينوه وزيرا للحربية كمنصب شرفى ، ولكن يبدو أنه صدق بالفعل أنه وزير للحربية ، ويبدو أيضا أنه تطلع إلى منصب الرئيس ، وكانت هذه هى غلطته الكبيرة والأخيرة ! .

ولكنه والحق يقال كان رجلا شجاعا وكان شديد المراس فى الحرب رغم أنه لم يتعلم فى مدرسة عسكرية ، ولكنه كان عسكريا موهوبا ، وكانت لديه قدرة فذة

على قيادة الجنود ووضعهم تحت سيطرته ، وكإنسان كان خفيف الدم للغاية ومحبا للرمح ، عاشقا للسهر وصاحب مزاج ، وكان ودودا مع أصدقائه ، ولكنه إذا انقلب على أحدهم لسبب من الأسباب ، فيا داهية دقى ويا مصايب انزلى !

أما الرجل الثانى الذى تعرفت عليه فى اليمن فى تلك الفترة ، فهو شيخ الراهدة ، وكان يزن أكثر من طن ويزحف نحو الثمانين من عمره ، وعندما دخلنا عليه فى منزله ، حسن فؤاد وصبرى أبو المجد والعبد لله ، وصحفى شاب رافقنا فى تلك الزيارة ، كان الشيخ يجلس على الأرض ومعه ضابط كبير يرتدى جاكتة عسكرية على السروال ، وأمامهما كمية كبيرة من أعواد القات . وحين رأى الصحفى الشاب هذه الكمية الكبيرة من القات ، صاح مستنكرا :

– بتاكلوا قات ؟

وانتفض الشيخ العجوز غاضبا :

– أنت مصرى حشاش ما تستحى .

وصاح الصحفى الشاب بسذاجة :

– لأ .. أنا مش حشاش .. ولا حتى بأدخن سجاير .

وقلت لشيخ الراهدة فى محاولة لاسترضائه :

– أنا حشاش وهاكل قات معاكم ، نظر نحوى الرجل نظرة ذات معنى وقال :

– تاكل قات والا مجاملة ؟.

– ليس فى الأمر مجاملة .. سنأكل القات معكم .. وسترون أننا سنهزمكم بإذن الله .

هدأ الشيخ ودعانا للجلوس ونادى على خادمه وأشار عليه بالذهاب إلى السوق وشراء كمية من القات الهررى المستورد الغالى الثمن ، ثم قال لنا ونحن نمضغ أوراق القات ، وفى الوقت نفسه نحاول المستحيل لإخفاء جهلنا بطريقة استخدامه ، قال لنا الشيخ وهو يشير نحو مقعد كان يجلس عليه حسن فؤاد :

– جمال عبد الناصر زارنى هنا وجلس على هذا المقعد، وقلت له فى مواجهته: إن الملك أحمد كان يحكم اليمن أفضل منك ، لأنه كان يستخدم العصا الغليظة ، أما أنت فأسلوبك لا يصلح لحكم اليمن ! .

وسكت الشيخ لحظة ريثما تناول نقطة من الماء فى فمه المحشو بأوراق القات ثم بصق فى وعاء بجانبه ثم قال :

– وسألنى عبد الناصر .. وماذا تقترح ؟

قلت له .. استخدم السيف يارجل .. واقطف به الرءوس التى أينعت وحان قطافها ، ثم اعتدل شيخ الراهدة ومد ساقه اليمنى وقال :

– وضحك عبد الناصر وقال ... هذا العصر ولى ياشيخ ..

وواصل شيخ الراهدة حديثه ، فأثنى ثناء شديدا على الملك أحمد ووصفه بأنه كان أسد اليمن ، ولذلك لم تنجح أى حركة انقلابية ضده . وهاجم الإمام البدر ووصفه بالولد الذى لا يصلح لشىء ، وقال إنه حتى لو عاد إلى حكم اليمن مرة أخرى فلن يستمر أكثر من بضعة أشهر .

وعندما جاء الغداء ، استأذنا فى الذهاب إلى دورة المياه . وأفرغنا هناك ما تبقى فى أفواهنا من أوراق القات . وحاولنا الانصراف بعد الغداء لنعود إلى مدينة تعز ، ولكنه رفض تماما وأقسم أن نبيت عنده تلك الليلة . وفى المساء جلسنا معه ومع عشرات من وجوه الراهدة وغيرها من المدن القريبة . ولاحظت أنه مستمع جيد وحاسم عندما يقضى فى أمر من الأمور . ولاحظت أيضا أن الجميع يهابونه ويخشونه . وعندما انصرف الناس ، اختلى بنا وراح يتحدث عن أحوال اليمن ، فهاجم الفريق حسن العامرى هجوما شديدا ، وهاجم القاضى الايريانى ووصفه بالذئب ، ووصف البيضانى بالمخادع . وقال : لقد خدع الإمام فى الماضى ، ويواصل الآن خداعه للحكم الجديد . وفى النهاية طرح نفسه كبديل للحكم القائم ، وقال وهو يخبط بيده على صدره :

– لو كنت أنا الذى أحكم صنعاء ، لسلمتها لعبد الناصر مقشرة ولوفرت عليه كثيرا من النفقات .، وصمت لحظات ثم قال :

- هل تستطيعون نشر هذا الكلام ؟

وعندما لزمنا الصمت عاد يقول :

- أنا أعلم أنكم لا تستطيعون ، مشكلتنا جميعا أننا نعلم الحقيقة ولكننا لا نستطيع تغييرها . والمشكلة فى اليمن أن هؤلاء الذين يحكمون لا يقتنع بهم أحد لا من المعارضين ولا من المؤيدين ، واليمن تحتاج إلى رجل قوى .

ولما التزمنا الصمت ولم نرد عليه ، قال وعلى شفتيه شبح ابتسامة :

- أنتم أفسدتم علينا القات الهررى الممتاز ، فأنتم لا تأكلون القات ولا تعرفون كيف تستخدمونه ، لماذا أكلتم معنا إذن ؟

أخشى أن تكون كل حياتكم على هذا النحو ، تفعلون كل شىء ولا تجيدون شيئا ثم ضحك طويلا وقال :

- على العموم .. أنتم هنا فى بلدكم ، ولذلك نعاملكم كأصحاب بيت بلا حساسيات ولا مجاملات .

ثم أتيح للعبد لله رؤية الرجل مرة أخرى أثناء الاجتماع مع قائد القوات المصرية بصنعاء . والحق أقول إنه قال نفس الكلام الذى قاله لنا فى منزله بالراهدة . كان صريحا فى الإجابة عن كل الأسئلة التى وجهت إليه . وذهبت إليه وقضيت معه بعض الوقت مع الزميل حسن فؤاد حيث كان يقيم ببيت الضيافة .

وعندما علم أن حسن فؤاد يعمل بالرسم وأنه فنان مشهور ، قال لحسن فؤاد :

- الرسم مضيعة للوقت وعمل غير مفيد ، لأن الرسم تقليد .

وأمسك جاكتة حسن فؤاد بأطراف أصابعه وجذبه نحوه وقال له :

- هل أنت الذى رسمت صورة السلال ؟

وعندما نفى حسن له هذا الأمر ، ترك الجاكتة تفلت من بين أصابعه وعاد حسن فؤاد إلى وضعه الأول ، ثم قال :

- صورة السلال أفضل من حقيقته ، لأن الصورة مشوهة ، والسلال مشوه ، وإن كان يبدو أمام الناس فى صورة مزيفة .

كان الرجل حانقا على الرجال الذين يتولون السلطة فى صنعاء ، وكان يرى أن أحجامهم أقل من الدور الذى يضطلعون به . ولم يكن شيخ الزاهدة على حق ، فلقد كان يعيش خارج الزمان ، وكان يبدو وكأنه رجل قفز فجأة من القرن السادس الهجرى إلى القرن العشرين . وكان يؤمن إيمانا لا حد له بأن السيف هو خير علاج للشعوب وللأفراد . وكان من رأيه أن الجيوش خلقت للغزو والفتح فقط وليس للحكم ، وأن الشعوب خلقت للانتاج وليس لرسم السياسات ، وأن العرب خابوا خيبة الطليان عندما قلدوا الغرب فأصدروا صحفا وأنشأوا برلمانات وأسسوا جيوشا نظامية ، وقال إنه فى أيام أبى بكر وعمر لم تكن هناك جيوش بالمعنى المعروف الآن ، ولكن المحاربين كانوا يأتون تطوعا ، ويذهب كل منهم إلى حال سبيله بعد انتهاء القتال .

والغريب أن الرجل شهد أعنف فترات التاريخ اليمنى ، واشترك فى الأحداث التى مرت به . ومع ذلك مات على سريره فى سلام ، ومضى إلى خالقه وبقيت اليمن ! .

سويسرا .. وسويسخا

ولقد أتيح للعبد لله زيارة اليمن مرة أخرى بعد الزيارة الأولى بعدة أشهر . وبدأت الرحلة بمكالمة تليفونية من اللواء حسنى عبد المجيد ، أحد الضباط العاملين بمكتب المشير عامر ، وكان يومها برتبة مقدم ، بعد ساعات كنت فى مكتبه ، وبعد شرب القهوة أبلغنى الرجل بأنه وقع الاختيار على شخصى الضعيف للسفر إلى اليمن ضمن وفد من الفنانين والصحفيين والأدباء . وعندما وقع بصرى على الكشف الذى يضم أعضاء الوفد ، سررت سرورا شديدا ، فقد كان يضم عددا من الأصدقاء ، من بينهم الفنان الكبير حسن فؤاد والفنان إسماعيل ياسين والمطرب محمد عبد المطلب . وبعد انتهاء الزيارة ، خرج الرجل يودعنى حتى الباب الخارجى ، وفى حديقة القيادة العامة التقى بأحد أصدقائه الضباط ، فوقفا يتحدثان ، ولمحت رجلا يرتدى جلبابا وطربوشا يهرول نحونا ، واكتشفت – عندما اقترب من المكان الذى كنا نقف فيه – أنه المطرب الشعبى محمد أبو دراع . وقد اشتهر بأبو دراع لأن ذراعه بترت فى حادث . وكان هذا الحادث سببا فى اعتزاله العمل بمصنع نسيج واحترافه الغناء فى الموالد والأفراح . وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو أولت اهتماما خاصا بالفن الشعبى ، فذاع صيته بفضل أجهزة الاعلام من إذاعة وتليفزيون ، وصار للفنانين الشعبيين مكانا فى مجتمع مابعد الثورة بعد أن كانوا فى زمرة المتسولين . ولمع من بينهم محمد طه ومحمد أبو دراع وخضرة ويوسف شتا وفاطمة سرحان وآخرون . المهم أن محمد أبو دراع اقترب منا ووقف يغنى .

حسنى ومحمود الاثنين فى الحياة حسنى وفى الآخرة الاثنين سوا محمود . ثم تقدم فصافحنى بحرارة ثم صافح الضابط حسنى عبد المجيد وانحنى بشكل حاد ، ثم قال له .. عشان خاطر الأستاذ محمود ربنا يخليك ويعلى مراتبك . ولكن الضابط حسنى نهره بشدة وقال له .. أنا قلت لك مش هاتروح يعنى مش هاتروح ، ولكن محمد أبو دراع

الذى لا يعرف اليأس طريقا إلى قلبه ، انحنى على يد الضابط وراح يتوسل إليه ، فسألت الضابط ... إيه الحكاية ؟ فقال .. عاوز يروح اليمن ، وأنا حالف مايروحش تانى .. سألته عن السبب فقال .. أنا بعتّه المرة اللى فاتت ، راح عامل عملة وسخة فى الحفلة بتاعة الشئون العامة .. سألته عن نوع العملة التى ارتكبها ، فقال ... تصور ... بعدما انتهى من نمرته ، راح قالع الطربوش بتاعه ونزل يلم نقطة ، وكان الرئيس السلال قاعد والمشير عامر ... وقاطعه المطرب أبو دراع وصاح قائلا .. لأ وشرفك وشرف الأستاذ – وأشار بأصبعه نحوى – ماحصل منى الكلام ده. وصرخ الضابط حسنى فى وجهه . أنت كذاب . وقلت للضابط حسنى ... ياراجل ما تنفعلش قوى كده ، خلاص أنت تقوله ما يعملش كده ثانى . وصاح أبو دراع قائلا .. وشرفك ما حصل منى . قلت لأبو دراع ... حصل بقه والا ما حصلش ، المهم ما يحصلش الدور الجاى . قال أبو دراع .. أوامرك وأوامر حسنى بيه على راسى من فوق . نظرت للضابط حسنى وقلت له .. خلاص بقه ياعم حسنى هو مش هايعمل كده تانى . قال لى ... تضمنه ؟ قلت ... مافيش مانع .

التفت الضابط حسنى نحو أبو دراع وقال له ... السعدنى عتقك الدور ده ، الدور الجاى ها أحطك فى السجن الحربى . رقص أبو دراع طربا وضرب تعظيم سلام ، وأطلق ساقيه للريح نحو ضابط التشهيلات المكلف بالإشراف على الرحلة .

فى الطائرة الضخمة المتجهة إلى اليمن جاء أبو دراع إلى حيث أجلس وأنشد موالا فى مدح العبد لله ، ولم ينس طبعا الضابط حسنى ، فأنشد عدة مقاطع فى وصف مناقبه وعظيم سجاياه ، وجاء أيضا المطرب الشعبى محمد طه فصافحنى بحرارة وألقى موالا شعبيا ، عن سى محمود اللى فى الدنيا محمود وفى الآخرة كمان محمود . ثم همس فى أذنى قائلا .. أنت جبت معاك إيه ؟ أجبته ... أنا جبت بدلتين وجبت معايا جلاليب كتير علشان أبقى على راحتى فيها . بدت الدهشة على وجه محمد طه وقال .. أنا باسألك جبت إيه تبيعه ؟ أبديت دهشتى أنا الآخر وقلت له .. أنت جبت إيه ؟ أجابنى على الفور .. أنا جبت فوناى !! فسألته عن ماهية هذه الفوناى ، فراح يشرح لى الأمر ، وفهمت بعد الشرح أن اليمنيين يستعملون بواجير الجاز فى المطبخ وأنهم لم

يعرفوا بعد أجهزة البوتاجاز . واكتشف محمد طه ومحمد أبو دراع وغيرهما من المترددين على اليمن أن الفونيا الواحدة تباع فى صنعاء بريال يمنى ، بينما تباع فى القاهرة بقرش صاغ ونصف ، والتجارة فيها تحقق ربحا أضعاف التجارة فى المخدرات . جاء محمد طه بشنطة سفر كبيرة مليئة بالفوناى ، وبالطبع حمل أغلبية المسافرين شنطا أخرى من نفس الصنف . وفى اليوم التالى لوصولنا إلى اليمن ، وجدت محمد طه ومحمد أبو دراع يلطمان بشدة لاكتشافهما أن سوق الفوناى قد أصابه البوار ، فقد هطلت الفوناى على سوق اليمن كما تهطل الأمطار على جنوب السودان . ولم يسترجع حاملو الفوناى رأسمالهم إلا بطلوع الروح !

المهم أننا بعد وصولنا إلى اليمن ، أخذوا بعض أعضاء الوفد المصرى إلى استراحة فى الفندق ، ولم يكن الفندق الذى أخذونا إليه فندقا بالمعنى المعروف ، ولكنه كان بيتا حديث البناء ، ثم أمهلونا بعض الوقت حتى ينتهوا من تنجيد المراتب وإعداد الكراسى وتثبيت النوافذ ، وقالوا إنهم سينتهون من هذا العمل بعد ساعتين على أكثر تقدير . وجلسنا فى انتظار الانتهاء من تشطيب الفندق وجلس بجانبى الفنان محمد عبد المطلب ، الذى جاورنى فى مقعد الطائرة . وقضى محمد عبد المطلب الوقت كله يؤكد للعبد لله أنه يمنى ومن قبيلة الأحمر ، وأنه أوصى بدفن جثمانه فى اليمن إلى جوار أجداده القدماء (الغريب أن محمد عبد المطلب أكد لى ونحن فى العراق أن أصله من الموصل وأنه أوصى بدفن جثمانه فى شمال العراق مع أجداده القدماء) وقال لى عبد المطلب ونحن فى الطائرة إنه رفض السفر إلى اليمن عدة مرات ، لأن المعجبين بفنه والذين يقدر عددهم بعدة مئات من الألوف ينغصون عليه حياته ولايتركونه ينعم بالنوم أو الراحة طوال إقامته باليمن .. وقال إن الرئيس السلال هو أكثر اليمنيين تقديرا لفنه ، ولذلك لايفارقه لحظة منذ وصوله إلى اليمن وحتى يغادر مطار صنعاء .

وأثناء جلوسنا فى الفندق فى انتظار تنجيد المراتب ، انبعثت ضجة كبيرة فى الشارع وتعالت هتافات هنا وهناك ، وانطلقت أبواق سيارات كثيرة ، وتصاعدت أصوات سرينات تشبه تلك السرينات التى تطلقها الدراجات البخارية التى تصاحب عادة مواكب الرؤساء ، وجرى بعض عمال الفندق نحو الشارع ، ثم عادوا ليعلنوا أن

الرئيس السلال فى طريقه إلى الفندق . وعندما سمع محمد عبد المطلب بهذا النبأ ، صاح متأففا .. ياخبر أسود ، إحنا لسه لحقنا نستريح ، على كده بقى عينى دى مش هاتشوف النوم . ثم سحبنى من يدى وصعد بى إلى الدور الثالث ، لعله يستطيع أن يهرب من ملاحقة السلال له .

وتوقف موكب السلال عند باب الفندق ، ثم راح يصعد الدرج يحيط به حراسه وبعض أعضاء الوفد المصرى ، وقضى أكثر من نصف ساعة حتى تمكن من الصعود إلى الدور الثالث ، حيث كنا نجلس - عبد المطلب وأنا - فى الصالة التى تفصل بين الحجرات . ووقفنا بالطبع عندما اقترب السلال منا، ولكنه اكتفى بالنظر إلينا ورفع يده لتحيتنا ، ثم مضى فى طريقه إلى نهاية الصالة ، وسألت محمد عبد المطلب .. إيه الحكاية ؟ هو ماخدش باله منك وإلا إيه ؟ وقال محمد عبد المطلب .. ماية فى الماية ماخدش باله ... حاكم الراجل ده بيشقى .. دا تلاقيه ما بينامش لا ليل ولا نهار .. نصحت محمد عبد المطلب بأن يتقدم إلى الرئيس السلال ويقدم نفسه إليه . فقال عبد المطلب ... هوه بالتأكيد بيدور عليه دلوقت ، لكن مصيره ياخد بعضه ويمشى لما مايلاقنيش ، وبيقى كده أحسن علشان أناملى شوية وبالليل أروح له . حاولت بشتى الطرق دفع عبد المطلب إلى لقاء الرئيس السلال ولكنه رفض بشدة ، متعللا أنه بحاجة إلى الراحة بعد السفر الطويل بالطائرة من القاهرة إلى صنعاء .

كان الرئيس السلال قد دخل إحدى الغرف التى خصصت للفنان إسماعيل ياسين ، وجلس السلال على مقعد بينما جلس إسماعيل على السرير وهو بالبيجاما . وامتلأت الحجرة عن آخرها بالناس كما امتلأت الصالة التى نجلس فيها أيضا ، وأصر السلال على اصطحاب إسماعيل ياسين معه إلى قصره ، وارتدى إسماعيل ياسين ملابسه على عجل . وخرج مع السلال يحيط بهما الناس . وعندما اقتربا من المكان الذى يقف فيه عبد المطلب والعبد لله ، صاح عبد المطلب وهو فى مواجهة السلال ... أنا محمد عبد المطلب ياريس .. ازيك ، ورد السلال التحية بمثلها ، ولكن بطريقة تؤكد أنه لم ير عبد المطلب من قبل . وقال لى عبد المطلب بعد أن خفت حدة الزحام . مش بقولك الرجال شقيان وتعبان طول النهار ، أكيدمش شايف !!

كان الرئيس السلال يعشق فن إسماعيل ياسين ، وقد قضى إسماعيل ياسين أغلب الوقت الذى قضاه فى صنعاء برفقة الرئيس السلال. وكان يحضر معه مجالس القات . وعندما اضطر إسماعيل ياسين الى السفر معنا لزيارة تعز، كان السلال يتصل به تليفونيا كل يوم ليطمئن على أحواله . ولم يفتح عبد المطلب سيرة السلال بعد ذلك مع العبد لله . وعندما سألته عن السر فى تجاهل أفراد قبيلة الأحمر التى ينتمى إليها له وعدم قيام أحد أفرادها بزيارته أثناء إقامته باليمن . قال بأسف شديد .. الثورة لخبطت الناس من غير مؤاخذة! وفى نهاية زيارته لليمن ، سألته إذا كان ينوى دفن جثمانه فى أرض اليمن مع أجداده القدماء أم أنه سيعدل عن ذلك ، قال وهو يهرش رأسه .. مش عارف .. دى عالم ما يستهلوش الواحد يندفن معاهم . وعندما طلبت إليه أن يذهب إلى قبيلته لعلها لم تسمع عن وجوده فى صنعاء . قال .. ياعم لنا رايح ولنا جاى .. أنا يعنى كان هاينوبنى إيه غير دوشة الدماغ .

وبالرغم من الحفاوة الشديدة التى استقبلوا بها اسماعيل ياسين فى اليمن ، إلا أن اسماعيل ياسين كان يتعجل اليوم الذى يغادر فيه اليمن ، وكان يفضل عليها البحرين والكويت ولبنان ، وذات مرة وكنا فى مدينة (إب) وكنا ننزل فى قلعة تاريخية أعلى الجبل . أذكر أننى فى الصباح الباكر فتحت النافذة ، واذا بالمنظر الذى أمامى يشبه منظر الريف السويسرى بالتمام والكمال . وطلبت من إسماعيل ياسين الحضور إلى النافذة لرؤية المنظر الساحر . وقلت لإسماعيل ياسين وهو يلقى نظرة على المنظر الذى أمامه .. شوف يا إسماعيل زى سويسرا . وبعد فترة صمت اكتفى فيها إسماعيل بالتحديق فى المنظر ، قال وكأنه يحدث نفسه .. دى سويسخا ! ثم ضحك ضحكته المشهورة .

وقدر للعبد لله أن يجلس مع الرئيس السلال ، مرة فى اجتماع مع بعض القادة العسكريين ، ومرة فى جلسة قات ، ومرة على مائدة غداء . وكنت حريصا على دراسة شخصية الرجل الذى قضى على أعفن وأجهل أسرة حاكمة ، ليس فى تاريخ العرب فقط . ولكن فى تاريخ البشرية . كان الرجل شجاعا وبسيطا فى نفس الوقت ، وكان يتصرف وكأنه مجرد ضابط فى الجيش اليمنى وليس رئيسا للدولة ، وكان يبدو مهموما

بسبب ألاعيب الساسة وبسبب تعقد الخيوط فى أزمة اليمن . واكتشفت أنه محبوب جدا بين أوساط الشعب اليمنى . ومكروها إلى أبعد الحدود بين أبناء القبائل العريقة فى اليمن ، الذين كانوا يرون أنهم أحق الناس فى حكم البلاد . ولكن السلال الذكى ذكاء خارقا للعادة استطاع أن يغير تاريخ اليمن وأن يقود اليمنيين فى فترة من أحرج الفترات ، واستطاع أن ينجو من كل المؤامرات ، وأن يحتفظ برأسه ، ويعيش الآن مواطنا فى اليمن الجديدة، يأكل ويشرب، ويمشى بين الناس فى الأسواق ، ويتمتع فى الوقت نفسه باحترام السلطة ويحب الناس ، وفى آخر زيارة للعبد لله منذ ثلاث سنوات طلبت أن ألقاه ، ولكنه للأسف الشديد كان خارج صنعاء ، أو هكذا أخبرنى مندوب وزارة الإعلام ! كنت أريد أن أرى الرجل الذى غير تاريخ اليمن ومنح اليمنيين فرصة لحياة جديدة ، وهيأ لهم مكانا تحت الشمس ، ونقلهم من القرن الرابع إلى القرن العشرين ! .

الرئيس ... الكومبارس

عندما ذهبت لمقابلة الرئيس شكرى القوتلى تصورت أن ساعة زمان ستكون فترة طويلة بالنسبة لرئيس جمهورية لديه هموم لا تطاق . فقد تصورت أنه مشغول لشوشته ، خصوصا فى تلك الفترة التي كانت سوريا تشهد خلالها صراعات بين كل الفرق والأحزاب . وكان أول انطباع عن الرجل أنه متواضع وبسيط بدون حدود . أجريت معه حديثا للجمهورية لم يكتب له أن ينشر على الناس ولأسباب أجهلها حتى الآن . وعندما راح زميلى المرحوم أحمد سليمان يلتقط لنا عدة صور ، قال لى الرئيس شكرى القوتلى :

- هل تعرف اسم هذه الآلة التى يلتقط بها الصور ؟ .

أجبته على الفور وبطريقة تلميذ شاطر :

- اسمها كاميرا .

ضحك الرئيس شكرى القوتلى وقال للعبد لله :

- هذا هو اسمها فى اللغات الأجنبية ، ولكنى أسأل عن اسمها باللغة العربية .

وضربت لخمة مع العبد لله ، لكنى أردت أن أتفلسف فقلت للرئيس القوتلى :

- نعم أعرف ، ولكن هو نفسه اسمها بالعربية ، تماما كالتاكسى ، اسمه فى العربية تاكسى .

ضحك الرئيس القوتلى عاليا وهو يقول :

- اسمها بالعربية ... العكس ...

- وبعد فترة صمت قال وهو ينظر نحوى :

- هل تعرف لماذا .. ؟

وعندما لزمت الصمت ، عاد يقول :

– لأنها تعكس ما تلتقطه .

لم أنبس بحرف ، ثم استأذنت فخامة الرئيس بعد فترة فى الانصراف ، ولكنه تجاهل طلبى وسألنى سؤالا مفاجئا :

– هل أصولك مصرية ؟ أم

قلت للرئيس القوتلى :

– الحقيقة أن أحدا لم يسألنى هذا السؤال من قبل ، ولكن كل ما أعرفه أننى أنتمى إلى قبيلة السعدنى ، وقد جاء ذكرها فى كتاب وصف مصر الذى وضعته الحملة الفرنسية ، وأن القبيلة نفسها وفدت إلى مصر مع الفتح الإسلامى ، وأن موطنها الأصلى اليمن ، وفى بقعة لاتبعد كثيرا عن صنعاء .

ارتسمت على وجهه علامات الارتياح وقال :

– إذن أنت عربى ، ولاشك أنك تعلم أن العرب كرماء .

أجبته بحماس .

– نعم .

قال وهو ينهض ساحبا العبد لله من يده .

– وكيف تريد أن تستأذن قبل أن تتناول معى طعام الغداء ؟

قلت وقد تصورت أن الفرصة سنحت للعبد لله لكى أستعرض عضلات ثقافتى العربية :

– يافخامة الرئيس . العرب كانوا يعتبرون كل من ليس من مضاربهم غريبا وضيفا ويجب إكرامه . ولكن وضعى الآن يختلف . فلا أنا غريب ولا أنا من مضارب غير مضاربكم ، ولكننى مواطن من دولة الجمهورية العربية المتحدة التى ستقوم عما قريب . والتى ستضم فى المستقبل كل العرب .. بائدة ومستعربة !

لم يرد على بحثى الرائع عن الضيف والمواطن والعرب البائدة والعرب

المستعربة ، ومضى فى طريقه يسحبنى من يدى ، وبعد قليل كنا على مائدة طعام عليها كل خيرات القطر السورى . وعندما بدأنا فى التهام الطعام لاحظت أن الرئيس القوتلى يأكل طعاما خاصا به نزولا على أوامر الأطباء .. وفجأة .. ونحن لم ننهض بعد من تناول الطعام قال الرئيس القوتلى :

– مسكين الرئيس عبد الناصر ...

توقفنا عن مواصلة الأكل ، ونظرنا إلى الرئيس القوتلى الذى واصل حديثه قائلا :

– فى آخر لقاء بينى وبينه قال لى فخامة الرئيس ، هناك مشكلة استعصى على حلها ، وهى مشكلة عمال التراحيل . واندهش فخامة الرئيس عندما قلت له : أنت محظوظ يافخامة الرئيس لأنك تعانى من مشكلة واحدة ، ولكن أنا عندى ٥ ملايين مشكلة بعدد أفراد الشعب السورى !

ثم نقر بأصبعه على المائدة وقال :

– كان الله فى عونه ...

ونهض وسحبنا خلفه إلى غرفة صالون ، وجلست أنا وزميلى أحمد سليمان نشرب الشاى الدمشقى المنعنع . بينما راح الرئيس القوتلى يحكى عن فترة شبابه وكفاحه وعلامات السرور بادية عليه . وامتدت جلستنا عدة ساعات استأذنت فى الانصراف خلالها أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يتجاهل طلبى تماما ويواصل الكلام . وعندما انتهت الجلسة وخرجنا من عند الرئيس ، كانت العتمة قد طردت ضوء النهار . وشعرت براحة شديدة لأننى التقيت بهذه الشخصية التاريخية التى شعرنا مع صاحبها بأننا أصدقاء منذ زمن طويل . فى اليوم التالى كنت على وشك موعد مع الفريق عفيف البرزى رئيس الأركان بالجيش السورى ، وكان رجلا ودودا ولطيفا وصريحا إلى أقصى حد ، ورحت أحكى لعفيف البرزى عن لقائى بالرئيس القوتلى ، ورحت أثنى على شخصيته وتواضعه وبساطته .. وبعد أن أفضت فى شرح مشاعرى نحو الرئيس القوتلى نظر البرزى نحوى طويلا ... وقال :

– إما أنك طيب وإما أنك ساذج .

قلت أسأله :

– ليه ؟

– إنه لا بسيط ولا متواضع ، ولكنه خالى شغل وزيارتك له كانت فرصة طيبة له ليتحدث عن أمجاده . وهو فى الحقيقة رجل مسكين لا يزوره أحد ولا يستشيره مخلوق . وأتحداك أن تذهب إليه غدا وتسأله عما يدور فى سوريا الآن ، وأؤكد لك أنه لا يعرف شيئا عما يجرى حوله هذه الأيام .

وراح عفيف البرزى يتحدث عن شكرى القوتلى كما لو أنه ممثل كومبارس استأجره الشعب السورى ليقوم بعض الوقت بدور الرئيس .

كان عفيف البرزى قريبا جدا من العبد لله فى تلك الأيام . كنت أزوره يوميا تقريبا، وكان ضابطا متميزا يمارس السياسة داخل صفوف القوات المسلحة كمسئول عن مجموعة الضباط الماركسيين . ولم أذهب إليه فى أى وقت واعتذر عن مقابلتى . وأحيانا كان يصطحبنى بعد انتهاء الدوام لنشرب كأس عرق على حد قوله ، مع أنه لم يكن يشرب إلا أجود أنواع الاسكتلندى من البلاك والشيفاز ريجال ! وكان شديد الشبه بالعبد لله مع فارق بسيط هو أن صلعته كانت مكتملة ، وصلعة العبد لله كانت فى ريعان الشباب . وذات مرة قال لى :

– إن بعض جنود الحراسة يتصورون أنك شقيقى !

كان إذا ارتدى الملابس المدنية يبدو كصعيدى مصرى من أسيوط . وقال لى مازحا :

– يبدو أن والدى قام بزيارة القاهرة يوما ما .

ورددت عليه قائلا :

– ولكن الذى أنا واثق منه أن جدى كان هنا فى سوريا مع جيوش الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى !!

المهم أن العبد لله كان معجبا بالفريق البرزى ، وازددت إعجابا به عندما

صارحني برأيه في شكري القوتلي ، ولم يكن إعجابي سببه أنني أكره القوتلي أو أنني أراه كما يراه البرزي . ولكن كان إعجابي بالبرزي كان على أساس أنه رجل شجاع يقول رأيه علنا في رئيس الدولة رغم أنه ضابط يحتل موقع رئيس الأركان . ولكن هذا الإعجاب انكمش بعد أن أبديت إعجابي بالبرزي أمام أحد ضباط القيادة المرموقين وهو العقيد مصطفى حمدون بسبب رأيه الشجاع في رئيس الدولة ، وإذا بالعقيد حمدون يقول على الفور :

- إن ما يقوله البرزي على شكري القوتلي ينطبق بشكل أكبر على البرزي نفسه .

ثم أشار نحوي بأصبعه وقال :

- هل ذهبت إلى البرزي يوما ورفض مقابلتك ؟ هل ذهبت إلى مكتبه في أي وقت ووجدته مشغولا ؟ هل تردد عليه أحد أثناء وجودك معه غير سكرتيره .. إن البرزي الذي استحوذ على إعجابك مجرد ثرثار لا أكثر ولا أقل ! .

ورحت أستعرض في ذاكرتي عدد المرات التي زرت فيها البرزي في مكتبه ، واكتشفت أن كل ما قاله مصطفى حمدون حقيقي . إنه أيضا مجرد كومبارس يقوم بدور رئيس الأركان ! ولم يكن القوتلي والبرزي فقط هما أفراد جوقة الكومبارس في الدراما السورية ، كان هناك كثيرون يقومون بهذا الدور . كان رئيس الوزراء صبري العسلي يؤدي نفس الدور . أذكر أنني ذات مساء قلت لسائق السيارة :

- وصلني إلى بيت دولة الرئيس .

ونزلت من السيارة واقتحمت البيت . وإذا بي أفاجأ بأنني في بيت رئيس الوزراء صبري العسلي مع أنني كنت أقصد بدولة الرئيس أكرم الحوراني رئيس المجلس النيابي ، وهو في البروتوكول يأتي قبل رئيس الوزراء ! وما أن رآني صبري العسلي حتى استبشر خيرا ، وأمسك بتلابيبي وأصر على أن أشاركه السهرة . كانت أمامه زجاجة عرق وطبق نقانق - وهو طبقه المفضل - وتشكيلة

من (المازاوات) الشامية منتقاة بعناية . وزعمت له أننى جئت إليه لأعرف آخر الأخبار . فضحك ضحكة ذات معنى وقال وقد ظهر عليه تأثير الخمر :

– آخر الأخبار عندكم فى القاهرة .

ولم أغادر دار صبرى العسلى إلا فى الحادية عشرة مساء ، وخلال الوقت الذى قضيته معه . لم أسمع رنين التليفون ، ولم ينضم إلينا أحد . الوحيد الذى كان مشغولا لشوشته هو أكرم الحورانى . ومع ذلك ... لم يحدث مرة واحدة أن امتنع عن لقائى أو اعتذر عن الحديث معى بالتليفون ... حتى اجتماعه التاريخى بالزعيم الشيوعى خالد بكداش سمح لى بحضوره فى مكتبه ، وهو الاجتماع الذى سبق اقتراع مجلس النواب السورى على الوحدة مع مصر ، كما أنه الاجتماع الذى أعقبه سفر خالد بكداش إلى تشيكوسلوفاكيا .

وحتى لا يصوت مع الوحدة وضد معتقداته ، فلو صوت ضدها فستسحله الجماهير السورية فى الشارع !

كان أكرم الحورانى شعلة من الذكاء وشعلة من النشاط فى نفس الوقت . وكان وراء كل المؤامرات والانقلابات التى شهدتها سوريا فى نصف القرن الأخير. وكان يحب العمل فى الحلقات الضيقة ، ويعتمد فى تنفيذ مخططاته على الأعوان المخلصين . وكان يؤمن بأن السلطة شىء وتصفيق الجماهير شىء آخر . ولم يكن جماهيريا من نوع مصطفى النحاس أو بورقيبة ، ولكنه كان رجل سلطة يعرف كيف يقبض على آلة السلطة بيده ، وكيف يديرها حيث يشاء . وكان فى تلك الأيام يراهن على الوحدة بكل ما يملك ، ويقبض على زمام الأمور بيد من حديد .

أذكر أننى ذهبت إلى مقابلة السراج فى مكتبه ، ولكن سكرتيره اعتذر لى بأن السراج مشغول بمقابلة هامة . ولما كنت مدعوا على غداء فى بيت السفير المصرى محمود رياض ، فقد آثرت الانصراف، ولمحت وأنا خارج من مكتب السراج سيارة تشبه سيارة أكرم الحورانى ، فذهب بى الخيال أن الاجتماع الهام فى مكتب السراج لابد أن يكون بين السراج وأكرم الحورانى . على مائدة الغداء سألنى محمود رياض عن آخر الأخبار ، وقلت له ... لاشىء ، كنت فى

مكتب السراج فقالوا لى إن لديه اجتماعا هاما ، وعند خروجى من مكتبه لمحت سيارة أكرم الحورانى عند الباب ، فخمنت أن أكرم عنده ، لم أكد أنطق بالعبارة حتى هب محمود رياض كمن لدغته عقرب .. وقال للعبد لله .. وهو يهرول نحو التليفون إلى درجة أنه كاد يسقط على الأرض :

- قلت إن أكرم الحورانى فى مكتب السراج ؟!

أجبته وأنا مشغول بالملوخية :

- أعتقد ذلك .

مضى محمود رياض أكثر من ربع ساعة وهو يجرى «أحاديث تليفونية» ، ثم عاد وقد زايله قلقه وقال :

- يا أخى ابقى تأكد الأول من أخبارك ، دانت وقعت قلبى فى ركبى ...

قلت مندهشا :

- ليه ؟

قال :

- ليه ازاى ؟ أكرم الحورانى فى مكتب السراج !!! لايمكن أن يحدث هذا إلا إذا وقع انقلاب فى دمشق !!

واكتشفت بعد ذلك أن عبد الحميد السراج لم يكن لديه اجتماع من أى نوع ، وأن أكرم الحورانى إذا أراد الاجتماع بالسراج استدعاه إلى المكان الذى يوجد فيه . وتوثقت صلتى بأكرم الحورانى إلى درجة أننى أطلقت اسمه على ابنى الوحيد أكرم . ومن خلاله تعرفت على ميشيل عفلق . ولكننى لم أقترب من ميشيل عفلق على الاطلاق . كان على عكس أكرم الحورانى ، صلته بالكتب أكثر من صلته بالحياة . وكان بطيئا وحالما وسارحا ، ويتصرف بحرية عندما يكون بين تلاميذه ، ويتحول إلى سلحفاة داخل قوقعته عندما يكون بين غرباء .

ولم أشعر نحوه بأى ود ومنذ أول لحظة وقع بصرى فيها عليه . ولم أزره مرة واحدة فى بغداد بالرغم من أنه كان الرئيس المؤسس ، وكان العبد لله مجرد

لاجىء وعلى باب الله . ولم أتردد فى زيارة أكرم الحورانى أثناء إقامته فى بغداد بالرغم من أنه لم يكن قريبا من النظام ، وعلى علاقة فاترة بحزب السحل .

عفلق نفسه كان يحمل لى نفس الشعور ، وقد تصور بعض السذج أن السبب هو أننى كتبت ضده فصولا من نار بعد فشل محادثات الوحدة الثلاثية . ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك . فقد حدث بينى وبينه فصل بايخ للغاية أثناء وجودى فى دمشق عام ١٩٥٧ ، وأصل الحكاية أننى ذهبت لزيارته فى منزله وفى حضور عدد من تلاميذه كان من بينهم عبد الله الريماوى يرحمه الله . والعبد لله كان على علاقة بالريماوى منذ فترة قبل هذا اللقاء ، وكنت قد أطلقت عليه لقب متحمس عام ، على وزن مدير عام ونائب عام! ولكن عبد الله الريماوى بالرغم من كل شىء كان يحب النكتة ويعذر صاحبها . المهم أننى لحظة دخولى على ميشيل عفلق كانت الندوة منعقدة ، والزعيم عفلق يتكلم بصوت خفيض للغاية ، بينما الحواريون يجلسون حوله فى خشوع . ولم أكن على دراية بطقوس الندوة .. فبادرت بعد السلام على الجميع بإلقاء نكتة ، ولكن أحدا من الموجودين لم يجرؤ على الضحك ، وبان على وجه الزعيم مدى الاشمئناط الذى يشعر به .

ولكن هذه الحركة القرعة من جانب العبد لله لم تكن هى سبب الفجوة التى وقعت بينى وبينه بعد ذلك . كان السبب عجيبا ومضحكا فى الوقت نفسه . ولكن الأعجب من ذلك أننى أصبحت موضع سخط جميع التلاميذ والحواريين ، بل واعتبرنى بعضهم من الجبهة المعادية لجبهة النضال من أجل العروبة والوحدة اللى ما يغلبها غلاب ! .

وارتمى بين الظلام !

بعد أن صافحت الزعيم ميشيل عفلق وصافحت جميع الحاضرين من تلاميذه وعلى رأسهم عبد الله الريماوى ، ثم ألقيت النكتة التى نالنى منها نظرات نارية تحمل كمية هائلة من الاستهجان والاستنكار ، بعدها بقليل طلبت من الزعيم ميشيل عفلق أن يسمح للعبد الفقير إلى الله تعالى أن يجرى حديثا معه لكى يتعرف الشعب المصرى على فكره القومى الذى نذر الزعيم نفسه لكى يضعه موضع التنفيذ .. انكمش ميشيل عفلق فى مقعده وضم يديه وشبك أصابعهما معا ثم ضمهما إلى صدره وأراح ذقنه عليهما ، ثم لزم الصمت فترة ثم نظر نحوى بعينيه الضيقتين ، ثم بلل شفتيه بلسانه ، ثم قال للعبد لله :

– هذه فكرة طيبة ولا بأس بها ، فالشعب المصرى رغم بطولاته وموقفه العروبى إلا أنه فى حاجة إلى إعادة تثقيف !

هز الجالسون رءوسهم استحسانا ولزم العبد لله الصمت ، وأخرجت أوراقى وأقلامى وأصبحت فى الوضع مستعدا لإجراء الحديث التاريخى ، ثم رفع يده عن فمه أخيرا وقال :

– هات أسئلتك ؟

قلت :

– ما هو مفهوم القومية العربية كما تتصورونه لعالم الغد ؟

أغمض عمنا ميشيل عفلق عينيه وسرح بعيدا فى العلالى ثم قال بصوت خافت للغاية :

القومية العربية فى مفهومها الصحيح هى بلورة ..

ثم فجأة توقف عن الكلام ثم شخر ثم نام وارتمى بين الظلام ، جلست أنتظر

أن يستيقظ ، ولكن مضى وقت طويل قبل أن يفتح عينيه ، وراح يتطلع فى أرجاء القاعة التى نجلس فيها ، ثم نظر نحوى وقال :

– وين توقفنا محمود ؟

أعدت عليه نص العبارة التى نطق بها «القومية العربية فى مفهومها الصحيح هى بلورة» .

هز رأسه هزات خفيفة ثم قال :

– القومية العربية فى مفهومها الصحيح هى بلورة الانتصارات والانكسارات عبر محاولات الشعب العربى لـ .. لـ .. لـ .. لـ ..

وراحت طبقة صوته تتلاشى تدريجيا ثم شخر ثم نام وارتمى بين الظلام وجلس العبد لله ممسكا بأوراقه وأقلامه منتظرا أن يفيق الزعيم من نومه ونستأنف الحوار من جديد .. ولكن نومته طالت عن المرة السابقة ، ويبدو أن تلاميذه شعروا بالملل فأخذوا يتحدثون فيما بينهم ولم يقطع حديثهم إلا عودة الزعيم إلى الحياة . فتح عينيه فجأة ودار بها فى أرجاء القاعة حتى استقرت عيناه أخيرا على العبد لله ، ثم قال بصوت خفيض للغاية :

– وين توقفنا فى الحديث يا محمود ؟

أعدت على مسامعه نص العبارة «القومية العربية فى مفهومها الصحيح هى بلورة الانتصارات والانكسارات عبر محاولات الشعب العربى» استمع إلى العبارة ثم أغمض عينيه ثم لعق شفتيه بلسانه ثم قال :

– من هذا المنطلق وخلال التراكمات وكمحصلة للزخم الجماهيرى المنبثق يعنى .. يعنى .. يعنى ..

ثم صمت فجأة ، ثم شخر ، ثم نام وارتمى بين الظلام ، واستغرقت هذه النومة فترة طويلة تبادل فيها تلاميذه أحاديث شتى ، ونشبت بينهم خلافات شديدة وصلت إلى حد الصياح والزعيق فاستيقظ الزعيم محاولا أن يزيح النوم من عينيه بأصابعه الخمسة ، ثم سدد نحوى نظرة طويلة ثم قال :

– وين توقفنا فى الحديث أستاذ ؟

أعدت على مسامعه كلماته بالنص «القومية العربية فى مفهومها الصحيح هى بلورة الانتصارات والانكسارات عبر محاولات الشعب العربى .. ومن هذا المنطلق وخلال التراكمات وكمحصلة للزخم الجماهيرى المنبثق» وضع الأستاذ يده على وجهه وقال :

– المنبثق عن التجربة الذاتية والظروف الموضوعية بتفاعلاتها المختلفة للوطن والمواطن ، فى البعد العربى على مستوى القطر الواحد وفى العالم العربى ككل .

ثم صمت الأستاذ فجأة ، ثم شخر ، ثم نام وارتمى بين الظلام ..

لحظة استسلام الأستاذ للرقاد المرة الأخيرة ، رتبت أوراقى ووضعت القلم فى جيبى وقررت أن أرجئ إجراء الحديث مع الأستاذ إلى وقت آخر .

نظر نحوى الأستاذ عبد الله الريماوى وقال :

– محمود أرجوك لا (تضوج) .. فهذه عادة الأستاذ خصوصا عندما يكون مرهقا .. نفيت له – كذبا – أن يكون الملل قد تسرب إلى نفسى ، وقلت له كذبا إننى على استعداد لكى أقضى عاما كاملا فى هذه القاعة لإجراء هذا الحديث مع الأستاذ .. ولكن عبد الله الريماوى قال بلهجة آمرة :

– ولا يهمك محمود .. امسك القلم واكتب .

حاولت الاعتذار ولكن عبد الله الريماوى لم يعطنى الفرصة ، فأمسكت بالقلم وتصنعت الانهماك فى الكتابة ، مع أننى كنت فى الحقيقة أجرى بالقلم على الهواء وانطلق الريماوى كالمدفع الرشاش ، يتكلم وكأنه يخطب فى الجماهير المحتشدة أمامه .

– القومية العربية تبرز بقوة واقعية فى مواجهة الصورة المفزعة للعالم العربى ووضعه المتردى ، وذلك على الرغم مما يمتلكه من ثروات فريدة وواقع جغرافى متميز .. ودعوة القومية العربية هى مطلب الجماهير لسد الثغرة المفتوحة التى نتجت عن نقص القدرة باستثمار الثروة استثمارا كيفيا وتراكميا صحيحا ،

ونتيجة الخلط بين ما هو قطرى وما هو قومى وضياع الكل تحت شعارات أيديولوجية فارغة المضمون .

وراح عبد الله الريماوى يتدفق كالشلال شارحا الحقيقة المركزية التى هى فى الأصل صدى الصوت المدوى للإحباطات ، وكمحاولة للخروج من المأزق الذى يحاول البعض القفز عليه أيديولوجيا ، مع أنها فى الحقيقة قفزات على الحقيقة المركزية الكامنة فى البنية العربية .

وثلاث ساعات كاملة وعينك ما تشوف إلا النور وعمنا عبد الله الريماوى يشطح فى كل مجال مؤكدا على ضرورة القومية العربية ضمن حدود الرؤية المتاحة من أجل بلورة النقاط العشر التى تسمح بإلقاء الضوء على هذا المجال ، والتى يظل بعضها أقرب إلى المادة الخام ، وبعضها الآخر ترافقه تناقضات قديمة مازالت مستعصية .

عند هذه النقطة بالذات استيقظ الأستاذ من رقاده ، وبعد أن بلع ريقه ومسح عينيه قال :

- وين توقفنا فى الحديث أستاذ محمود ؟

لم أنطق بحرف ووقفت صامتا وساهما مكتفيا بالنظر إلى الأستاذ عبد الله الريماوى الذى تولى الإجابة عن العبد لله ، قال :

- أنا توليت بعد إذنكم تكملة جزء من الحديث للأستاذ محمود .

هنا انتفض ميشيل عفلق كأنما لدغته كوبرا من جنس الكوبرا التى لدغت كيلوباترا وهب واقفا من على مقعده ثم جلس ، ثم حاول القيام مرة أخرى فلم يستطع، فاكتفى بنصف قومة ثم عاد إلى الجلوس من جديد ، ثم راح يردد بصورة ميكانيكية .. ما يصير .. ما يصير .. ثم مد يده نحوى وراح يصرخ فى وجهى :

- ارجينى .. يا أستاذ ارجينى .. ارجينى .. ارجينى .

ولم أفهم ما الذى يقصده الأستاذ ميشيل عفلق من عبارة ارجينى ، وتطوع عبد الله الريماوى فقال لى :

– اعط الأوراق للأستاذ يا محمود .

وهنا نطق ميشيل عفلق قائلا :

– اشطب كلام عبد الله .. ما تخلط بين كلامى وكلام الأستاذ عبد الله .

قلت للأستاذ ميشيل عفلق : خلاص يا أستاذ ولا يهمك أنا ها شطب كلام الأستاذ عبد الله .

رد عبد الله فى عنف :

– لا .. أنا اللى راح أشطبه .

أقسمت له بكل المقدسات أننى سأقوم بشطبه واستبعاده تماما ، وأصر هو على أن يشطب الكلام بنفسه .. ولما كنت لم أدون حرفا واحدا مما قاله عبد الله الريماوى ، وأيضا لأننى من شدة يأسى من استكمال الحوار مع ميشيل عفلق ، فقد طويت الورقة التى دونت فيها كلماته القليلة وكمشتها بأصابعى .. ووجدت نفسى فى مأزق حقيقى ، فالأوراق التى معى كلها بيضاء من غير سوء ، وليس فيها كلمة واحدة لميشيل عفلق ولا لعبد الله الريماوى ، وحاولت الخلاص من هذه الورطة ولكنى لم أفلح ، مد يده نحوى بعصبية واصرار وتشبث قائلا إنه لا توجد قوة على ظهر الأرض ستمنعه من الحصول على هذه الأوراق ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة الجبرية عن طريق استدعاء الشرطة العسكرية ، فى هذه اللحظة تركت الأوراق تنسحب من بين أصابعى وتستقر بين أصابعه ثم نهضت على الفور من مقعدى وانصرفت إلى الشارع .

ولم أر ميشيل عفلق فى مكان آخر بعد ذلك ، اللهم إلا فى الحفلات العامة وفى حضور مئات من الناس . وعندما ذهبت إلى بغداد هاربا من أنور السادات واستقر بى المقام هناك لمدة سبع سنوات ، كان ميشيل عفلق يقيم هناك باعتباره الرئيس المؤسس ، وكان اسمه يذكر فى أجهزة الإعلام بعد الرئيس البكر وقبل

صدام حسين ، وحاول أصدقاء كثيرون أن يأخذوني معهم في زيارة للأستاذ ولكني رفضت وتمسكت بالرفض ، فقد كان للعبد لله رأى فى ميشيل عفلق فهو شاعر اشتغل بالسياسة ، وعندما يشتغل الشاعر بالسياسة فقل يا رحمن يا رحيم ، الشعر هو نقش على أجنحة الخيال ، والسياسة حفر في تراب الأرض ، وهو رجل لا يجيد شيئا إلا الكلام ، ولكن كلامه يختلف عن أى كلام ، لأن كلامه يتخلله فترات نوم قد تطول إلى عدة أيام ، كما أن كلامه ليس من النوع الذى يدفع بالحماس إلى أرواح المستمعين ، ولكنه من النوع الذى يدعوهم إلى الاسترخاء والنوم اللذيذ ، وبسبب عجزه وضعفه وعدم قدرته لم يستطع حزب البعث الوصول إلى السلطة فى أى وقت إلا من خلال انقلاب عسكرى ، لأنه لم يحصل من أصوات الناس فى أى وقت إلا على نسبة خمسة فى المائة على أحسن الفروض .. وتشاء الظروف أن يموت ميشيل عفلق بعد أن نبذه حزب البعث السورى وبعد أن تدحرج فى العراق من مكانه كرئيس مؤسس إلى مرتبة الأخ الرفيق .

يا وزير ... شـــاي بالنعنـــاع !

بدأت علاقة العبد لله بالسودان فى مكتب كامل الشناوى حيث تعرفت على المرحوم الشاعر محمد أحمد محجوب وزير خارجية السودان ورئيس الوزراء فيما بعد . وبالرغم من المناصب الرسمية فقد كان الرجل شغوفا بالسهر والسمر وحياة الليل . وكان كامل الشناوى ومصطفى أمين وعبد الرحمن الخميسى واحسان عبد القدوس هم أقرب أصدقائه . وفى أول ليلة تعرفت فيها عليه ذهبنا بصحبة كامل الشناوى إلى بيت الفنان الكبير عبد الوهاب . وقضينا ليلة شاعرية ممتعة ، فقد كان عبد الوهاب محبا للشعر ، ولديه حصيلة من الحكايات عن الشاعر شوقى بك وخليل مطران وحافظ ابراهيم . وفى الليلة التالية سهرت مع محجوب بصحبة عبد الرحمن الخميسى ، وقضينا الليل على مقهى الفيشاوى بحى سيدنا الحسين ، وأكلنا كبابا من الحاتى ، وشربنا لبنا فى الفجر من عند المالكى، وتمشينا مع خيوط الصباح الأولى من مقهى الفيشاوى إلى فندق الكونتننتال بميدان الأوبرا حيث كان محجوب يقيم ، واقتربت كثيرا من محجوب فى تلك الليلة، وانتابنى احساس شديد بأننى أعرف الرجل من زمن بعيد ، وتضاعف حبى له عندما عرفت أنه كان السبب فى الإفراج عن عبد الرحمن الخميسى فى عام ١٩٥٥ . وكان الخميسى معتقلا فى سجن «أبو زعبل» مع عشرات من الشيوعيين . وانتهز محجوب فرصة لقائه مع الرئيس عبد الناصر ، وفى نهاية اللقاء سأله عبد الناصر عن الوقت الذى سيقضيه فى القاهرة ، فأجابه محجوب .. إن الأمر يتوقف عليك يا سيادة الرئيس . وعندما استفسر منه عبد الناصر عما يقصده ، قال محجوب .. يمكننى مغادرة القاهرة بعد غد ، وقد أضطر إلى البقاء فى القاهرة لمدة عام والسبب يا سيدى الرئيس أن لى صديقا لا أستطيع مغادرة القاهرة إلا بعد أن أراه ، وهذا الصديق يا سيدى الرئيس رهن

الاعتقال بسجن «أبو زعبل» بدون تهمة منذ عام ونصف العام . وضحك عبد الناصر وقال .. اذن سيتأخر الافراج عن الخميسى حتى تبقى معنا أطول مدة ممكنة !!

أما الجزء الثانى من القصة فقد رواه الخميسى بعد خروجه من المعتقل . ففى نفس اللحظة التى غادر فيها محجوب بيت عبد الناصر ، اتصل عبد الناصر بأحد مساعديه وأمر بالافراج عن الخميسى فى نفس الليلة . بعد ساعة واحدة من مغادرة محجوب لبيت عبد الناصر ، كان مدير منطقة «أبو زعبل» يفتح العنبر الذى ينزل فيه الخميسى ، وكانت عقارب الساعة تشير إلى العاشرة مساء وقال مدير السجن للخميسى .. اتفضل معانا يا أستاذ خميسى !! وتصور الخميسى أنه صدر الأمر بشنقه ، أو بنقله على الأقل إلى معتقل الطور مع كبار المذنبين وعتاة المجرمين ، ولكن معاملة مدير السجن للخميسى جعلته يتصور أنه خارج من السجن إلى كرسى الوزارة . وأخيرا عرف الخميسى الحقيقة عندما قال له مدير السجن وهو يودعه عند الباب الخارجى . هذه السيارة ستقوم بتوصيلك حتى البيت ، ولكن لى رجاء عندك أرجو أن تستجيب له ، بأن تعرج وأنت فى الطريق إلى البيت على فندق الكونتيننتال للسلام على صديق لك وهو السيد محمد أحمد محجوب وزير خارجية السودان . وبالرغم من ملابس الخميسى التى كانت تبدو فى حالة غير لائقة ، فقد مر على فندق الكونتيننتال وكانت الساعة قد قاربت منتصف الليل ، اكتشف الخميسى أن المحجوب خارج الفندق فترك له رسالة ضمنها تحياته العميقة وشكره الشديد وترك له رقم التليفون . ولم يذق الخميسى النوم طول الليل فقد دق جرس التليفون فى الثالثة والنصف صباحا وكان المتحدث هو السيد محمد أحمد محجوب الذى طلب من الخميسى أن يوافيه على الفور لأنه سيغادر القاهرة فى الصباح متوجها إلى الخرطوم ، وذهب الخميسى إليه فى الرابعة صباحا وجلس الصديقان معا وتناولا طعام الافطار فى الفندق ، ثم ذهبا معا إلى مطار القاهرة حيث غادر محجوب مصر عائدا إلى بلاده .

وتوطدت علاقة العبد لله بالسيد محجوب عقب ثورة أكتوبر ١٩٦٤ ، وقد طرت

إلى الخرطوم لتغطية أحداث الثورة التي كانت لا تزال في الشارع والموقف لم يحسم بعد . فقد كان الفريق عبود يقيم في القصر الجمهوري ، بينما كان الملايين من السودانيين في الشارع ويحيطون بالقصر الجمهوري في حلقة محكمة مطالبين باستقالة عبود وإجراء انتخابات حرة ، وتعرفت هناك على الوجه الآخر لمحجوب ، محجوب السياسي الجماهيري الذي يتمتع بشعبية كبيرة في جميع أنحاء السودان ، وكانت الأحزاب السودانية قد نهضت وشمرت عن سواعدها تمهيدا لخوض المعركة الانتخابية القادمة ، وكان العبد لله يقضي أغلب أوقاته في بيت محجوب الذي كان يموج بالعشرات من أنصار حزب الأمة ، ومن أصدقاء محجوب . وذات يوم ونحن جالسون في حجرة صالون بيته وكنا أربعة أشخاص فقط عندما سألني محجوب عن الشراب الذي أفضله ، وفي نفس الوقت دخل الحجرة سوداني يرتدي الجلباب والعمامة والمركوب .. وقلت للرجل الذي دخل الحجرة .. هات لنا «شاي» من فضلك .. ولكن محجوب صرخ في وجهي وقال : اشنو .. أنت مجنون، هذا الدكتور عبد الحليم محمد عضو مجلس السيادة واعتذرت بشدة للدكتور عبد الحليم الذي صار صديقا للعبد لله فيما بعد . ثم دخل رجل آخر يرتدي نفس الزي .. فطلبت منه شايا بالنعناع الأخضر ولكن المحجوب عاد يصرخ في وجهي وقال .. هذا وزير الصحة . ثم تبعه ثالث ورابع وكان الثالث رئيس نادي المريخ السوداني وضابط كبير في الجيش . أما الرابع فكان وزير العدل ، وقلت لمحمد محجوب مش معقول ده ! أنا أقترح أن تضعوا على صدوركم لوحات كالسيارات تحمل هوية كل منكم ، فهذا وزير وهذا مدير وهذا غفير وهذا بواب .. لأنكم جميعا ترتدون نفس الزي ومن الصعب على الغريب معرفة الفرق بين هذا وذاك .

وفي تلك الأيام التي أعقبت ثورة أكتوبر تعرفت على عدد كبير من السودانيين من بينهم شاب صغير في الخارجية كان يعمل ملحقا دبلوماسيا بالوزارة أطلقت عليه من باب المزاح اسم على كابو وكان اسمه الحقيقي على سحلول ، وهو الذي صار وزيرا للخارجية في حكومة ثورة الانقاذ بقيادة البشير ، وتعرفت على اثنين

من ضباط الجيش السوداني وهما أحمد عبد الحليم الذي صار قائدا للجيش السوداني في عهد جعفر النميري ، وشقيقه محمد عبد الحليم الذي أصبح وزيرا للاقتصاد ، وتعرفت على شاب آخر كان يعمل بإذاعة أم درمان ثم أصبح مديرا لها بعد استقرار الأوضاع في ظل ثورة أكتوبر ، وقد صار الشاب فيما بعد وزيرا للشباب ثم وزيرا للإعلام في وزارة البشير وهو الأستاذ علي شمو أحد خبراء الإعلام المعدودين في العالم العربي . وتعرفت أيضا على ضابط شاب كان يبدو شديد الحياء والخجل وكان دائم الابتسام ويضحك كثيرا من الأعماق ، وقد تعرفت عليه في سهرة قضيناها على رصيف قبة المهدي بأم درمان مع الكابتن سبت دودو حارس مرمى المنتخب السوداني وأشهر لاعب في تاريخ الكرة السودانية ، وقد ضمت السهرة الدكتور أحمد صابر وشقيقه الصيدلي عبد الحميد عبد الرحمن ، الضابط الشاب الذي جالسناه على الرصيف عدة مرات هو خالد عباس أحد رجال ثورة مايو ونائب رئيس الجمهورية في عهد نميري ووزير الدفاع . تعرفت أيضا على زعيم الحزب الشيوعي عبد الخالق محجوب الذي كان يبدو أقرب إلى سكان القاهرة منه إلى سكان الخرطوم ، وكان شيوعيا من طراز يختلف عن طراز الشيوعيين الذين عرفناهم في العالم العربي . كان يحرص على صلاة الجمعة في أكبر مساجد الخرطوم . وكان يحرض أعضاء الحزب على ضرورة الحفاظ على مظهرهم كمسلمين . وكان شديد الحرص على استمرار العلاقات الحسنة بين القاهرة والخرطوم وقد أبلى عبد الخالق محجوب وحزبه بلاء حسنا في ثورة أكتوبر ، ولكن الجميع تآمروا ضده وضد الحزب الشيوعي وأبعدوه عن المشاركة في السلطة ولكنه عاد بقوة بعد ثورة مايو ، واشترك مع النميري في أول أيام ثورة مايو قبل أن ينقلب الحزب الشيوعي ضد النميري في العام التالي ، وانتهى الخلاف بينهم إلى شنق محجوب ورفاقه بعد محاكمات هزلية تصدرها النميري نفسه .

وفي تلك الأيام المبكرة من عام ١٩٦٤ استطعت أن ألمس بنفسي عددا من المشاكل التي كانت في بداياتها والتي تضخمت بعد ذلك وتحولت إلى مشاكل رهيبة تحطم مسيرة السودان وتعرقل خطواته . كانت الحرب في الجنوب على

أشدها ، بين الانفصاليين والنظام العسكرى الذى يحكم بقيادة عبود ، وهدأت الحرب الأهلية بعد قيام ثورة أكتوبر ولكن صاحب هذا الهدوء نزوح عشرات الألوف من أبناء الجنوب إلى الشمال ، واستقرار هذه الألوف فى مناطق عشوائية حول الخرطوم وأصبحت الخرطوم فى خلال عام واحد محاصرة بسور من الأحياء الفقيرة المتخلفة التى يسكنها عشرات الألوف من أبناء الجنوب الفارين من لهيب الحرب الأهلية والذين لا يثقون بسكان الشمال ولا يأمنون لهم ، وحدث ذات صباح أن ذهبت لزيارة نادى المريخ الرياضى بصحبة الصديق حسن أبو العلا رئيس النادى وأثناء جولتنا بملعب كرة القدم الذى كان قد أنشئ حديثا رأيت شابا سودانيا فارع الطول شديد النحافة يرتدى جلبابا قصيرا ويمسك بيده خرطوما يرش به أرض الملعب ، وألقيت التحية على الشاب قائلا : إزيك يا عبده . ولم أكد أنتهى من العبارة حتى ألقى الشاب بالخرطوم الذى فى يده وانطلق يعدو كالغزال الشارد . وعندما اقترب من سور النادى قفز فى الهواء كالوعل الهارب وعبر السور فى حركة لا يقوى على القيام بها أبطال ألعاب القوى فى الدورات الأولمبية ، وسرعان ما أصبح فى الشارع وغاب عن الأنظار ، واستفسرت من الصديق حسن أبو العلا عن السبب الذى أغضب الشاب السودانى ، وعندما شرح لى الأمر أدركت أن السودان على أبواب كارثة .

فعندما ألقيت عليه التحية قائلا : ازيك يا عبده . تصور أننى أصفه بالعبد ، وشرد خياله بعيدا متصورا أننى جئت لشرائه وتأكد لى أن الخلاف بين الشمال والجنوب ليس خلافا عابرا ولكنه خلاف مركب تضرب جذوره فى أعماق النفس كما تضرب جذور النخلة فى أعماق الأرض ، فالأخوة فى الجنوب لديهم قناعة بأن الأخوة فى الشمال هم الذين تاجروا فيهم كعبيد ، وهى مزاعم حقيقية لأن الذى نظم تجارة العبيد واستفاد من ورائها هو الأوروبى الأبيض . قد يكون بعض الشماليين تولوا حراسة القوافل حتى الشاطئ ، وقد يكون بعضهم قد اشترك مع التجار البيض كمرشد لمسالك الغابة ، ولكن ذكريات الجنوبى لا تحفظ إلا دور هؤلاء الشماليين ، وهو دور محدود للغاية . ولكن إذا كانت هذه هى فكرة الجنوب

عن الشمال ، فهى حالة خطيرة وتنذر بكارثة من النوع الثقيل . الظاهرة الأخرى التى اكتشفتها فى الخرطوم هى أن السودان كله عائلة واحدة وأن الخلاف السياسى لا يفسد للود قضية ، فقد وجهت جميع الأحزاب السياسية دعوات للعبد لله احتفالا بوجودى فى الخرطوم من أول الحزب الشيوعى إلى حزب الأمة إلى الحزب الوطنى الاتحادى إلى حزب وادى النيل ، وفى هذه الحفلات التى أقيمت على شرف العبد لله وجدت جميع الأحزاب هناك ، والجميع أخوة وزملاء وأصدقاء رغم ما بينهم من خلافات سياسية . وتأكدت أن السودان بخير طالما سادت هذه الروح ، ولكن هذه الروح لم تستمر فى الساحة السياسية السودانية للأسف الشديد . قضى عليها جعفر النميرى بسياسته الحمقاء وبانضمامه مرة للتيار الناصرى ومرة للحزب الشيوعى وتحالفه مرة مع حزب الأمة وسقوطه آخر الأمر فى أحضان الترابى وجماعة الاخوان المسلمين . وفى كل مرة تحالف فيها مع أحد هذه التيارات كان يقوم بتصفية الآخرين ، ولم يعرف الشعب السودانى فى خلافاته السياسية حمامات الدم إلا فى ظل النميرى ، حيث قام بعدة تصفيات لأكثر من تيار ومهد الأرض كثيرا للممارسات الوحشية التى تجرى الآن بواسطة ثورة الانقاذ على أرض السودان .

ولكن أغرب من عرفتهم فى السودان لم يكن من رجال السياسة ولا من رجال الحكم ، ولكنه كان رجلا عاديا قضى شبابه فى مصر وفى حى عابدين بالذات ، وعندما استقل السودان عن مصر ترك الشيخ مهدى بيته فى القاهرة وسافر إلى الخرطوم . وكان الشيخ مهدى قد أمضى أغلب فترات شبابه المبكر إلى جانب الشيخ على محمود ، كان يعشق الشيخ على إلى حد الجنون وكان له قدرة على تقليده ، وكان يحلو له فى ساعات صفوه القيام بأداء تواشيح الشيخ الشهيرة كموشح إذا كان يوم الحشر والعرض واللقا . وكان يتمتع بصوت جميل واذن موسيقية قادرة على حفظ أى لحن تستمع إليه ولو مرة واحدة . ولكن الشيخ مهدى الذى اعتاد حياة القاهرة الصاخبة ولياليها الساهرة ومقاهيها التى لا تغلق أبوابها ، لم يحتمل حياة الخرطوم الهادئة الوادعة ولكن عوضته صداقة

أحمد عبد الحليم الذى قضى هو الآخر شبابه فى مصر أيضا والذى تخرج فى الكلية الحربية المصرية ولم يغادر مصر إلى الخرطوم إلا بعد استقلال السودان وكان يحمل رتبة النقيب فى الجيش المصرى ومن خلال الضابط أحمد عبد الحليم تعرف الشيخ مهدى على كل الزعماء السياسيين فى السودان ، ولكن نجم الشيخ مهدى لم يلمع إلا فى عهد النميرى ، فقد كان صديقا شخصيا لأغلب أعضاء مجلس قيادة الثورة وخصوصا خالد حسن عباس ومحمد زين العابدين وبابكر النور . وكان من عادة الشيخ مهدى ترتيل آيات الذكر الحكيم على طريقة الشيخ علي محمود فى حفل السفارة المصرية بذكرى ثورة ٢٣ يوليو وزاد نفوذ الشيخ مهدى إلى درجة أنه كان يسافر مع قادة ثورة مايو فى رحلاتهم إلى الخارج وكان يحضر معهم الاجتماعات التى يتخذون فيها أخطر القرارات وكان له تأثير بالغ على عدد كبير من رجال القيادة . واضطر الشيخ عندما نجح انقلاب بابكر النور لعدة أيام إلى الاختفاء فى منزل أحد أصدقائه ولم يظهر فى قرية «الكدرو» على بعد أميال قليلة من الخرطوم ولكنه ظهر بعد أيام قليلة من عودة النميرى فى الخرطوم وإن كان لم يستطع العودة إلى سابق عهده قبل انقلاب بابكر النور . والسبب أن النميرى بعد عودته أطاح بنائبه وبوزير دفاعه خالد حسن عباس الذى صار وزيرا للصحة . واضطر الشيخ مهدى إلى مغادرة الخرطوم ومكث فى القاهرة عدة أشهر . وعندما سألته عن سبب عدم عودته للخرطوم ، وعما إذا كانت وراء هذه الغيبة الطويلة أسباب سياسية تحول دون عودته ، أجابنى ضاحكا : مافيش أى حاجة أبدا ... المسألة إنه أنا زهقت من الخرطوم ، تصور يا أستاذ عندهم كورنيش للنيل الأزرق وكورنيش للنيل الأبيض ما تلاقيش حد بيتمشى على الكورنيش ! ما تلاقيش واحد بتاع ترمس واقف وحاطط قلل تشرب منها ! ما تلاقيش واحد بتاع سميط وبيض ماشى تأكل لقمة عنده !

وظل الشيخ مهدى فى القاهرة ولم يغادرها إلا بعد أن شعر بأنه مريض ، وكما تفعل الأفيال عاد إلى مسقط رأسه فى الخرطوم ومات هناك .

ولا أنكر الآن أننى أحببت الخرطوم إلى درجة العشق واعتبرتها جنة الأرض

خصوصا فى فصل الشتاء . وأذكر أننى ذات مساء وكنا جلوسا على الرصيف وكان يجلس معنا الشيخ مهدى وحكمدار بوليس العاصمة والكابتن سبت دودو وعبد الحميد عبد الرحمن وامتدت السهرة بنا إلى الساعة الثانية صباحا . وسرح العبد لله بعيدا وفجأة ألقيت نظرة على الساعة التى كانت تشير إلى الثانية والربع صباحا ، وعلى الفور نهضت من مقعدى فى حركة مفاجئة واستأذنتهم فى الانصراف ويبدو أن الدهشة أصابتهم جميعا وتركونى أنصرف . لم تكن معى سيارة ولم تكن وسائل المواصلات تعمل حتى هذا الوقت المتأخر من الليل ومع ذلك مشيت حتى محطة الأتوبيس وتوقفت عندها . لقد اختلط الزمان بالمكان فى ذهن العبد لله وتوقفت عند محطة الأتوبيس فى أم درمان تصورا منى أننى فى القاهرة وفى طريقى إلى الجيزة ، وعندما عدت إلى رشدى تركت المحطة وعدت إلى حيث كان يجلس الأصدقاء وما أن اقتربت منهم حتى انفجروا ضاحكين ! إلى هذا الحد نسيت نفسى فى الخرطوم ، وفى منطقة الشجرة حيث النيل الأبيض يمشى بطيئا بليدا وسمك العجلة يطفو على سطحه أحيانا كأنه سيد قشطة تصورت أننى فى المنوفية وعلى شاطئ الرياح المنوفى ، وفى المجرن حيث يلتقى النهران تصورت أننى فى القناطر الخيرية قبل أن يتفرع النهر إلى فروع ورياحات .

فى الخرطوم لا يشعر المصرى الحقيقى أنه غادر مصر . وعند محطة السكة الحديد تعرفت على مصرى فى السبعين من عمره يدير محلا للبقالة وفى البداية جاء الرجل إلى السودان جنديا فى جيش مصر وتزوج من سودانية وأنجب منها عدة أولاد . وعندما استقلت السودان خرج الرجل على المعاش وافتتح محلا للبقالة بالقرب من محطة السكة الحديد . كان الرجل يرتدى الزى السودانى ويتحدث نفس لهجة أبناء الخرطوم ولم يكن قد شاهد مصر منذ ٢٧ عاما ليس كراهية فى مصر أو عدم وجود الرغبة فى رؤيتها مرة أخرى ولكن .. دى ارادة ربنا . هكذا قال عم سالم للعبد لله . الأمر المدهش أنه كان فى كل عام يقطع تذكرة السكة الحديد من الخرطوم إلى القاهرة والعودة .. ولكنه بعد شهرين يعيد

التذكرة ويسترد نقوده .. ولم ينقطع عن هذه العادة فى أى عام ، والمدهش أيضا أن الرجل كان عضوا فى الحزب الوطنى الاتحادى . وعندما سألته عن السبب فى اختياره لهذاالحزب بالذات قال .. ولا حاجة هو بس الحزب الوحيد اللى بيرفع شعار الوحدة مع مصر .

فى الخرطوم أيضا تعرفت على رجل من أعيان السودان اسمه أبو العلا ، يملك ضيعة على ضفة النيل يعمل بها عشرات من الصعايدة من أقاربه ، فالرجل أصله من سوهاج ونزح من هناك وهو شاب صغير ثم حصل على قطعة أرض على ضفة النيل واستدعى أقاربه من الصعيد وراحوا يشتغلون وبعد سنوات كانت مزرعة أبو العلا هى النموذج فى السودان ، وقد دعانا الرجل ذات مساء والمرحوم سليم اللوزى وعبد الوهاب حسنى المستشار الصحفى المصرى فى سفارة مصر بالخرطوم ورأيت بعينى رأسى التماسيح وهى تتلعبط على شاطئ المزرعة وطلبت من الصديق أبو العلا إحليل التمساح تلبية لطلب من صديقى الفنان محمد رضا. وعلمت من أبو العلا أن إحليل التمساح لا يصلح دواء للشيوخ إلا إذا تم قطعه والتمساح على قيد الحياة . ووعدنى خيرا ، وإذا كنت محظوظا سأحمله معى عند سفرى من الخرطوم ، والا سيصلنى فى بيتى على شاطئ النيل فى الجيزة . وكنت سعيد الحظ لأننى تسلمت الإحليل وأنا فى فندق الجراند أوتيل فى الخرطوم وعدت إلى القاهرة وسلمته للفنان محمد رضا والذى ذهب به إلى عطار مشهور بحى الأزهر .. ومن مسحوق الإحليل معجونا مع بهارات كثيرة ، وضع العطار لنا برطمانين من مربى الإحليل وبالطبع احتفلنا الصديق محمد رضا وأنا بمربى الإحليل وأقمنا حفلا ساهرا ودعينا له عددا من الأصدقاء ، ولكننا فى النهاية أقمنا مأتم عزاء فقد اكتشفنا أن التمساح الذى اصطاده أبو العلا من النيل كان التمساح الوحيد المصاب بالعقم من أول بحيرة فيكتوريا وإلى خزان أسوان . ولقد كانت آخر رحلة للعبد لله إلى السودان فى طائرة جمال عبد الناصر وكانت زيارته للسودان فى احتفال مايو عام ١٩٧٠ نفس العام الذى رحل فيه عن الحياة .. وما أكثر الحكايات والمفاجآت التى حدثت فى تلك الرحلة الأخيرة .

نصحــونى بالهـــرب

ماحدث لنا فى رحلة عبد الناصر ، كان يختلف كل الاختلاف عما حدث لنا خلال ثورة أكتوبر عام ١٩٦٤ فى السودان . بعد الثورة الأولى عادت الاحزاب التقليدية إلى الصدارة وكأنها لم تتعلم شيئا ولم تستفد شيئا ولم تغفر أى شىء .

شبح مصر كان عفريت حزب الأمة ، وسرعان ما قبضوا على الأخوين عبد الحليم أحمد ومحمد !

والتهمة هى محاولة القيام بانقلاب لمصلحة مصر وثارت ثائرة الجماهير فى الشوارع وأشعلوا النار فى العلم المصرى وهاجموا السفارة المصرية ، وقذفوها بالحجارة ، وذهب المرحوم محمد أحمد محجوب فى اليوم التالى إلى السفارة المصرية ورفع العلم بنفسه وقدم اعتذار الحكومة السودانية . ولكن بعد أيام نشر الاستاذ محمد حسنين هيكل مقالا فى الأهرام حلل فيه بطريقته الموقف فى السودان ، وفى نفس اليوم نشر المرحوم موسى صبرى مقالا فى الأخبار عن النتائج التى خرج بها من زيارته للسودان .

واعتبرت الأحزاب السودانية التقليدية ماجاء فى المقالين هجوما على ثورة أكتوبر ومحاولة مصرية لسرقة الثورة ، وإذا بالجماهير تنطلق إلى الشوارع تطلب الثأر . وغادرت «الجراند أوتيل» لأتبين حقيقة الأمر ، وإذا ببعض المتظاهرين يلمحون العبد لله فيصيح بعضهم وهم يشيرون نحوى .. موسى صبرى .. موسى صبرى .. وإذا بالجماهير تندفع نحوى وبعضهم يحمل فروع شجر وأسياخ حديد وكرابيج سودانى من النوع اللى ماتشوف عينك إلا النور ! .

ونصحنى الدكتور عبد الحميد عبد الرحمن الذى كان يقف إلى جوارى بالهرب.. ولم أتردد فى تنفيذ نصيحة الصديق ، وأطلقت ساقى للريح وخلفى

يعدو عشرات من المتظاهرين الغاضبين . والحمد لله لأن العبد لله كان فى شرخ الشباب ، ولذلك فتحت على الرابع فى اتجاه السفارة المصرية ، واستطعت أن أحافظ على مسافة مائة متر بينى وبين المتظاهرين .

وأثناء العدو لمحت أمامى شخصا آخر يعدو فى نفس الاتجاه ، ولكن بطريقة توحى بأنه من أبطال دورة أولمبياد طوكيو . وبالرغم من كل المحاولات التى بذلتها من أجل اللحاق بالعداء العالمى .. إلا أن محاولاتى كلها باءت بالفشل .. ووصل العدَّاء إلى باب السفارة قبلى بنصف دقيقة . ففتح له الحراس الباب وأعادوا غلقه . عندما انتهوا من هذه المهمة وقبضوا بأيديهم على السلاح كان العبد لله قد وصل إلى نقطة النهاية . وشعرت أننى هالك عندما تردد الحراس فى فتح الباب. فصرخت فيهم صرخة عنترية جذبت انتباه العدَّاء الذى سبقنى فنظر خلفه وعندئذ رأيت وجهه وكانت دهشتى كبيرة عندما اكتشفت أنه الصديق الكاتب الكبير أحمد حمروش . وسبب دهشتى أننا أثناء الماراثون الدولى الذى اشتركنا فيه رغم أنوفنا كان حمروش يبدو كالغزال الشارد . وأدركت لحظتها فوائد عدم التدخين .. وقضيت يومين كاملين داخل السفارة مع أحمد حمروش وعدد من أفراد البعثة الدبلوماسية الذين اعتصموا بالسفارة . وبعد يومين انتهت الأزمة وأفرجت الحكومة عن الأخوين عبد الحليم ، والتقيت بالأستاذ عبد الرحمن مختار صاحب ورئيس تحرير جريدة الصحافة بفندق الجراند أوتيل ، وحكيت له ماجرى للعبد لله فى اليومين الماضيين فكان تعليقه أن ماحدث كان مأساة واتهم بعض الجهات بتدبير الحوادث . ونفى أن يكون ماحدث صادرا من الشعب السودانى الذى يضع مصر وشعبها فى موضع القلب . وأبديت له رغبتى فى عقد اجتماع جماهيرى لشرح موقف مصر الحقيقى من ثورة أكتوبر للجماهير الغاضبة .

واستحسن الأستاذ عبد الرحمن مختار الفكرة ونشر الخبر فى اليوم التالى ، واخترنا قاعة الاجتماعات بالجامعة لتكون مقرا للاجتماع ، وعندما ذهبت إلى مكان الاجتماع فوجئت بحشود من رجال البوليس تحيط بالمكان بينما مئات السودانيين يقفون خارج أسوار الجامعة بعد أن منعتهم الشرطة من الدخول . وعدت أدراجى إلى الفندق ، وجاء الأستاذ عبد الرحمن مختار ومعه عدد من

الصحفيين وقال لى: تستطيع الآن أن تقول لنا ما كنت تنوى قوله فى الاجتماع ، وسننشره فى الجورنال وسيقرأه كل السودانيين فى الصباح . واستحسنت الفكرة ، وبدأت أشرح له موقف مصر من ثورة أكتوبر ، ثم بدأت الأسئلة وجاوبت عليها كلها بلا حرج ، وكان أحد الأسئلة يتناول مقال هيكل ومقال موسى صبرى وتساءل الصحفى صاحب السؤال : كيف يتفق ما تقوله مع ما جاء فى هذين المقالين من تشكيك فى ثورة أكتوبر ؟ وقلت ردا على السؤال إننى صحفى مصرى وأكتب ما أومن به وأنشره وكذلك يفعل هيكل وموسى صبرى ، ولكن بعضكم يتصور أن هناك رقابة وهناك توجيهات تأتى من أعلى وهو شىء لا وجود له على الإطلاق ، وهنا قال أحد الصحفيين : إننا نصدق ما تقوله ولكن ما رأيك فى موقف هيكل وموسى صبرى اللذين يهاجمان ثورة السودان ويهاجمان شعب السودان بحدة ليس لها مبرر . وقلت للزميل الصحفى صاحب السؤال : تعليقى الوحيد هو أن ... كل من يهاجم ثورة السودان أو شعب السودان ... (ابن .....)!

فى صباح اليوم التالى ظهرت الصحف السودانية ومانشيتاتها الرئيسية على النحو الآتى .. السعدنى يقول ... هيكل وموسى صبرى ... (ابن ....) وبالمناسبة (ابن ...) لا تحمل فى السودان نفس المعنى الذى تحمله فى مصر ولذلك وضعت الصحف السودانية الكلمة بين قوسين .

المهم أننى غادرت السودان بعد ذلك بأيام وبعد دقائق قليلة من دخولى منزلى فى الجيزة دق التليفون وكان المتحدث هو موسى صبرى وقال لى ضاحكا فى التليفون .. صحيح الكلام اللى أنا سمعته ؟! أجبته .. صحيح مائة فى المائة .. قال ... وهل وصفتنا بأننا (أولاد ....)؟! قلت له ... حصل . قال ... وهل نشرت الجرائد السودانية ما قلته ؟! قلت له ... ومانشيتات بعرض الصفحة . سألنى فى النهاية هل أحضرت معك نسخا من هذه الجرائد؟! فلما أجبته بالايجاب . قال ... قبل أن ينهى المكالمة . أنا جايلك .. وبعد نصف ساعة كان موسى صبرى يجلس أمام العبد لله يتصفح الجرائد التى نشرت حديثى ، ثم أخذ نسخة من كل جريدة وشرب القهوة قبل أن ينصرف ضاحكا .

بعد أيام من عودتى من الخرطوم قضيت سهرة ممتعة مع المرحوم كامل

الشناوى . وعندما قمت بتوصيله فجرا إلى منزله سألنى سؤالا مفاجئا .. هل اعتذرت للأستاذ هيكل ؟! قلت له مندهشا أعتذر له على إيه؟ وشوح كامل الشناوى بكلتا يديه فى الهواء وهو يقول للعبد لله بطريقته ... مش عارف على إيه؟!. على المصيبة اللى انت عملتها فى السودان . وقلت له مستنكرا ... أنا عملت مصيبة فى السودان ! وقال كامل الشناوى وهو يضرب بيده على تابلوه السيارة الفولكس فاجن بتعنا .. الحديث الكارثة اللى انت عملته ووصفته فيه بأنه ابن كذا . قلت له ببراءة منقطعة النظير وفيها إيه دى! كنا قد توقفنا بالسيارة أمام منزل كامل الشناوى بجاردن سيتى . وقال كامل الشناوى وهو يهم بالخروج من السيارة ... أنت إما جرىء وإما مخبول .. وأنا أرجح أنك مخبول ، ثم أكمل ... وأنا كان نفسى أبقى زيك ! لعبت كلمات كامل الشناوى برأسى ، فلابد أنه علم بأن هيكل غاضب من حديثى فى الخرطوم . وإذا غضب هيكل فإن أحدا لا يستطيع أن يتنبأ بما سوف يحدث . ولكن لأن المسألة كان قد فات عليها بعض الوقت ، فإن هيكل بالتأكيد لم يغضب ، وربما نسى الأمر كله بعد أيام . ولم ألتق بالأستاذ هيكل إلا بعد ذلك بشهور . وأصل الحكاية أننى كنت فى تلك الأيام عضوا بمجلس تحرير مؤسسة روز اليوسف . وكان المجلس مكونا من تسعة أشخاص وكان لكل منهم حق الفيتو على ما يتخذه المجلس من قرارات . وكان رئيس مجلس إدارة روزاليوسف فى ذلك الوقت هو الأستاذ أحمد فؤاد الذى كان فى نفس الوقت رئيسا لمجلس إدارة بنك مصر وهو الآن رئيس لمجلس إدارة بنك قناة السويس . وهو رجل ثورى وكان المدنى الوحيد فى تنظيم الضباط الأحرار ، ولم تمنعه وظيفته كوكيل للنائب العام من الاشتراك فى الثورة ، وقد حدث الخلاف بينى وبينه منذ اليوم الأول الذى تولى فيه إدارة العمل فى مؤسسة روز اليوسف . واستفحل الخلاف بعد ذلك وانتهى بأن قدمت استقالتى واعتكفت فى بيتى . وبعد أيام من استقالتى أيقظتنى زوجتى الساعة السابعة والنصف صباحا لأن الأستاذ هيكل على التليفون . وقال لى الأستاذ هيكل ... إنت لسه نايم لحد دلوقت .. وقلت له .. ومعقول إنت صاحى دلوقت .. ورد قائلا .. لا . أنا صاحى من الساعة خمسة . وقلت له مازحا .. هو أنت رئيس تحرير الأهرام والا إيه بالضبط! قال ..

أنا رئيس تحرير الأهرام علشان كده باصحى خمسة الصبح . لكن انت بتصحى خمسة بعد الظهر لأنك ما بتشتغلش أى حاجة . ضحكت وضحك هو الآخر ثم قال .. أنا عاوزك تيجى لى بكره الساعة سبعة .. سألته .. سبعة بالليل ؟! .

قال .. لأ . سبعة الصبح . توسلت إليه أن يرجىء الموعد حتى التاسعة ، ولكنه قال وهو ينهى المكالمة .. خليها سبعة ونص سلام بقى . واضطر العبد لله إلى السهر على مقهى الفيشاوى حتى الساعة السادسة صباحا ومن القهوة توجهت إلى مكتب الأستاذ هيكل بالأهرام . وحدث خلاف بينى وبين السيدة نوال المحلاوى سكرتيرته وهى سيدة حديدية مثل تاتشر ، ولكنها تتمتع بنشاط وكفاءة يندر وجودها الآن بين العاملين فى المجال الصحفى . وكان سبب الخلاف بينى وبين نوال المحلاوى هو إصرارها على معرفة سبب المقابلة . فدخلت على الأستاذ هيكل دون أن أفصح لها عن السبب ، ولمحت لحظة دخولى المكتب ، المرحوم صلاح جاهين يتثاءب بشدة فى الحجرة . وبعد أن ألقيت السلام على الأستاذ هيكل قلت .. أنت طبعا زعلان منى .

فسألنى مندهشا .. ليه ؟ أجبته .. علشان الكلام اللى قلته عنك فى السودان . قال .. آه فكرتنى .. أنا فعلا زعلان منك . قلت .. أصل الحكاية ، لكن الأستاذ هيكل قاطعنى قائلا .. مش مهم أعرف الحكاية ، لكن المهم أنت تعرف أنا زعلان منك ليه . تساءلت مندهشا .. ليه ! قال الأستاذ هيكل لأنك شتمتنى أنا وموسى صبرى . ضحكت بشدة وقلت للأستاذ هيكل .. على الطلاق بالتلاتة الدور الجاى ح أقول هيكل وحده ابن كذا .. قال هيكل ضاحكا ... خلاص يبقى كده صافى يالبن .

فى هذا اللقاء الذى استمر ساعة أصدر هيكل قرارا بتعيين العبد لله بالاشتراك مع صلاح جاهين رئيسا لتحرير مجلة أبو الهول التى تصدر عن دار الأهرام ، وقلت لهيكل إذا كنت جايبنى هنا فى الأهرام علشان تربط لسانى وماهاجمش حد يبقى مش ح اشتغل معاك . وقال هيكل .. على العموم أنا ح أديلك قائمة بالناس وقاطعته متسرعا .. اللى أهاجمها . قال هيكل .. لا بالناس

اللي ما تهاجمهاش .. ودول كام واحد إن شاء الله . قال اثنين بس . سألته مين دول .. أجاب .. جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وبعد كده أنت حر . قلت ... حط عليهم ستة كمان .. قال .. مين دول ؟ قلت .. شيخ الأزهر وبطريرك الأقباط وزكريا محيي الدين وأنور السادات قاطعني الأستاذ هيكل قائلا .. إيه الكرم ده .. ثم أضاف .. خلاص اتفقنا ، ثم انتزع ورقة من أمامه وقال .. أنت إسمك الثلاثي إيه ؟ وبعد أن ذكرت له اسمي عاد ليسألني .. ومرتبك كام في روزاليوسف ؟ قلت له .. (٢٠٠) جنيه قال إذن سيكون مرتبك هنا (٣٠٠) جنيه .

قلت له .. لن أقبل مليما واحدا زيادة على مرتبي لأنهم سيقولون في روزاليوسف إنني تركتهم من أجل الفلوس . وقال هيكل .. دعهم يقولون ولكن هناك مبدأ ولابد من الالتزام به ، كل من ينتقل إلى الأهرام لابد من زيادة راتبه . ثم قال وهو ينهي المقابلة ... أرجو أن تبدأوا العمل من هذا الأسبوع . وقدموا لي قائمة بأسماء المحررين والرسامين الذين تحتاجونهم في العمل . وأريد مجلة ساخنة ومنتشرة ، ثم نظر نحوي وقال هاجمني أنا في أول مقال تكتبه في أول عدد حتى أقطع خط الرجعة على الذين سيلجأون إلي عندما تهاجمهم ، قلت وأنا أودعه .. سأكون عند حسن ظنك ، وسيكون مقالي عنك في أول عدد حديث المجالس والمقاهي والبيوت .

وبعد أن عقدنا صلاح جاهين وأنا أول اجتماع لاختيار هيئة التحرير ، استدعاني الأستاذ هيكل إلى مكتبه وقال لي .. عد إلى روز اليوسف يامحمود ، وقبل أن تغادر الأهرام اذهب إلى الخزينة واقبض مرتبك عن هذا الشهر ، قلت له .. أولا أنا لا أستحق مرتبا لأنني لم أقدم شيئا ، وثانيا من حقك أن تبعدني عن الأهرام ، ولكن ليس من حقك أن تحدد لي المكان الذي أذهب إليه ، فأنا خرجت من روز اليوسف ولن أعود إليها . قال هيكل .. ولكنك ستعود إليها غصب عنك وغصب عني وغصب عنهم .. ولم أفهم معنى كلماته في ذلك الحين ، ولكني عرفت ذلك بعد فترة من الزمن .

وأصل الحكاية أن الأستاذ أحمد فؤاد شكا للسيد علي صبري بعد أن علم

بأننى اشتغلت فى الأهرام ، وشكا على صبرى للرئيس جمال عبد الناصر بأن هيكل يحاول تخريب روزاليوسف ، وأنه بدأ بالعبد لله وسيحاول الاتفاق مع عدد آخر من الرسامين والمحررين . وقال عبد الناصر لهيكل ... بلاش ياهيكل مشروع المجلة دلوقت والسعدنى يرجع روز اليوسف .

الغريب أننى بعد عودتى إلى منزلى قادما من مكتب هيكل وجدت الأستاذ فتحى غانم يجلس فى غرفة صالون منزلى ومعه أكرم ابنى وكان فى الثالثة من عمره وقال فتحى غانم وهو يضحك أنت فاهم إنك ح تهرب مننا ، وقلت لفتحى .. ياعم فتحى أنا مش ح أرجع روز اليوسف تانى . وقال فتحى غانم بطريقته الودود . ماهى المسألة مش على كيفك ومش على كيفى .. أنت ح ترجع روز اليوسف يعنى ح ترجع روز اليوسف .. قلت له معاندا .. لا مش راجع .. قال فتحى .. أنت ما أخدتش أجازة من زمان علشان كده أنا جايب لك تذاكر علشان تسافر مع يوسف السباعى إلى غانا ، روح اتفسح ولما ترجع ابقى تعال . وأخرج فتحى غانم من جيبه مظروفا ناولنى إياه وقال أدى التذاكر ومرتب الشهر ده . قلت لفتحى .. المرتب مقبول ولكن هو السفر لغانا ده فسحة! قال فتحى .. قبل ما تحكى افتح التذاكر وشوفها .. وفتحت التذاكر واكتشفت أنها من القاهرة إلى أكرا ومن أكرا إلى باريس ومن باريس إلى لندن ومن لندن إلى القاهرة ، وهكذا عدت من جديد إلى روز اليوسف !.

ولكن حديثنا كان عن زيارة الخرطوم أثناء زيارة جمال عبد الناصر ، ولكن لأن الحديث ذو شجون فقد عدنا بكم إلى رحلة سابقة فى عام ١٩٦٤ . على العموم سيكون حديثنا عن رحلتنا إلى الخرطوم مع جمال عبد الناصر .

قف .. أنت قاف !

تخلفت عن السفر إلى الخرطوم فى طيارة عبد الناصر بسبب غريب «لا يصدكه عكل» على رأى الست شويكار ! عندما ذهبت إلى المطار ألقى ضابط الجوازات نظرة على جواز سفرى ، ثم قال لى : أنت للأسف الشديد لن تستطيع السفر . سألته .. لماذا ؟ وجواز سفرى عليه تأشيرة خروج . قال : هذا صحيح ولكن أنت فى القوائم ، وتأشيرة خروجك ينبغى أن تحمل إشارة تشير إلى أنك فى القوائم ومع ذلك سمحوا لك بالخروج قلت ولكننى مسافر إلى السودان ضمن البعثة الصحفية المرافقة للرئيس عبد الناصر . اتصلت من المطار باللواء مخلوف رئيس مصلحة الجوازات الذى طلب منى استدعاء الضابط لمحادثته .. وجاء الضابط بالفعل وتحدث إلى اللواء مخلوف ، وبعد المكالمة اعتذر عن عدم استطاعته السماح لى بالسفر وضرورة عودتى بالجواز إلى المصلحة لتصحيح الوضع ! عدت من المطار إلى مكتب شعراوى جمعه وزير الداخلية الذى اندهش كثيراً لعدم سفرى مع الرئيس عبد الناصر إلى السودان ، وازدادت دهشته عندما عرف السبب ، وعلق على الموضوع قائلاً .. أنت لسه قوائم لحد دلوقت ؟ ! وكانت دهشة شعراوى جمعة فى محلها ، فقد كنت فى ذلك الحين رئيساً لتحرير مجلة صباح الخير ومسئولا عن التنظيم الطليعى فى الجيزة ، ومع ذلك لم أطلب من أحد رفعى من القوائم ، واتصل شعراوى جمعة باللواء حسن طلعت مدير المباحث العامة وسأله سؤالاًغاظنى بشدة .. قال شعراوى جمعة لحسن طلعت رئيس المباحث العامة : هو السعدنى لسه فى القوائم ؟ ثم أردف قائلاً : لا ازاى .. دول منعوه من السفر فى طيارة الريس ، طيب شوف إيه الحكاية دى ياحسن ، ثم وضع شعراوى جمعة سماعة التليفون والتفت نحو العبد لله وقال : أنت مش فى القوائم ولا حاجة . قلت له ببراءة شديدة .. ازاى يا أفندم .. ده الضابط منعنى من الدخول فى الصالة .. قال ببساطة ده ضابط غبى . وتركت مكتب وزير

الداخلية وأخفيت عنه أنني قبل حضوري إلى مكتبه مررت في طريقي باللواء حسني طه المسئول عن القوائم في مصلحة الجوازات ، وأبلغته بما حدث في المطار وأجاب : الضابط معتوه يا محمود .. ثم اتصل بموظف بأحد الأدوار العليا بمجمع التحرير وطلب منه الكشف عن اسم محمود السعدني وإبلاغه بالنتيجة كتابة ، وجاء الموظف بعد قليل ومعه ورقة تحمل اسمي .. وتحت اسمي عبارة تقول : قوائم الممنوعين من السفر مارس ١٩٥٩ ، وسلمني الورقة ووضعتها في جيبي وذهبت لمقابلة الوزير ولكنني لم أطلعه عليها ولم أخبره بما حدث . نزلت من مكتب وزير الداخلية إلى مكتب اللواء حسني طه وحكيت له ما دار بيني وبين الوزير . فاتصل تليفونيا مرة أخرى بالموظف المسئول عن القوائم ، وطلب منه الكشف عن اسم محمود السعدني وإبلاغه بالنتيجة كتابة ، ولم يكن قد مضى على لقائي بوزير الداخلية أكثر من نصف ساعة .. ولم يكن قد مضى على الكشف عن اسمي في المرة الأولى أكثر من ساعتين .. ومع ذلك عندما جاء الموظف للمرة الثانية في مكتب حسني طه ، كانت الورقة التي معه تحمل اسمي فقط دون أي إشارة أنني ضمن قوائم الممنوعين من السفر ، وقال حسني طه للموظف : أنت كشفت كويس ؟ وأجاب الموظف : طبعا يا أفندم الاسم نظيف خالص ، وقال لي حسني طه تستطيع الآن أن تذهب إلى المطار وتسافر في أي وقت .. قلت له : طيب وإذا الضابط منعني ثاني ! قال حسني طه : لا يستطيع أحد أن يمنعك ولا يجرؤ على ذلك . وسافرت في اليوم التالي دون أن يعترض على سفري أحد . وبعد ساعتين من الاقلاع وجدت نفسي في الخرطوم ، ووجدت في انتظاري بالمطار .. مدير مكتب وزير الحربية ونائب رئيس الجمهورية خالد حسن عباس وبصحبته الشيخ مهدي ، وركبت سيارة جيب عسكرية قطعت الطريق بنا إلى ڤيللا جميلة بأحد أحياء الخرطوم . كان كل شيء في الڤيللا مهيأ لجلسة طرية ، جهاز تكييف الهواء شغال ، والمراوح المتناثرة هنا وهناك تئز كما الطائرات التي على وشك الاقلاع .. وبعد ساعة من الجلوس في الڤيللا إياها وصل عدد من القادة السودانيين من بينهم خالد حسن عباس زين العابدين رئيس الأمن القومي وعدد آخر من الضباط المسئولين .. وبدأت جلسة شراب وتدخين تخللها غداء فاخر

تكفل به ضابط سودانى متزوج من سيدة حبشية ، أعدت لنا طبخة حبشية من الحمام اسمها «الزغنى» وأشهد بأنها أكلة فاخرة بحق ، بعد أن تغدينا وانبسطنا، جلست أستمع إلى حوار خطير يحمل بوادر هجمة شرسة ضد الحزب الشيوعى السودانى ، كانت النية مبيتة على ضرب الحزب وتصفيته ، وكان غضب الضباط وسخطهم ينصب على عبد الخالق محجوب سكرتير عام الحزب والشفيع أحمد رئيس اتحاد العمال ، ثم خرجنا من الفيللا مشيا على الأقدام وبعد دقائق قليلة دخل الضباط فيللا ثانية ، ودخلت معهم دون أن أدرى إلى أين. واجتزنا صالة إلى صالة أخرى إلى غرفة فسيحة ، وكان بالحجرة مقعد ضخم جلس عليه شخص يرتدى بنطلونا وقميصا نصف كم . وعندما رأيت الرجل الجالس على الكرسى تسمرت قدماى فى الأرض ، فقد كان الرجل الجالس على الكرسى هو جمال عبد الناصر . نظر ناحيتى نظرة غريبة للغاية ، لم يفتح على الله بشىء أفعله ، لا أنا تكلمت ، ولا أنا تحركت . ولكن عبد الناصر نظر نحو خالد عباس وسأله : انتو كنتم فين ؟ وقال خالد حسن عباس : والله كنا فى اجتماعات يا ريس . ارتسمت ابتسامة على وجه عبد الناصر وقال : دى لازم اجتماعات خطيرة جدا ، ورد خالد عباس : احنا نسيب سيادتك ترتاح شوية علشان ح نروح نعمل الترتيبات فى الاستاد . وخرج خالد عباس زين العابدين وخرجنا الشيخ مهدى وأنا وراءهما . وقال الشيخ لخالد عباس : مش تقول إننا رايحين نقابل عبد الناصر .. وقال خالد عباس : وفيها إيه ! وقال الشيخ مهدى بحدة : فيها إيه ازاى .. احنا كده شكلنا شكل متسولين .. والسعدنى لسه جاى من السفر وما غسلش وشه . ولم أكن فى حالة تسمح لى بالتعليق على أى شىء.. كنت مهدود الحيل عديم اللياقة البدنية ، وكان منظرى يؤكد لمن يرانى أننى قضيت وقتا طويلا فى أحد المواخير .. ولكنى تكلمت عندما دعانى خالد عباس للذهاب إلى الاستاد الذى سيخطب فيه جمال عبد الناصر . قلت لخالد عباس إننى لن أذهب إلى أى مكان ولو أدى الأمر إلى اعتقالى . وطلبت منهم توصيلى إلى الفندق ، واخترت غرفة إلى جانب غرفة الفنان المرحوم عبد الرحمن الخميسى وحجرة الكاتب الكبير كامل زهيرى ، كانت تلك الليلة هى ليلة الاحتفال بعيد ثورة ٢٥ مايو ، وكان

استاد الخرطوم قد امتلأ عن آخره بالألوف من السودانيين ، وكان النميرى هو أول المتكلمين ثم تبعه العقيد القذافى ، فهاجم الشيوعيين هجوما مُرا ووصفهم بنعوت قبيحة ، ولكن خطبة العقيد القذافى قوبلت باستنكار من غالبية المحتشدين فى المدرجات ، وتبين أن الحزب الشيوعى السودانى هو أكثر تنظيما وأقدر حركة من غيره من الأحزاب ، حشد جماهيره منذ الصباح الباكر فاحتلت مدرجات الاستاد ، فصار صوته هو الأقوى والأعلى ، ثم جاء دور عبد الناصر فاستهل خطابه بتحية الاتحاد السوفييتى صديق العرب فى معركتهم ضد الامبريالية والاستعمار ، وعلى الفور وقف عشرات الألوف داخل الاستاد وهم يصفقون بحرارة ويهتفون .. علّم علّم يامُعلم . واستمر خطاب عبد الناصر ساعة ونصف ساعة .. عاد بعدها إلى الفيللا بصعوبة شديدة ، فقد خرجت معه الألوف من السودانيين وضاعت سيارته وسط بحر البشر الذين رافقوه من الاستاد إلى حيث يقيم . وقال لى الصديق الدكتور عبد الحميد عبد الرحمن .. يا بختك يا عم سمعت أنك شوفت الرئيس عبد الناصر النهارده .. وقلت له بأسى حقيقى .. يا ريتنى ما شوفته .. سألنى ليه ؟ قلت له .. هذا ليس عبد الناصر الذى رأيته من قبل . الحقيقة أننى لحظة وقع بصرى على عبد الناصر وهو جالس على الكرسى وبجواره مروحة ضخمة تخفف من حرارة الجو فى شهر مايو اللعين ، انتابنى فزع شديد ، كان يبدو شيخا هرما يتدلى جلد ذراعه ، بينما كان وجهه شاحبا بشدة ، وصار لونه فى لون الزيتون المخلل ! لم يكن هذا عبد الناصر الذى كانت صورته أقرب إلى صورة الأسد فى عنفوانه . كنا فى شهر مايو وانتقل عبد الناصر إلى رحاب الله بعد أربعة أشهر من هذا التاريخ بالتحديد .

المهم أننى وجدت فى السودان رنة شماتة بين أعضاء حزب الأمة وجماعة الترابى . كانوا يرددون فى مجالسنا نكات تدور كلها وتلف حول الهزيمة فى حرب ٦٧ . وقال لى أحد رجال الترابى ماذا فعلتم بشأن إزالة آثار «العدو» بفتح العين وتسكين الدال والواو . وطلبت من الشيخ مهدى الاتفاق مع جهة من الجهات لإقامة ندوة للعبدلله ، ونجح الشيخ مهدى فى تدبيرها فى اليوم التالى . وشرحت للناس ما يجرى الآن فى الجبهة المصرية وتحدثت عن حرب الاستنزاف ووصفت

ما حدث في ٦٧ بأنه شيء يشبه فن اللامعقول . وقلت ضاحكا لو كان العبدلله هو قائد جيش مصر فى هذه المعركة لحدث بالتأكيد شيء أفضل . وقال أحد الحاضرين : ولكن عبد الناصر هو المسئول لأنه هو الذى اختار عبد الحكيم عامر لقيادة الجيش .. وقلت له : فى الحقيقة عبد الناصر اختار عبد الحكيم عامر فى بداية الثورة . ولكنه فى عام ٦٢ حاول خلع عبد الحكيم عامر فلم يتمكن ، ونشر الأهرام فى صفحته الأولى قرارا جمهوريا بتعيين عبد الحكيم عامر نائبا للقائد الأعلى للجيش ، ووضع كل السلطات فى يد القائد الأعلى، من تعيين القادة إلى تشكيل الوحدات . وبعد نشر الخبر بساعات اختفى عبد الحكيم عامر وفشلت السلطة فى العثور على مكانه ولزم ضباط الجيش ثكناتهم ورفضوا الخروج منها بعد أن ارتدوا ملابس الميدان . وطلبت جميع القيادات عودة عبد الحكيم عامر إلى مكانه وسلطاته ، والا فإنهم سيضطرون إلى التدخل لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعى ! كان انقلابا صامتا ولكنه كشف عن قوة عضلات عبد الحكيم عامر وحدة أنيابه .

واكتشفت السلطة مكان عبد الحكيم عامر بعد عدة أيام ، وكان قد لجأ إلى أحد أصدقائه وهو محافظ مطروح وأقام عنده ، واضطر عبد الناصر إلى لحس قراره السابق ، ونشر الأهرام فى الصفحة الأولى قرارا آخر جاء فيه .. إن الرئيس عبد الناصر نظرا لمشاغله الكثيرة فقد أصدر قراراً جمهوريا بأن يعهد إلى نائب القائد الأعلى كل سلطات القائد الأعلى للجيش بما فيها تعيين القيادات وتشكيل الوحدات وتحركات القوات المسلحة . بعدها عاد عبد الحكيم عامر إلى مكتبه ، وخلع ضباط الجيش ملابس الميدان ، وخرجوا من المعسكرات وعادوا إلى حياتهم الطبيعية . منذ ذلك الحين لم يعد لعبد الناصر أى تواجد داخل القوات المسلحة . كان الأمر كله فى يد عبد الحكيم عامر ورجال مكتبه . أذكر أننى فى تلك الأيام التقيت بصديق قديم فى لندن كان يعالج عينيه عند طبيب اخصائى وهو اللواء ابراهيم الموجى وكان ذلك فى عام ١٩٦٣ وكان يعانى من ضائقة مالية شديدة مع أنه قائد أخطر سلاح فى الجيش وهو سلاح المدرعات . ونصحته بالاتصال بعبد الحكيم عامر وشرح الأمر له . فضحك بطريقة تهكمية وقال لى

مندهشا .. أنت صحفى صحيح ! أنا أكلم عبد الحكيم عامر ! .. ده أنا ما أقدرش أكلم شمس بدران ، كان شمس بدران مجرد عقيد ومدير لمكتب عبد الحكيم عامر. وعرفت من ابراهيم الموجى حقيقة الأوضاع فى القوات المسلحة . وحكيت للمجتمعين هذه القصة ، فوقف أحد الحاضرين وقال .. حتى لو صدقنا أن عبد الحكيم عامر ورجال مكتبه هم المسئولون مسئولية كاملة عن الهزيمة ، فإن حجم الهزيمة والطريقة التى تمت بها ، تحكم على النظام كله بالفشل وتستوجب استقالة عبد الناصر من منصبه ، كانت لهجته تدل على أنه من جماعة الترابى . قلت له ساخرا إننا على استعداد لطرد عبد الناصر من منصبه وتولية الترابى مكانه وإلى الابد ، ولكن بشرط أن يحقق الترابى نصرا على العدو الاسرائيلى ، ولكن أن ينتصر الترابى فى الصحف وفى الإذاعة وهو على بعد آلاف الكيلو مترات من إسرائيل فهو أمر غير مستحب وأسلوب غير مستقيم . وحدث لغط شديد فى القاعة واندفع البعض نحو المنصة الجالس عليها العبدالله فى محاولة للاعتداء على شخصى الضعيف ، والتف حولى عدد من الرجال وشمروا عن سواعدهم للدفاع عن العبدالله ، ولكن المسائل لم تتطور إلى هذا الحد بسبب تدخل رجال الأمن ، الذين صرفوا الحاضرين وانصرفت مع الشيخ مهدى وعدت إلى الجراند اوتيل . فى صباح اليوم التالى خرجت كل صحف جماعة الترابى تهاجم العبدالله هجوما شديداً . ووصفتنى إحدى الصحف بأننى الكلب الذى ينبح على أبواب قصر سيده . وقالت صحيفة أخرى أن رؤساء التحرير الموالين للحكومة يقبضون كل شهر عشرات الألوف من المصروفات السرية . وقالت صحيفة ثالثة بصريح العبارة وهى تخاطب العبدالله . لقد تطاولت على سيدك والذى لا ترقى إلى موطىء حذائه – تقصد الترابى – ثم قالت والتطاول على مقام الإمام جزاؤه معروف وستلقاه فى القريب العاجل . وقرأت الشتائم والتهديدات وانصرفت من الفندق فى صحبة بعض الأصدقاء . وذهبنا إلى حى الشجرة وتناولنا طعام الغداء هناك . ثم عدنا إلى الفندق فإذا بى أجد جنديين من جنود البوليس الحربى يجلسان على باب غرفتى وسألتهما عن سبب وجودهما هناك ، فقالا إنهما هنا لحراستى . واتصلت باللواء خالد عباس قائد الجيش ونائب رئيس الجمهورية

وطلبت منه سحب جنوده من على باب حجرتى فقال بلهجة جادة للغاية .. إن الأمر خطير يا محمود والتهديد واضح وهم لا يتورعون عن ارتكاب أى جريمة خصوصا وانهم يتصورون أنك أهنت الإمام الترابى وهو مقدس لديهم ، ولما رأيت إصرارا فى موقف قائد الجيش قررت أن أغادر الخرطوم عائدا إلى القاهرة . وحاول الشيخ مهدى أن يثنينى عن فكرة السفر إلى القاهرة . ولكن التقيت بالاستاذ أحمد حمروش فى المساء وقال لى إنه التقى بالرئيس عبد الناصر فى الفيللا التى ينزل بها فسأله عن سر الهجوم على السعدنى ، فقال له حمروش .. يظهر أنه قال حاجة عن الترابى . فقال له .. قول للسعدنى يسكت احنا جايين نهدى الجو مش عاوزين نعمل زوابع . وكانت هذه الاشارة كافية لاقناعى بالعودة إلى القاهرة على أول طائرة تغادر الخرطوم .

ولم يكتب للعبد لله أن يرى الخرطوم مرة أخرى .. اشتاق العبدلله إلى الخرطوم ، واشتاق إلى أهلها الطيبين ، ولكن الطريق للأسف الشديد صار إليها مسدودا بعد أن صار مولانا وسيدنا الترابى هو ملك عموم الخرطوم وضواحيها من الآن وإلى أن يأذن الله ، وعندئذ قد نعود مرة أخرى إلى الخرطوم .. وإن طـال الزمن !

الملك و عبد الباسط

كان الملك محمد الخامس ملك المغرب هو أول من التقيت بهم من الملوك والرؤساء ، وكان ذلك قبل عودته من المنفى وبعد إعلان استقلال بلاده ، ودخلت المغرب بأول تأشيرة دخول تصدرها أول سفارة للمغرب المستقلة ، وكانت فى أسبانيا . وكان المسئول المغربى الذى أصدرها يدعى بن يحيى على ما أتذكر . ودخلت المغرب عن طريق طنجة الدولية حيث لا تأشيرات ولا يحزنون ، وعندما أردت دخول المغرب لم يعترف رجل الحدود - وكان فرنسيا - بتأشيرة المغرب المستقلة ، وردنى مرة أخرى إلى طنجة طالبا تأشيرة دخول فرنسية ، ولكنى عبرت الحدود فى اليوم التالى دون الحصول على تأشيرات ، ودخلت المغرب فى ملابس مغربية وفى أتوبيس يضم العشرات من المغاربة والأجانب . وبعد أن اطلع رجال الحدود على أوراق الأجانب سمحوا للأتوبيس بالمرور ، ولم يطلب أحد من رجال الحدود الاطلاع على أوراقى باعتبارى مغربيا من صلب مغاربة ومن مواليد مراقش بالتحديد ، وفى المغرب التقيت بالعديد من المناضلين الذين أبلوا بلاء حسنا ضد قوات الاحتلال الفرنسية ، على رأسهم المهدى بن بركة والدكتور الخطيب والتقيت بعدد كبير من الصحفيين ، على رأسهم عبد الجبار السحيمى ومحمد الطنجاوى وآخرون . ثم قابلت مسئول إدارة الإعلام ، وكان شابا قليل الخبرة قليل الحيلة ومغرورا ووقحا على نحو ما ، وكان دميم الخلقة ، ويعتقد أنه معبود النساء ، وعندما طلبت منه أن يمهد لى الطريق لمقابلة الملك ، نظر إلى فى دهشة على أساس أن هذا الطلب من المستحيلات ، وفى اليوم التالى جمعتنى الصدفة الطيبة برجل من رجال القصر اسمه البنان ، يقال إنه من أصل مصرى. وكان طويلا وعريضا وفخيم المنظر ، ويبدو عليه أنه فى مكانه الصحيح، كما كان مرحا وخفيف الدم وشديد الذكاء . وعندما طلبت منه مقابلة الملك طلب منى أن أمر عليه فى مكتبه داخل القصر دون أن يعدنى بشىء محدد . وذهبت

إليه فى التاسعة صباحا ، واكتشفت أنه مشغول للغاية ، فقد كان القصر يستعد لاستقبال أول سفير فى بلاط صاحب الجلالة ، وكان السفير المحظوظ من تونس واسمه السحبانى على ما أتذكر، وسحبنى الرجل الطيب من يدى وأدخلنى قاعة العرش لأشاهد مراسم تقديم أوراق اعتماد أول سفير فى بلاط ملك المغرب المستقلة ، وجرت مراسم تقديم أوراق الاعتماد فى جو مرتبك فقد كانت التجربة الأولى للبلاط ، وأذكر أن السفير التونسى عندما انتهى من قراءة خطاب الاعتماد جلس على مقعده فى حضرة الملك ، فما كان من البنان إلا أن اقترب منه وجذبه من فوق مقعده وطلب منه الوقوف وعدم الجلوس إلا إذا أذن له الملك ، وارتبك السفير التونسى بشدة وظل يعانى من حالة الارتباك حتى انتهت مراسم الاستقبال ، وبعد انسحاب السفير من القاعة ، قدمنى البنان إلى الملك ، كم كان محمد الخامس بسيطا وعظيما فى نفس الوقت ، صافحنى بود شديد وراح يسألنى عن مصر وأحوالها وقال :

– أنت أول صحفى مصرى يأتى إلينا بعد الاستقلال .. ونحن لاننسى فضل مصر ولا ننسى جميلها .

وقال :

– لقد كان صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد هو خير أنيس لى فى منفاى الطويل ، وأضاف الملك :

– إن الشيخ عبد الباسط عبد الصمد هنا فى المغرب وهو يأتى إلى القصر كل مساء ليقرأ ما تيسر من أى الذكر الحكيم .

ودعانى الملك إلى الغداء .. وجلسنا على مخدات فاخرة وتناولنا غداءنا على مائدة قصيرة أشبه بالطبلية فى مصر .. وكانت مائدة ملكية فاخرة تنوقت عليها أفخر الأطباق المغربية المشهورة ولكنى لاحظت أن الملك يأكل بحرص شديد ، وعندما انتهى من غدائه كانت الكمية التى أكلها تكاد تكفيه للقيام بواجباته الملكية ، وطلبت من الملك أن يكتب كلمة لشعب مصر أنشرها بجريدة الجمهورية فوافق على الفور ، وقادنى إلى مكتبه وكتب الورقة بخط يده وضمنها عبارات

الحب والإعجاب بشعب مصر وطلبت منه صورة تسجيلية للمقابلة ، فاستدعى المصور الخاص الذى التقط لنا مجموعة من الصور ، وأثناء التصوير لمحت مدير إدارة الاستعلامات الدميم المغرور الوقح واقفا عند الباب وهو يكاد يأكل نفسه من شدة الغيظ ، وكان السبب معروفا بالطبع لأننى وصلت إلى الملك عن غير طريقه وبدون علمه . عندما صافحت الملك مستأذنا فى الانصراف ، طلب منى أن يرانى ثانية ، ونظر إلى مدير الاستعلامات ولكننى تدخلت فى الحديث وقلت للملك :

– أنا صديق الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، ولو سمحت لى فسأحضر معه فى المساء .

قال :

– لا بأس ، أنا فى انتظارك غدا فى المساء . وذهبت فى الموعد إلى قصر الملك بصحبة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ، ورأيت بنفسى كيف يستمع الملوك إلى آيات الذكر الحكيم .

كان الملك محمد الخامس نموذجا لما كان عليه السلف الصالح من طيبة وتقوى وتواضع لله ولخلق الله ، ورأيته مرة ثالثة فى الجامع الكبير ، فقد صادف أول أيام العيد الكبير يوم الجمعة . حضر الملك وجلس فى مقصورة تتوسط الجامع الكبير ، وفى مساجد المغرب لا يسمح بقراءة القرآن من مقرىء ولكن يقرأ جميع المصلين القرآن من مصاحف أمامهم ، ولكن تكريما للشيخ عبد الباسط عبد الصمد فقد سمح له بقراءة السورة لمدة خمس دقائق فقط ، وكان الشيخ عبد الباسط فى عنفوانه وفى قوة مجده ، وكان صوته فى غاية القوة والصفاء ، وكان يتمتع بنفس طويل وقد بدأ كعادته بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم «إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا» قالها الشيخ عبد الباسط بأسلوبه العذب وبطريقته المحببة ، وعندما انتهى من قراءة الآية هب المائة ألف مسلم الذين احتشدوا فى الجامع الكبير وقد أخذتهم المفاجأة وأذهلهم صوت الشيخ عبد الباسط ، فراحوا يتصايحون ويصرخون . بعضهم هجم على الشيخ يقبله ، وحلق الشيخ عبد الباسط فى العلالى وراح ينتقل فى براعة من طبقة

الجواب إلى طبقة جواب الجواب ، بينما المصلون يصرخون من الأعماق ، وبالطبع تجاوز الشيخ عبد الباسط الدقائق الخمس المسموح له بها ، مما اضطر الملك محمد الخامس إلى أن ينقر بأصابعه على خشب المقصورة ، وكرر الملك النقر مرة أخرى وبشكل أشد عندما طالت فترة القراءة إلى ربع ساعة ، واضطر الشيخ عبد الباسط إلى التوقف فجأة ، بعدها نادى المؤذن للصلاة ، وبعد الصلاة خرج الملك لكن الشيخ عبد الباسط والعبد لله معه تأخرنا أكثر من ساعتين داخل المسجد ، لأن المائة ألف مسلم المحتشدين بالجامع الكبير أصروا على تقبيل يد الشيخ ، وبعضهم قبل يد العبد لله ظنا منهم أنني صبى مقرئ أو مساعد مقرئ .

وعشت بالمغرب أياما تحسب بالعمر كله ، تنقلت خلالها من طنجة إلى الرباط إلى الدار البيضاء إلى فاس إلى مكناس إلى تطوان إلى وجدة إلى خنيفرا، حيث مقر القائد مهروق زعيم قبائل البربر وعشت فى ضيافته ثلاثة أيام عادت بالعبد لله إلى جو ألف ليلة ، وغادرت المغرب مع الشيخ عبد الباسط إلى مدريد ، وفى مدريد لفتنا أنظار الجميع . لقد كان الشيخ عبد الباسط شابا وسيما وأنيقا ، وكان يرتدى قفطانا من الحرير الطبيعى اليابانى وجبة صوف خفيف لونها أزرق سماوى ويلف وسطه بشال حرير هندى مزركش ويضع على رأسه عمامة حمراء بزر أزرق ويلف العمامة بشال أبيض له شراشيب مدببة ، ويبدو أن الأسبان تصوروا أننا فى طريقنا إلى كرنفال أو إلى حفلة تنكرية وبالتأكيد فإنهم لم يكونوا قد شاهدوا هذا الزى من قبل ، ولذلك كان المارة يستوقفوننا فى الشارع لالتقاط صور للشيخ عبد الباسط ، وكان الشيخ عبد الباسط يسمح لهم بالتقاط صور . لكنه كان يرفض بشدة أن تؤخذ له صورة مع سيدة .. وقد نشر العبد لله حديث الملك محمد الخامس فى جريدة الجمهورية فى عام ١٩٥٦، ونشرت مع الحديث الورقة التى كتبها الملك بخط يده تحية لشعب مصر ، ولم يقدر للعبد لله أن يرى الملك محمد الخامس مرة أخرى لأننى عندما عدت لزيارة المغرب للمرة الثانية ، كان الملك محمد الخامس قد فارق دنيانا إلى رحاب الله ، وإذا كان الملك محمد الخامس هو أول زعيم عربى تعرفت عليه وتشرفت فقد تعرفت أيضا على سى

مبارك بن بكاى رئيس وزراء المغرب فى ذلك الوقت ، وتعرفت على رئيس التشريفات محمد البنان ، ونشأت صداقة بين العبد لله وبين المهدى بن بركة ، وبينى وبين اليوسفى ، وأتاحت لى الفرصة الحسنة الجلوس مع الأمير الحسن ولى العهد الذى صار فيما بعد ملكا على المغرب ، وامتدت جلستنا إلى ساعة متأخرة من الليل ، بصحبة صديقين من أصدقاء الأمير الحسن ، وهما عبد المنعم النجار الملحق العسكرى لمصر فى مدريد وقتئذ ، وحسن فهمى السفير المصرى ، والذى كان ياورا للأمير الحسن فى يوم من الأيام ، وفى نفس الفندق جلست عدة مرات مع ضابط برتبة رائد ، لعب أدوارا هامة ورهيبة بعد ذلك كان اسمه أوفقير . وأعتقد أنه لا يحتاج إلى تعريف ، فهو أشهر من أن يعرف ، وقد لقى جزاءه فى النهاية ، وتعرفت أيضا على محمد بن جلون حاكم طنجة العربى إذ كان يحكم طنجة فى ذلك الوقت نحو ستة حكام ، أسبانى وبرتغالى وبريطانى وفرنسى وسويسرى على ما أتذكر ، وقد تعرفت على محمد بن جلون فى مكتب الرئيس أنور السادات عندما كان رئيسا لتحرير الجمهورية ، وزرته فى قصره فى طنجة ، ويعتقد العبد لله أن المغرب بالنسبة لبلاد العرب لها شخصية مميزة وطابع خاص ، وأعتقد أنها نسخة مكررة من صورة الحياة فى أشبيلية وطليطلة والأندلس .

دخلت الخليج فى ثياب مارادونا !

عرفت طريقى إلى الخليج على مرحلتين ، المرحلة الأولى كانت عن طريق شرعى، وبدعوة من وزارة الإعلام الكويتية والغريب أننى ذهبت إلى الكويت على طائرة عراقية طارت بى من مطار بغداد . وكان ذلك بعد الاستقلال بقليل . وكانت صلتى بالكويت تمتد فى الماضى إلى أبعد كثيرا من تاريخ هذه الزيارة .

فقد تعرفت على كويتى مثقف هو الأستاذ عبد العزيز حسين عندما كان مشرفا على البعثة التعليمية الكويتية فى القاهرة ، وكان عبد العزيز حسين هو خير سفير للكويت ، واستطاع فى فترة قصيرة أن يحظى بصداقة واحترام مجموعة كبيرة من زبدة مصر ، أدباء وفنانين وصحفيين ! .

وكان صالح شهاب هو الكويتى الثانى الذى تعرفت عليه ، وكان صالح رجلا طيبا يرحمه الله ، ولكن دائرة اهتماماته كانت تختلف كثيرا عن دائرة اهتمامات عبد العزيز حسين . واستمرت علاقة العبد لله بالأستاذ عبد العزيز حسين حتى الآن ، أما علاقة العبد لله بصالح شهاب فقد أصابها الفتور أحيانا ، وانقطعت أحيانا خصوصا عندما كان يحدث خلاف حاد بين العبد لله والمسئولين هنا أو هناك .

ولكن زيارتى للكويت تركت فى نفسى أثرا طيبا ، فقد كنت ضيفا على عائلة كويتية كريمة كل يوم تقريبا ، ووجدت فى الكويت مجتمعا عربيا منسجما ، يصلح لكى يكون منتخبنا للعالم العربى .. ورأيت على أرض الكويت مفكرين عربا كبارا من أمثال الدكتور أحمد زكى ، وخبراء عربا كبارا من أمثال أمين عز الدين ، وأطباء كبارا يتمتعون بشهرة دولية كالدكتور البوز والدكتور مطاوع . وكان للفلسطينيين وضع خاص فى الكويت ، كانت لهم أحياؤهم ومجتمعهم وكانوا

يمارسون حياتهم كأنهم يعيشون فى يافا وعكا قبل النكبة . واكتسبت عددا من الأصدقاء فى أول زيارة أعتز وأفخر بصداقتهم حتى الآن . على رأس هؤلاء الأصدقاء عمنا سعود العمر الذى حضر أيام الغوص وسافر بالسنبوك إلى الهند . وأذكر أننى فى تلك الزيارة وكنت أقطع دروازة عبد الرزاق بصحبة العم سعود ، أن مر بنا رجل من الصالحين كان صديقا لسلطان المحمرة فى بداية القرن . وصافح الرجل عمنا سعود العمر وقدمنى سعود إليه فأمسك الرجل بيدى وقال مبتهجا .. ياسلام والله أنا أقرأ لك من الأربعينات !! .. وقلت للعم المعمر .. أنت تقصد والدى الله يرحمه ؟ وصدقنى الرجل الطيب وقال ... والله ... مات ؟ ولما أجبته بالإيجاب ، رفع يديه إلى السماء وطلب منى قراءة الفاتحة على روح والدى الذى كان يقرأ له فى الأربعينات !! .

ورجل آخر عرفته فى تلك الأيام ، وكان متكلما ونشيطا ويمارس التجارة والوظيفة فى نفس الوقت ، وهو الذى رتب للعبد لله كل العزومات فى بيوت الكويت ، ولكنى قضيت ثلاثة أسابيع طويلة لم أدخل بيته ولم أعرف عنوانه حتى هذه اللحظة !

المهم أن زيارتى للكويت كانت هى البداية . بعدها بسنوات دخلت الخليج ولكن من الباب الخلفى . كان النادى الاسماعيلى فى جولة كروية إلى دول الخليج ، فوضعت اسمى فى كشف الكباتن ، وانطلت الحيلة على السفارة البريطانية فى القاهرة ، وبعد أيام وجدت نفسى فى البحرين . كان أول من استقبلنى فى مطار البحرين هو الأستاذ محمود الغزاوى مدير البعثة التعليمية فى البحرين . وهو رجل فاضل وكان موضع احترام البحرين حكومة وشعبا . وانتحى بى الرجل جانبا وقال هامسا .. أرجو أن يكون وجودك بالبحرين عامل ربط بين البحرين ومصر ، فهنا شعب فاضل وحكومة فاضلة ، والجميع يحبون مصر والمصريين .

والحق أقول إن زيارة البحرين صدمتنى وغيرت فكرتى عن الخليج . وجدت شعبا عظيما وحيا يتفجر عروبة وعلى استعداد للموت فى سبيلها .. ووجدت فى البحرين صحافة حرة وصحفيين أكفاء على رأسهم محمود الماردى وعلى السيار .

واجتمعت فى البحرين بأدباء وشعراء لاتقل قاماتهم عن قامة محمود حسن إسماعيل أو عباس خضر أو عبد القادر القط .

ولكن الذى أدهشنى حقا هو الحركة الفنية فى البحرين . فرق غنائية وفرق موسيقية ومطربون ومطربات وملحنون .. وعاد بى صوت محمد زويد وطريقته إلى عصور مجيدة أيام مجد العرب فى دمشق وفى بغداد وفى القاهرة . وأذكر فى الليلة الأخيرة لنا فى البحرين أننى بكيت عندما غنى محمد زويد قصيدة للمتنبى جاء فيها ..

نبكى على الدنيا وما من معشر
جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى فحواه لَحْدٌ ضيق

وتمنيت فى تلك الليلة أن أعيش على شاطىء الخليج فى البحرين إلى نهاية العمر.

وكان لقاء أمير البحرين هو مسك الختام .

رأيت أميرا متواضعا ليس لتواضعه حدود ، عروبى حتى النخاع ، وكل ما يرجوه أن تكون مصر بخير ، فهى الميزان .. وإذا طابت أوقاتها طابت أوقات العرب ، وإذا مسها سوء ، فياويلتاه لأمة العرب . ولم يعاملنا الرجل كضيوف ولكن كأهل بيت . وعندما غادرنا قصره أصر على أن يصحبنا إلى الباب الخارجى . وكان على رأس بعثة الاسماعيلى المهندس عثمان أحمد عثمان والصحفى الكبير نجيب المستكاوى والأستاذ زكريا نيل ومدير جريدة الأهرام عبد الله عبد البارى والعبد لله .

وغادرنا البحرين إلى أبو ظبى ، فلم تكن دولة الامارات قد قامت بعد ، وكان العبد لله على صلة بالحركة الوطنية بالامارات المتصالحة . فقد كان أحد أبناء الشيوخ يتلقى العلم فى مصر ، ولحسن الحظ كان زميلا لشقيقى الفنان صلاح السعدنى فى كلية الزراعة ، وكان يتردد أحيانا على منزلنا مع صلاح وعادل

إمام . وكان يصرعلى زيارة سوق السمك فى الشارع الذى يسكنه زكريا الحجاوى ، لأن السوق تتذكره بسوق السمك فى الشارقة . وكان دائم الحديث عن نضال أهل الشارقة ضد القوات البريطانية . وهو نضال شمل أهل الشارقة جميعا . من العامل الذى يشتغل داخل المعسكر إلى شيخ الشارقة نفسه .. كان الطالب الشاب يتفجر عروبة ووطنية ، وكان كل أمله أن تسنح له فرصة للتطوع فى جيش مصر ليقاتل الصهاينة على أرض فلسطين . وكان الشاب الخليجى طالب الزراعة بجامعة القاهرة هو سلطان بن محمد القاسمى شيخ الشارقة الآن !.

وفى أبو ظبى لعب الاسماعيلى مباراته الوحيدة فى أرض فضاء . كانت أبو ظبى كلها مجرد أرض فضاء . وكان الشيخ زايد قد تولى أمر الامارة منذ شهور قليلة مضت . وفى جولة مع الشيخ زايد داخل الامارة راح يشير بعصاه .. هنا الميناء ، وهنا المطار ، وهنا قصر الامارة ، وهنا شارع وهنا ساحة ، وهنا سوق ، وتصورت أن الرجل يحلم . فلم يكن حولنا إلا فضاء وفضاء وفضاء ولا شىء آخر . لا شجرة واحدة على امتداد الأفق ... ولا أمل فى وجودها يوما ما .. ولكن ما تصورته خيالا صار واقعا حيا الآن .. وأستطيع أن أقول إن مدينة أبو ظبى هى أجمل مدن العالم العربى على الاطلاق ، أجملها وأكثرها اخضرارا، وهى معجزة بكل المقاييس .

كانت دبى فى تلك الأيام هى أكثر الامارات حياة ونشأطا . وكانت تضم بعض الفنادق وبعض المطاعم . وكانت سوقها عامرة بكل أنواع السلع والبضائع . وعلى رصيف الميناء كنت تستطيع شراء أى شىء وكل شىء . وكانت رخيصة إلى الحد الذى يغريك بشراء سلع لاتحتاجها ! وكانت بها ادارة حازمة وعادلة فى الوقت نفسه . ولذلك انتعشت السوق وازدهرت التجارة .. ولعبنا مباراة مع النادى الأهلى . ثم خرجنا منها إلى الشارقة ، إذن هذه هى الشارقة وإن طال السفر .. وشعرت فى الشارقة بأننى لم أغادر الجيزة ... نفس الملامح ونفس الوجوه ونفس الحوارى .. أو «السكيك»! البنت هنا تتلقى العلم مع الطالب فى المدرسة . والكل


هنا يتابع أخبار مصر ، والبعثة التعليمية كلها من مصر ، وكل أفرادها موضع الرعاية والاهتمام . وعندما قمت بزيارة سوق السمك فى الشارقة أدركت السبب الذى من أجله كان الشيخ سلطان يصر على زيارة سوق السمك بالجيزة بين الحين والآخر ، ولولا الخلاف فى بعض أنواع السمك لتصورت أننى فى شارع زكريا الحجاوى ! ..

وفى الشارقة اكتشفت مدى تأثير إذاعة مصر وصحافة مصر . ولكن الصحافة كانت تصل إليهم أحيانا وتغيب عنهم أغلب الأحيان ، أما الاذاعة فكانت حاضرة وعلى ودنه . وكانوا يستمعون إلى البرنامج كله حتى المناقشات وحتى المحاضرات . ولم يكن ينافس إذاعة مصر إلا إذاعة لندن العربية . ولكن إذاعة لندن كانت فى نظر الكثيرين منهم إذاعة مغرضة وكاذبة وعدوة . ولذلك لم يصدق الناس هناك أن جيش مصر انهزم فى عام ١٩٦٧ . لأن إذاعة لندن هى التى أذاعت الخبر . ولكنهم بكوا كثيرا عندما أذاع عبد الناصر نبأ الهزيمة وتنحى عن موقعه . وربما كانت منطقة الخليج هى أول منطقة عربية تشهد مظاهرة شعبية تعلن رفضها للهزيمة ورفضها للتنحى ، وكانت الشارقة هى مسرح هذه المظاهـرة .. المهم أننى تعرفت فى الشارقة على عديد من وجوه الحركة الوطنية . وكانوا جميعا يحلمون بدولة خليجية واحدة تمتد من قطر إلى خورفكان ، وكانوا يحلمون بعلم واحد وسوق واحدة . وهؤلاء الشباب صار بعضهم الآن وزراء وتجارا ورجال أعمال . لقد حققوا بعض أحلامهم فقامت دولة الامارات العربية المتحدة ومن أبو ظبى إلى كالباء ، وتغيرت أمور ساحل الخليج كثيرا عما كانت عليه من قبل ، أنكر أننا توقفنا كثيرا عند الحدود بين أبو ظبى ودبى وتوقفنا مرة أخرى عند الحدود بين دبى والشارقة ، ولم نقم بزيارة عجمان خوفا من تبديد الوقت عند الحدود بين الشارقة وعجمان ، وأذكر أن إمارات الساحل كانت تغطيها إذاعة تبث من معسكر للجيش الانجليزى وكانت مدتها ساعتين ، وكانت تذيع بعض الأغانى وبعض تعليمات سلطة الاحتلال البريطانى ، أما نشرة الأخبار فكانت تذيع نبأ وصول سيارة شحن رقم كذا من أبو ظبى إلى دبى ، أو

حادث تعرضت له سيارة على الطريق بين الشارقة وأم القوين . وإذا كانت سوق دبى تضج بالحركة والحياة فإن سوق الشارقة كانت تتصف بالذوق وخفة الدم ، وكان بوسع المتردد على السوق أن يشرب القهوة عند التاجر وأن يفتح معه حديثا فى السياسة ثم ينصرف دون أن يشترى أى شىء .. أما سوق أبو ظبى فلم تكن أكثر من سقيفة يجلس تحتها عدد من الباعة يفترشون الأرض . بائع السمك إلى جانب بائع القماس إلى جانب بائع البطيخ إلى جانب بائع التبغ ، ولم تكن مساحتها تزيد على خمسة عشر مترا طولا وثلاثة أمتار عرضا . ولكن الذى هزنى حقا منظر مهاجر فلسطينى أقام (كشك) على الرمال على مقربة من الشاطىء يبيع بعض المرطبات .

وسألت أبو طافش – وهذا اسمه – عن الظروف التى ألقت به إلى هذه الصحراء ، قال ... أنا من غزة وأعيش فى مخيم للاجئين منذ عام ١٩٤٨م، والحياة هناك تضيق بالناس وليس ثمة أمل يلوح فى الأفق . وهذه البلاد لها مستقبل وقد قررت أن أربط نفسى بها ، فإما إلى سكة السلامة وإما إلى سكة اللى يروح مايرجعش ! وبعد مرور هذه السنين الطويلة وفى آخر زيارة لى إلى دولة الامارات اكتشفت أن «أبو طافش» كان على حق فهو الآن صاحب سفينة تقف على شاطىء الخليج . لقد تطورت دولة الامارات ، وتطورت أحوال أبو طافش ، ليس أبو طافش وحده ، ولكن عشرات الألوف من طراز أبو طافش احتضنهم الخليج وعاشوا معه وبه ، وقامت فوق الرمال القاحلة عدة مدن من أجمل مدن العرب ، أبو ظبى . العين ، دبى، الشارقة ، عجمان ، رأس الخيمة . ولكنى أشعر بحنين دائما إلى البحرين بلد الفن والموسيقى ، وإلى الشارقة التى تدعوك عدة يفط على حدودها إلى الابتسام لأنك فى الشارقة ، وأيضا لأننى فى الشارقة أشعر بأننى على شاطىء النيل فى الجيزة ، وفى حواريها أشعر بأننى فى حارة رابعة ، وفى سوق السمك على شاطىء الخليج أشعر بأننى فى شارع زكريا الحجاوى !.

الفهـــرس


سكوتش منت
يسَرْسِب في نَعْنَشَة
SCOTCHMINTS
سكوتش منت
قوية النكهة
حبيبات حلوى
بالنعناع
من چامي
اج : شركة الدلتا للحلويات والصناعات الغذائية
بالعاشر من رمضان ت: ٠١٥/٣٦٠٩١٦
Bibliotheca Alexandrina
0523025